
رواية
مبارك وساط
وديعة خُفاف
المتوسط

وديعة خُفاف

حقوق النسخ © 2023 **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

حقوق التأليف © مبارك وساط 2023

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Wadiàa Khufaf *by* "Embarek Ouassat"
Copyright © 2023 by **Almutawassit Books** / Embarek Ouassat

المؤلف: مبارك وساط / عنوان الكتاب: وديعة خُفاف
الطبعة الأولى: 2023
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-002-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
الإمارات العربية المتحدة / الشارقة / المنطقة الحرة / مدينة الشارقة للنشر
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

مبارك وساط

وديعة خُفاف

المتوسط



مبارك وساط: شاعر ومُترجم مَغربي. وُلِد في 16-10-1955. اشتغل بتدريس الفلسفة حتّى 2005.

صدر له في الشعر: مجموعة "على دَرَج المياه العميقة" 1990-2001، و"محفوفا بأرخبيلات..." 2001 و"راية الهواء" 2001، "فراشة من هيدروجين" 2008، و"رجل يبتسم للعصافير"، و"عيون طالما سافرتْ" 2017. وبالفرنسية مجموعة "برق في غابة" 2010.

ترجم الكثير إلى العربية ومنها: "نادجا" لأندري بريتون 2010، و"التّحوّل" لفرانتس كافكا 2012. حصل على جائزة سركون بولص للشّعر وترجمته 2018.

أمّا "وديعة خُفاف"، فهي روايته الأولى.

المتوسط

الذِّكرياتُ ريحٌ، وهي تَخترعُ غُيُوماً (جول سوپرڤيال).

I
فارس

الجُمُعة 11 أبريل 1986

بَقي فارس مُغمِضاً عينَيْه لِلَحظاتٍ بعد انقضاء نومه، مُتمنِّياً لو أنَّ الحُلْم استمرَّ ولم تتوقَّف وقائعه بِشكل فُجائيٍّ. ثمَّ بدأ يفتحهما رُويداً، وقال في نفسه: إنَّه لَحُلْم مثير! فقد رأى أنَّه يشرب في حانة، ثمَّ يَدخل مغارة جنب شاطئ، فيخلع ملابسه ويتركها هنالك ويمضي للسِّباحة، لكنَّه حين يعود، وبعد أن يرتديَ تلك الملابس، لا يعثر للحذاء على أثر. يستكشف جوانب المغارة، وتَحتَ أحد جدرانها، تبدو له جمجمة تترنَّح وتضحك، كأنَّها تسخر من حاله. ثمَّ يدخل إلى المغارة نادلُ الحانة التي شرب فيها، وبضع أمامه صينيَّة عليها فردتا حذاء جديدتان مُختلفتا الشَّكل واللون وكأسُ نبيذ. يقول له فارس: يا للحذاء الرَّائع! ثمَّ يُفرِغ في إحدى الفردَتَيْن كأسَ النَّبيذ، ويُضيف: النَّبيذ ذو أثر حسن على الجِلْد. بعدها ... يستيقظ! ودون تفكير، يتمطَّى ثمَّ ينحني ويُجيل عينَيْه أسفلَ السرير ... كأنَّه سيرى تينكَ الفردَتَيْن، المُتْرعة إحداهما بالشَّراب، جاهزَتَيْن لتلجَهُما قدماه!

ثمَّ نهض من سريرِه، لا بالمَرِح ولا بالقَلِق. كان يلبس شورتاً أحمر خفيفاً وفانلة بيضاء. وبدت له الصَّالة وكأنَّها صغُرتْ. لكنْ، كَلَّا. لقد كانت فسيحة، تنبسط على قِسم كبير من أرضيَّتها زَربيَّة ذات أشكال

هندسيَّة زرقاء وحمراء وسوداء. لم تكن هنالك غرفٌ غَيرها في هذا المَسكَن. قُبَالَة فارس الآن، إلى اليسار، هنالك المكتبة، قُربها طاولة مستطيلة بلون الأبنوس، مِن حولها كرسيَّان ذَوَا أذرع، أزرقان، وأريكة زرقاء أيضاً. فيما وراء المكتبة، هنالك العمود الأبنوسي الطَّويل، ذو الأذرع المُقوَّسة التي هي مشاجب، عُلِّقَتْ بها بضعة أثواب. لِصْقَ الجدار المواجه مباشرةً لفارس، التلفاز على طاولته الزُّجاجيَّة. وفي أقصى اليسار من هذا الجدار، باب المَسكَن، المُفضي إلى الخارج، وهو أزرق اللون، مثل النَّافذة القريبة منه، والتي تَعلو التلفاز، وفوقها، بِدورها، لوحة لِفنَّان مجهول، تُمثِّل رجلاً وامرأة جالسَيْن في حديقة، تحت شجرة تتساقط أوراقها الصَّفراء. أمَّا جنبَ الجدار الذي إلى يمين فارس، فهنالك خزانة للملابس، عريضة، بثلاثة أبواب، متوسِّطة الطول، وفوقها لوحة لعبد العزيز الكابران، ابن لالَّة البتول، التي استأجر منها فارس هذا البيت. وفي الطَّرَف الأبعد من هذا الجدار، يَنفتح رِوَاقٌ جانبيٌّ يُؤَدِّي إلى باب المطبخ، وبعده إلى باب الحمَّام. لوحة الكابران موجودة في مكانها مِنْ قبل أنْ أَقطُن بهذا المَسكَن، يُفكِّر فارس. ولكثرة ما أتأمَّلَها وأنا في طريقي إلى المطبخ أو إلى الحمَّام، أَصبحَ بإمكاني استحضارُ تفاصيلها مِن الذاكرة: فهنالك شاطئ، به ثلاثة رجال وامرأة بملابسهم، متمدِّدين على جنوبهم، متباعدين قليلاً وباسمين، ومن العين اليمنى لكلٍّ منهم تتهاطل دموع، يتَّضح حين الاقتراب منها أنَّها ألماسات دقيقة ضاربة إلى الزُّرْقة، فيما تتبدَّى في حَدَقَات العيون اليُسرى، منعكسةً، درَّاجات أو نظَّارات أو شلَّالات ماء، وفي الزاوية اليسرى العُلوية من اللوحة، يظهر رأس رجل تنحدر من فمه نفثات من سيجارة، وتتَّجه نحو مفترق فخذَي امرأة جميلة عارية ممدَّدة في طرف سفليٍّ من اللوحة.

لم تتجاوز الساعة الثامنة إلَّا قليلاً. في طريقه إلى الحمَّام، استأثرتْ بنظرته، للحظات، أشياء موضوعة على الأريكة الطويلة: جوربان سوداوان طويلان، بهما مربَّعات شفيفة، صحيفة مغربية، أحد أعداد مجلَّة العربيّ. الجوربان الطويلان الأسودان هما لِزهور طبعاً. لقد تركتْهما هنا، خلال زيارتها الأخيرة. قُربهما، ما تبقَّى من سجائر قليلة في علبة سيتركها فارس في مكانها، فلديه أخرى في جيب جاكتته الزَّيتونية اللون. أمَّا الاستدعاء، فيُوجَد في جيب الجاكتة العلويِّ. العلويّ الأيمن، تحديداً!

الاستدعاء! ردَّد فارس في قرارة نفسه. وأَتْبَع ذلك بِ "أوووفْ"، طويلة، ناجمة عن تَعب غامض. فاليوم هو الجُمُعة 11 أبريل 1986، وفي هذا الصباح، قبل الثانية عشرة، عليَّ أن ألتحق بمكتب رئيس مصلحة الموظَّفين، بمُلحقة وزارة الثَّقافة، فأنا مُستدعىً إليه، باعتباري موظَّفاً غيْرَ مثاليٍّ! وسأرى ما سيكون قرارهم في حَقِّي.

هيَّأَ فارس لنفسه قهوة بالحليب. ثمَّ جلبها من المطبخ ومعها كعكة، بَسَط في وسطها، على شِقٍّ منها، طبقة رقيقة مِن الزُّبدة، وعلى الشِّقِّ الآخر قليلاً من مُربىً الكرز. إنّه يُفْطر متمهِّلاً، فالاستدعاء قد أعفاه من الالتحاق بالعمل، وأمامَه فسحة مديدة من الوقت. بعد الإفطار، يُدخِّن سيجارة حتَّى منتصفِها، ويُفتِّت ما تبقَّى في المنفضة. يتصاعد من التَّبغ المحترق المُبَدَّد دخان رمادي مُرْبدٌّ كثيف، فيُسارِع إلى تناول كأس ماء بقُربه، لم تعد فيها إلَّا قطرات، ويُفرِغها على فتات التبغ الذي يحترق.

ينتهي فارس من ارتداء ثيابه، ويقف قُبَالَة المكتبة. سيأخذ معه الرواية التي سيُعِيرها للنَّادل عبدو: "الأعمى ذو المسدَّس" لتشيستر هايمز، فَهو يريد أن يقرأ رواية بوليسيَّة. ويلتفت إلى رفوف على يمينه: هذه هي الخانات التي خصَّصها لكُتُبٍ، تركها لديه عليّ بوهدّي، الذي كان يسكن معه في "الدَّار الخضراء"، قبل أن يذهب إلى الإسكندريَّة، حيث تُوفيِّ في حادثة سَيْر، رُفْقة المصريَّة ميريام، ولكنْ، بعد أن تحقَّق له ما كان حُلْماً بالنسبة إليه: الحُبّ الكبير.

في الخارج، ينحني فارس بأعلى جِذْعه على قُفل بابِ بَيته، وبِيمناهُ مِفْتاحٌ يبدو كأنَّهُ يُديرُه في ذلك القُفل. والذي يراه من الخلف، سواء أكان عابراً في الطَّريق - شارع بروكسيل - أو قابعاً في مكان يستطيع منه أن يَلحظَ حركاته، سيحسِبُ أنَّه حقّاً يُحْكِم إغلاق بابه بالمِفْتاح قبل أن يمضيَ إلى حيثُ يشتغل. لكنَّ فارساً لا يُغلِق الباب فِعْلاً، إنَّه فحسبُ يتظاهر بذلك. بِيُمناه يُدير مِفْتاحاً غيرَ صالح، قريباً من فتحة القُفل، فيبدو ظَهْرُه، من الخلف، متحرِّكاً إلى أعلى، ثمَّ إلى أسفل، حركةً خفيفة تثير فيه هو نفسه ابتسامةً مكتومة. ولم يكن بالطبع يتسلَّى أو يتمرَّن على مشهد سينمائيٍّ أو مسرحيٍّ، ولكنَّ مِفْتاحه الفعليَّ قد ضاع منه منذ يومَيْن، وبالفعل جاء بصانع مفاتيح ليفتح له الباب، وتمَّ ذلك، ولكنَّه لم يُغيِّر له القُفْل على الفور. قال له: اشترِ قُفْلاً جديداً، وتعال إلى محلِّي وسأذهب معكَ وأُركِّب القُفْل الجديد. لكنَّ فارساً يتلكَّأ، فعلى أيِّ حال، فزهور لديها مِفْتاح، وسيستخرج له صانع المفاتيح نسخة منه، وهي لن تتأخَّر في المجيء إلى مَسكَنه ... يا لي من مُتهاون! هذا غير معقول!

أمَّا تظاهُري بإحكام إغلاق الباب، فهو للإيهام، إذْ لا ينبغي أن يَلحظَ أحدٌ أني أتركُه قابلاً لأن يُفتَح بدفعة من كتف أو بركلة طفيفة، يفكِّر فارس، وقد تحرَّك خطوَتَيْن. فيا لَحكاية المِفْتاح هاته، كم تَبدو مُضحِكة ومُزعِجة ... ثمَّ، ما الذي لديه في هذا البيت ممَّا يُمكن أنْ يَخافَ عليه من السرقة؟ التلفاز، الذي لا يُشَغِّلْه كثيراً؟ إنَّه أضحى قديماً حقَّاً. الأرائك أو الثلَّاجة؟ إنَّها ثقيلة الوزن، ويصعب نقلها إلى خارج البيت على لصٍّ عاديٍّ اكتشف بالمصادفة أنّ الباب ليس مُحكَمَ الإغلاق. الكُتُب؟ ومتى كان اللُّصوص يقرؤون فلسفةً وأدباً؟ ..

مع هذا، يُفكِّر فارس، فهنالك دائماً المفاجآت السَّيِّئة المُمكنة بالنِّسبة إلى مَنْ يترك باب بيته غير مُغلَق، ففي حَيِّ لوصْيانْ (حيّ المحيط) هذا، كما في أحياء أُخرى بالرِّبَاط ومُدُن غيرها، تبدأ أحياناً، في ساعات الليل التي يتكاثف فيها الظَّلام وتشتدُّ حُلْكَتُهُ، أنشطةُ "شَعْب الليل"، في بعض الأزقَّة الضيِّقة والزَّوايا ... مِن المنتمين إلى هذا "الشَّعْب"، قد تجد أصحاب "القَرْقُوبي"، أي الذين يتناولون أقراصاً مهلوسة مَهُولة المفعول، فيَحدُث أن تدخل مجموعة منهم مع أخرى في معارك دامية أحياناً، كما تجد لصوصاً، وإذا عَلِم الواحد منهم، بطريقةٍ مَّا، أنّ ثمَّة بيتاً قريباً سينفتحُ بابُه أمامَه بمجرَّد دفعة كتف، وصاحبُه لمْ يَعُدْ إليه بعد، فالاحتمال الأكبر هو أن يتوجَّه إليه ويقتحمه، عَلَّه يعثرُ فيه على نقود أو متاع خفيف الوزن غالي الثَّمن ...

والتفتَ فارس يميناً، وهو قُبَالَة الباب، إلى حيثُ مبانٍ تمتدُّ على مُنبسطٍ من الأرض فسيحٍ، شاسع، خلفها صفوف من المباني الأخرى التي ستستمرُّ منحدرةً نحو سور طويل جدّاً ذي بَوَّابات مُقَوَّسة، يخرج

المرء من الواحدة منها إلى طريق عريضة، بعدها منحدرٌ يُوصِل إلى حوافّ جُروف مُشرفة على المحيط الأطلسيِّ ... استنشقَ فارس بعمق الهواء القادم من جهة المحيط، ممَّا خَلْف العمارات والبيوت والصُّخُور ... نعم، المفاجآت السَّيِّئة ليستْ مُسْتحيلة، يُفَكِّرُ فارس ... كأنْ تعود ليلاً وتفتحَ الباب الذي لمْ تكن قد أحكمتَ إغلاقه، فتجد قِطّاً ميِّتاً قد ألقى به أحدهم قُرب سريركَ، أوْ تجد مجنوناً أو شخصاً ممتلئَ البطن والمُخِّ بالكحول الخالص مستلقياً على ذلك السَّرير ... لكنْ، ستأتي زهور ومعها المِفْتاح ... وبِحركة لا إراديَّة، رفع فارس يده إلى جيب جاكتته العلوي، الواقع لِصْقَ القَلب، فَلَامَسَ بأطراف أصابعه الورقة المَطْوِيَّة على أربع. الاستدعاء!

ببطء يتمشَّى على الرَّصيف الفاصل بين باب مَسكَنه والطَّريق. بِخُطىً قصيرة وئيدة. "كأنَّكَ كهل، يا فارس. انْقُص من التدخين وممَّا يليه"، هذا ما تقوله أُخته تاجة، عادةً، حين تراه يتمشَّى مُتعَباً ... وفارس يشعرُ، فعلاً، أنَّه مُتعَبٌ بعض الشَّيء، ولكنْ، بسبب سَكْرَة البارحة فحسب. يقول في نفسه: أنا لم أتجاوز الثَّلاثين كثيراً ... وإذن فإنَّ تاجة تبالغ، أمْ تُراها تُريدني أن أكون مثل زوجها ناصر، صاحب شركة الملابس، الذي لا يشرب إلَّا الماء، وأجملُ الموسيقى عنده رنين النُّقُود؟

فارس يزور بيت أُسرته مرَّة كلّ أسبوعَيْن تقريباً، ويَحدُث، نادراً، أن يقضي الليل في غرفة الطَّابق الأوَّل التي ما تزال تُنسَب إليه، فأُمُّهُ وتاجة تُسَمِّيانها "غرفة فارس". وبيت الأسرة هذا، بقيتْ تُقيمُ به أُمُّهُ، كلثوم، وتاجة وزوجُها ناصر، فالوالد، الهاشمي، الذي كان

تاجراً متوسِّط الحال له محلٌّ لبيع الثياب، قد تُوفيِّ قبل نحو عشرين شهراً، وأخو فارس الأصغر، محمَّد، هو الآن في فرنسا، حيث يُكمِل دراساته العليا في الاقتصاد، وهو يأتي لزيارة العائلة في الصَّيف. تَاجَة تصغُرُ فارس بنحو ثلاث سنوات، ومع ذلك، تَحْدِبُ عليه كأمٍّ رؤوم. "هاتِ كفَّكَ. تَرَى كم هي حمراء! إنَّها الكبِد، مُضَعْضَعَة ..."، تقول وقد أمسكتْ يده وتفرَّستْ في كفِّه. إنّهَا تتكلَّم جادَّة. لكنْ، يَحدُث أنْ تُغَيِّرَ نَبْرَتَها، فتبدو أكثرَ مَرَحاً، وتقول: "أمَا مَللتَ بعدُ الخَنْدَرِيْس؟"، فيُقهقه فارس إذ يسمع كلمة "الخَنْدَرِيْس"... يتعلَّق الأمر بمزحة طبعاً، يُفَكِّر فارس، فأُختي تاجة، وهي تُدَرِّسُ العربيَّة في ثانويَّة عبد الكريم الخطَّابي، غيرَ بعيدٍ عن بيتنا العائليِّ، الذي يقع بحيِّ يعقوب المنصور بالرِّبَاط، تُحبُّ الشِّعْر العربي والأساليب الجزلة والكلمات النادرة إنْ بدتْ لها جميلة. أمَّا أنا، فكنتُ قد درستُ الفلسفة في كلِّيَّة الآداب بالرِّبَاط، بالموازاة مع دراستي في المدرسة الإداريَّة، رغم حيازتي بكالوريا علوم رياضية ... وبعد أن تخرَّجتُ في المدرسة الإداريَّة، أصبحتُ موظَّفاً في وزارة الثقافة! "أَمَا مَلَلْتَ بَعدُ الخَنْدَرِيْس؟". معنى الخَنْدَرِيْس، المقصود فيما بيننا، هو، طبعاً، الخَمرة! وتاجة تستعمل هذه الكلمة، لأنّهَا تراثيَّة، وتُعجبها.

يَمضي فارس على الرَّصيف، ليقطعَ الطَّريق نحو مقهى في الجهة المقابلة. يسمع أزيزاً قريباً من وجهه، فيُغمض عينَه اليُسْرى بشكلٍ تِلْقَائيٍّ، ويُشيحُ بوجهه يميناً في حركة سريعة. مع ذلك، فالنَّحْلة التي كانتْ قد انبثقتْ من مكان مجهول وتوجَّهتْ نحو عينه اليسرى في طيرانها غير المُتبصِّر، ارتطمتْ بأرنبة أنفه، فداختْ وبَدا أنَّها ستَهوي

إلى الأرض بمفعول الصَّدمة، لكنَّها بَذلتْ جهداً وتماسكتْ وقامت بِدورات في الهواء، نازلةً إلى أسفل ودائخة، ثمَّ تحاملتْ على نفسِها، واستجمعت قواها، وعادت إلى طيرانها. حكَّ فارس أرنبة أنفه بِظُفْرِ إبهام يُسراه، وسُرَّ لكون تلك النَّحلة استعادتْ كامل لياقتها، ولم تقضِ نحبها.

يرفع رأسَه إلى أعلى، فيرى غيمة صغيرة، ليست بالبعيدة جِدَّاً، حوافُّها تتدرَّج من الرَّماديِّ إلى الأخضر الفاتح فالأصفر. يقول فارس في نفسه: إنَّه لصباح شاعريٌّ مُضيء. وها حوافُّ الغيمة تلك تكتسي شكلَ شَعْر امرأة، ناعم وملوَّن وحسن التَّصفيف وطويل. بل إنَّ الغيمة الصَّغيرة نفسَها أصبحتْ وجهاً أنثوياً صبيحاً. يبتسم فارس لهذا الوجه. ويتراءى له أنَّ الوجه ابتسم له بدوره. يتوقَّف ويتملَّاه. يبدو له جذَّاباً، بل وأليفاً. كأنَّه لا يراه للمرَّة الأولى. عينان واسعتان وشفتان ممتلئتان في حدود، مُفترَّتان قليلاً، كأنَّما لِتقولا لفارس: أنا وديعة خُفافْ! ثمَّ تنقسم الغيمة الصَّغيرة أجزاء، يُحَرِّكها البرد، ويُفَرِّقها. ويتساءل فارس: كيف يَحدُث أني أرى وجه وديعة بوضوح في هذا الصَّباح بالضَّبط؟ وسرعان ما يتوصَّل إلى جواب عن تساؤله: فذكرياته عن سَنَةِ البكالوريا، وعن وديعة بشكل خاصٍّ، كانت فيما قبل تطفو على سطح ذاكرته، لكنْ، في أوقاتٍ متباعدة، وإن تكنْ ذكرى وديعة مُستودَعَة بشكل راسخ في أعماق نفسه، لكنَّ حديثَ عزيز بوسبعين، قبل أيَّام، عن كونه يكتب قصَّة طويلة ذات طابع أوتوبيوغرافي، يستحضرُ فيها أيَّام الدِّراسة الثَّانويَّة، ووجوهاً لأصدقاء وزملاء، من بينهم فارس نفسُه ووديعة خُفافْ وآخرون (مع تغيير أسمائهم في النَّصِّ)، قد

يَكون، ولا شكَّ، هو الذي أجَّجَ ذكرياتٍ من تِلك الأيَّام، قابعةٍ في أَعماق ذاكرة فارس، فتبدَّى له وجه وديعة، باسماً واضحَ القَسَمَات في هذا الصَّباح.

دُخول وديعة لحياة فارس يعود إلى سَنَةِ البكالوريا، التي قضاها بثانويَّة (ط) بمدينة خريبگة، بعد أن نقله أبوه إليها من ثانويَّةٍ بحيٍّ يعقوب المنصور بالرِّبَاط، بسبب علمه بأنَّ فارساً شارك، في يونيو 1973، في مظاهرة كان قد قام بها طَلَبَةٌ وتلاميذ يساريُّون في شارع بحيٍّ يعقوب المنصور، وفرَّقها البوليس بالقوَّة، واعتُقِل العديد من المشاركين فيها (نادلٌ كان يتابع المظاهرة من فوق تلَّة يوجد بها المقهى الذي يشتغل به، أخبر والد فارس الذي كان من معارفه بما رأت عيناه، فآثر الوالد أن ينقل ابنه إلى خريبگة، لِيُبعده عن أجواء المظاهرات وعن الرِّفاق اليساريِّيْن).

أمَّا عزيز بوسبعين - الذي يكتب نصَّه الأوتوبيوغرافي المذكور - فكان يَدرس في ثانويَّة بحيِّ الأقواس بالرِّبَاط، لكنَّ أباه، الذي كان سائق سيَّارة إسعاف في مستشفى كبير بالرِّبَاط، تمَّ نقله ليقوم بالعمل نفسه بخريبگة وقتها، وهكذا وجد عزيز نفسه مع فارس في قِسْم البكالوريا لسنة 1973. 1974 نفسه، بثانويَّة (ط) بخريبگة.

كانت وديعة خُفافْ وقتئذ في قِسْم البكالوريا أيضاً في الثَّانويَّة نفسها، بشعبة العلوم التَّجريبية، وكان والدها مهندس إلكترونيات، يشتغل بعقدة مع شركة الفوسفاط. أمَّا فارس وعزيز بوسبعين، فكانا ينتميان إلى شعبة "علوم رياضية". عزيز هو الآن أستاذ رياضيات

بثانويَّة بكازابلانكا، لكنَّ الرِّياضيات لا تُبعِده عن ميوله الأدبيَّة، أمَّا فارس، فكان قد انزاح عن التَّوجُّه العِلمي بعد حصوله على البكالوريا، فتابع دراسته، بالتَّوازي، في كُلٍّ من شعبة الفلسفة ومدرسة الإدارة العمومية.

إنَّ وجه وديعة يغيب لأمد عن ذاكرة فارس، ثمَّ يعود، على غير انتظار، وبشكل مفاجِئ في الغالب، مُسَبِّباً له خَدَراً غريباً في الرأس، وارتعاشات داخليَّة تستمرُّ لِلَحظات عجيبة، فكأنه تحت تأثير عقار مُخَدِّر يُسَبِّب له أحلام يقظة. في تلك الحالات، يتبدَّى في ذاكرته وجه شابَّة جميلة التقاسيم، واسعة العينَيْن، في نظرتها عمق وحنان. إنَّها وديعة خُفاف، الطويلة القامة، الرهيفة القوام، ذات الابتسامة التي كانت تُنبت لروحه جناحَيْن، وتجعله يحلِّق في عوالم مُشِعَّة. كانت ذاكرته تَعرِض له لقطاتٍ من تلك الأيَّام الماضية التي عاشاها معاً، مُستعيدة مشية وديعة الواثقة وحركاتها، بل ومستعيدة وديعة بأكملها، بجسمها الرِّياضيِّ، بنهدَيْها اللدنَيْن البَضَّيْن المُستكينَيْن، الصَّامتَيْن تحت لباسها، واللذَيْن كانا، مع ذلك، يُرسِلان إليه إشارات خَفِيَّة وحميمة.

ما حدث إذن ذات يوم من أكتوبر 1973، في ساحة ثانويَّة (ط)، هو أنَّ تلميذاً يُدْعَى فارس نمير انبهر بتلميذة، إذ رآها للمرَّة الأولى وهي قادمةٌ من جهة مكاتب الإداريِّيْن نحو الساحة التي انتشر في جنباتها تلاميذ كثيرون، فلاحظ، إذ اقتربتْ منه، أنَّ عينَيْها الواسعَتَيْن السَّوداوَيْن زاغتا نحوه، وتركَّزتا عليه لِلَحظة طويلة بعض الشَّيء، وأنَّها بدورها انشدهتْ إذ رأتْهُ، وأنَّها لمْ تُشِحْ عنه بنظرتها بشكل فوريٍّ،

وباستدارة سريعة، بل إنها بدأتْ بِخَفْض بَصرها في أناة، بين المتأمِّلة والحالمة. وقد كانتْ، وهي تَخفِض بصرها، كأنَّما تشحن نفسها بشعور جديد عليها، وتُوَطِّن نفسها على أنَّ لحظةً فارقةً في حياتها قد حلَّتْ. ثمَّ أدارتْ وجهها ومضتْ في سبيلها وقد تألَّقتْ شفتاها الحِسِّيَّتان بطيف ابتسامة، فرضتْ عليها نفسَها، ولم تُحاوِلْ هي أن تُخفيَها، وفيما بعد ستقول لفارس إنَّها في تلك اللحظة حسبتْ نفسها نائمة وفي حُلْم، والغريب أنَّ الشَّيء نفسَه كان قد وقع أيضاً لفارس.

لقد ضاعتْ منه وديعة خُفاف الآن. وها هو، مرَّة أخرى، وبعد مرور نحو اثنَي عشر عاماً على فَقده إيَّاها، يتساءل: تُرى أين هي؟ ما الذي تفعله؟ كيف تعيش ...؟ لاإراديَّاً، يتباعد إصبعا فارس اللتان كانت سيجارته بينهما، فيسقط ما تبقَّى منها أرضاً، فيما الإصبعان تتقلَّصان، ثمَّ يُجهِز فارس على السيجارة السَّاقطة بدعسات من فردة حذائه.

أمَّا واقعي أنا في هذه اللحظة، فإليكم بعض عناصره: هذا الباب الذي كنتُ أتصنَّع إغلاقه قبل لحظات، ومِفْتاحه الحقيقي عند زهور، ورغم أنفي، سأتركه من دون إغلاق. وزهور هي الحبيبة الحاليَّة. لقد كانت متزوِّجة بموظَّف بالسِّكك الحديديَّة، وتُوفيِّ. لديَّ الآن وظيفة، ويُمكن أن أُطْرَد منها في هذا اليوم نفسه (فالاستدعاء في جيبي). وهذا المساء، ستجمعني جلسة مع خليل بوهدّي وعزيز بوسبعين في حانة مارينيان.

ينزل فارس من الرَّصيف، ويقطع عرْضَ الشَّارع، متَّجهاً نحو مقهى غرناطة. هنالك شخص يدفع عربة يد ويمشي أمامه. وتحت غَيمات

متناثرات تسير في هدوء سيَّارات معدودات، أغلبها يَقصِد شارع المغرب الكبير. تيراس المقهى خالٍ من الزَّبائن، وإذْ يقتربُ فارس من بابها الزُّجاجي العريض، يتناهى إلى أُذُنَيْه مَطلع أُغنيَّة جميلة وعذبة، لأسمهان: "يا حبيبي تعال الحقني ...".

لا شكَّ أنَّ الذي شغَّل هذه الأُغنيَّة هو عبدو، فهو يُحبُّ أغاني أسمهان. كما أنَّهُ النَّادل الذي أصبح صديقي، وهو ذو ثقافة وَمُسَجَّل في كلِّيَّة الآداب، وسيجتاز في نهاية هذا العام امتحانات الإجازة في الأدب الفرنسي. إنه يشتغل في المقهى، نصف نهار في كلِّ يوم، صباحاً مرَّة ومساءً في المرَّة الموالية، ليُؤمِّن دَخْلاً مادَّيَّاً، حتَّى لو كان زهيداً.

اتَّخذ فارس لنفسه مكاناً مُقابلاً للباب، قريباً منه، فرئتاه في حاجة إلى هواءٍ بارد. عبْر الباب وزجاج الواجهة، يستطيع أن يرى العابرين القلائل أمامه على رصيفَي شارع بروكسيل، كما كان يُنعِم النظر في طيور مُحلِّقة، تنيخ على أسطح عدد من المباني، وكانت غيوم بيضاء ورماديَّة تتحرَّك بإيقاع بطيء، وتَفْقِد من كثافتها شيئاً فشيئاً، وبعضُها يبدأ في التَّبدُّد، فيما الشَّمس تبعثُ نحو السُّطُوح ونحو الأرض أشعَّتها التي تتقوَّى.

يعرف فارس هذا المقهى منذ أن فُتِح في وجه الزَّبائن، قبل أكثر من سنَتَيْن، وقد كان يَقطُن وقتها ببيتٍ آخر، في حيِّ المحيط أيضاً، وبذلك البيت سكن معه عليّ بوهدّي، أخو خليل، لشهور عِدَّة. في ذلك المَسكَن، الذي اعتاد فارس وأصدقاؤه أن يُسَمّوه "الدَّار

الخضراء" - لأن جدرانه ونوافذه مصبوغة بالأخضر الفاتح - كان يَحدُثُ أن يستقبل أصدقاء قُدامى وجُدداً، وفيه أيضاً بدأت تزوره زهور. وقد غادره بعد أن طلب منه صاحبه ذلك، فقد كان على علاقة طيِّبة بفارس، وأخبره أنَّ ابنه تزوَّج، وهو يريد أن يُسلِّم البيت المذكور لذلك الابن، "أمَّا أنتَ، يا فارس، فلن يتعذَّر عليكَ العثور على مَسكَن آخر ..."

يجيئه عبدو بقهوة بالحليب. يترشَّف منها فارس حتَّى يستهلكَ نِصفها. ويُخرِج علبة سجائره من جيب جاكتته العلويِّ، فيخشخش، في خفوت، الاستدعاءُ القابع هناك! "لا أبالي بما سيَحدُث. ولو طردوني، فلن أتأسَّف على الوظيفة". ثمَّ يُسَرِّح الطَّرْف في الجانب الأيسر، وراء زجاج واجهة المقهى، حيثُ كانتْ أزهار شجرة الجَكَرنْدة القابعة في اطمئنان جنب باب المقهى، تتحرَّك قليلاً بين لحظة وأخرى، مزدهيةً بِلُوَيناتها المتراوحة بين البنفسجيِّ الفاتح والبنفسجي المزرورق والورديّ الفاتح ...

فارس لا يبالي بما ستُسْفِرُ عنه مقابلته لرئيس قِسم المُوَظَّفين التي ستتمُّ بعد ساعات، والتي يُمكن أن يُسَلِّمُهُ خلالها - فيما يعتقد - قرار طَرْده. فمن الواضِح أنَّ الاستدعاء الذي يقبع في جيبه الآن، والذي توصَّل به مُوَقَّعاً من طرف حمُّودة حسبي - رئيس مصلحة الموظَّفين - جاء على إثر التَّقارير التي كان يرفعها به مهدي العَسْلي، رئيسه في الوزارة، بصدد تغيُّباته غير المُبرَّرة، وتأخُّره "المُتكرِّر"، خاصَّةً في الأصباح، واستِحصال رُخص من خلال شهادات طبِّيَّة ليستْ دوماً بالمُقْنعة ...

أنا كنتُ أُفاجِئ مهدي العسلي بشهادات طبِّيَّة، لأنِّي لا أقوم بشيء مُهمٍّ في المكتب حيثُ أشتغل. روتين وفراغ. ومهدي العسلي فاجأني بأن جعلني أتوصَّل بهذا الاستدعاء الموقَّع من طرف حمُّودة حسبي. يجب أن أتقبَّل الأمر بروح رياضية.

فارس لا يبالي الآن حتَّى بأنْ يُطرَد! وسِرُّ لا مبالاته هاته هو أنَّهُ قد ورث مالاً وأرضاً من أبيه المتُوَفىَّ، فأصبح بإمكانه أن يعيش بدون عمل لثلاث سنوات أو حتَّى أربع. لكنَّ ما يحزُّ في نفسه هو أنَّ أباه، الهاشمي، لم يكنْ خلال حياته ميسور الحال حقَّاً، وقبل وفاته بنحو ستَّة أشهر فحسب، ورث عن أبيه المختار أراضيَ ومالاً وفيراً. لم يكن فارس يجد في وظيفته ما يُحَفِّزه ويَجعله راغباً حقَّاً فيها، بل أصبح يُفَكِّر، بعد وفاة والده، بأن يُنشِئ مكتبة جيِّدة لبيع الكُتُب، وحده أو بالاشتراك مع أُخته تاجة، إن رَغِبَت في ذلك. كان فارس مُهَمَّشاً في عمله نوعاً مَّا، وكان يعيشُ في مكتبه فراغاً حقيقيَّاً يملؤه بقراءة الرِّوايات البوليسيَّة خاصَّةً. وحين يملُّ الفراغ الطويل والرِّوايات البوليسيَّة، فهو يحاربُ مَلَلَهُ الشَّديد بالرُّخَص المرضيَّة، وأحياناً بتغيُّبات غير مُبَرَّرة.

مرَّ عبدو مُجَدَّداً قُرب فارس، وهو يُحَرِّك شحمة أُذُنه اليسرى بنقرات من سبَّابة يُسْراه، وهذه عادةٌ لديه تُضحِك فارساً. ناداه هذا الأخير، وأخرج من جيب جاكتته رواية تشستر هايمز، وسلَّمها له، وقال: "كنتُ سأنساها في جيبي ... لكنْ، قُلْ لي: أَلَا تريح أُذُنكَ من النَّقْر، يا عبدو؟" وضحك عبدو: "هيهي هيهي!". ضحكة لا تتغيَّر، يضحك منها فارس بدوره. أخذ عبدو الكتاب وقال: "أشكركَ، فارس. ها أنا سأعود". وبعد لحظات جاء وجلس قُبَالَة فارس. أخبره هذا الأخير،

ضاحكاً، أنه قد يُطرَد من وظيفته أو يُنقَل إلى بلدة نائية. وقال له عبدو: "لا تتشاءم كثيراً، يا رجل!". قال فارس: "فليَحدُثْ ما يَحدُث". وتحدَّث عبدو عن متاعب أبيه الصحِّية، وعن إضراب مُزْمَع بالكلِّيَّة، وعن مشروع ذهابه للدِّراسة في فرنسا بعد الإجازة ... ثمَّ ناداه أحد الزبائن، فنهض وتوجَّه صوبه.

يرفع فارس رأسه ويلتفت قليلاً إلى اليسار. عَبْر الباب، يرى عصافير تُحَلِّقُ في تُؤدة، لعوبةً، مرحة. أحدهم، قُرب فارس، يُدير ملعقة في كأسه بسرعة مُفرِطة، فيقلب الكأس وتندلق القهوة على سترته، وينهض بقفزة مُضحِكة. لقد أوشك على الارتطام بالجالسِين خلفه. الجكرندة هادئة جنب مدخل المقهى. تُرى أهي نائمة؟ يتساءل فارس. ينهض رجل وامرأة من زاوية المقهى اليُمنى الأمامية ويتوجَّهان نحو الباب. الرَّجُل يسحب خلفه حقيبة ذات عجلات، والمرأة تحمل حقيبة يد. ربَّما سيسافران وربَّما عادا من سَفرة. ينتر فارس من سيجارته نترةً، نترتَيْن، وتُخشخِش ورقة الاستدعاء. في سِرِّه يقول، دونما تفكير: "خَشْخِشِي ما شئتِ أن تُخَشْخِشِي". يعود عبدو ويُحدِّثه فارس عن مشروعه المُؤَجَّل: إنشاء مكتبة جيِّدة. يُشَجِّعه عبدو على ذلك، ثمَّ يتكلَّم عن فيلم "السَّقَّا مات": "الفيلم ظهر قبل أكثر من خمس عشرة سنة، لكنِّي لم أره إلَّا مُؤخَّراً. رائع. مُخرجه هو صلاح أبو سيف ..."

أمَّا فارس، فما زال لم يشاهد ذلك الفيلم بعد، رغم أنَّه يُحبُّ الأفلام الجميلة. زهور لها أيضاً دراية ممتازة بالأدب كما بالسِّينما. حدث مرَّةً أنْ شاهدَا فيلماً معاً. وقتها، كانا على وشك أن يُصبحا

حبيبَيْن فِعليَّيْن. وبالحَريِّ، فقد كانا يقومان بالخطوات النِّهائيَّة التي ستُؤدِّي بهما إلى ارتباطٍ عِشقيٍّ جميل ووثيق.

ففيما بعد ظهيرة أحد أيَّام فبراير 1985، حسبما يذكر فارس، التقيا أمام سينما الرّينسانس، التي كانت تَعرِضُ فيلماً فرنسيَّاً بعنوان: "بنَفَسٍ منقطع"، من إخراج جان لوك غودار. وباعتبار المقدِّمات السابقة في سيرورة العلاقة بينهما، فإنَّ فارساً لم يَجد حَرَجاً في أنْ يُؤدِّي ثمن تذكَرَتَيَ الدُّخُول، وحين أرادتْ زهور أن تتقدَّم إلى الشُّبَّاك لاستخلاص تذكرتها - وكان هو قد سبقها إليه - ربَّتَ على كتفها بيُسْراه، بكلِّ تِلْقَائِيَّة، ورفع يمْناه المُمسِكَة بالتّذكرتَيْن إلى أعلى، حتَّى تراهما. شكرتْهُ بابتسامة، وغمغمت كلمةً مَّا، وبدا أنها ارتاحتْ لِمَا قام به.

أمَّا المقدِّمات التي خوَّلتْ لفارس أن يتعامل مع زهور دونما كُلفة، وأتاحتْ لها هي أنْ تُبْدي سرورها بالتَّداني الذي كان واضحاً فيما بينهما بباحة السِّينما، فكانت قد بدأت منذ عهد قريب. فزهور تشتغل في مكتب مخصَّص للمحاسبة والتخطيط، في الوزارة نفسها مع فارس. وقد التحقتْ بعملها هذا منذ وقت قريب نسبيَّاً، إذ إنَّها، اشتغلتْ قبل ذلك لفترة بملحقة وزارة الثقافة بأكدال. يتذكَّر فارس أنَّه رآها للمرَّة الأولى من الخلف. كانت تصعد دَرَجَاً أمامه، وكان ردفاها اللدنان المتكوِّران بشكل جميل - لا إفراط ولا تفريط - تحت بنطالها البِيج، يتهزهزان قليلاً، وكامل قامتها الطَّويلة تتمايس، حتَّى لتبدو كمراهقة محتدمة الأنوثة في حركاتها. في تلك المرَّة، أثارت انتباهه فحسب. وفي مرَّة ثانية، كانت تدخل إلى الوزارة، والتفتتْ

فالتقت عينا فارس بعينَيْها السوداوَيْن المُظلَّلَتَيْن بحاجبَيْن احتفظت لهما بكثافتهما. وقد قرأ في نظرتها بعضَ الحزن الغامض. ووجَّه إليها ابتسامة ودٍّ، فبدا له أنَّ شفتَيْها تَمَلْمَلَتَا، لكنَّ حركة شفتَيْها كانت طفيفة، فكأنها ناجمة عن رغبة في المجاملة. ثمَّ بدآ يتبادلان التَّحيَّة كلَّما التقيا. وأصبحت زهور تبدو لفارس أليفةً لنفسه، بقَسَمَاتها المعبِّرة عن ثقة في النَّفْس وصِدْقٍ مع الذَّات. وفكَّر بأن هذه المرأة لا شكَّ ستدخل حياته، وأنَّها، إن دخلتْ، فسوف تبقى.

ثمَّ حدث أن التقاها في مكتبة بشارع محمَّد الخامس، تُباع فيها كُتُب عربيَّة وفرنسيَّة. وقد بادر إلى تحيَّتها بحرارة، يعني أنه بقي ضامَّاً راحة يدها على كفِّها وقتاً أَطْول ممَّا يستلزمه الودُّ العاديُّ. وبلا مقدِّمات، أَمْسك بزاوية من الكتاب الذي كانتْ قد اختارتْه، وأداره قليلاً بحيثُ يرى عنوانه. كان العنوان هو "دييغو وفْريدا". وقال لها فارس إنَّه سيأخذ لنفسه أيضاً نسخةً منه، لأنَّه عن فنَّانَيْن كبيرَيْن.

وحين خرجا قالت زهور، بعد قليل من التَّردُّد، إنَّها تُحِبُّ أن تقرأ عن أهل الفنِّ. ثمَّ أطالا الحديث، فقالت زهور إنَّها تعرف عن فريدا كاهلو ودييغو ريڤيرا أنَّهما كانا صديقَيْن لتروتسكي، واستقبلاه في المكسيك، وصمتتْ قليلاً، وأضافتْ: "كما تعلم بالتَّأكيد ...". شعر فارس بأنَّه يبتسم، لكنْ، في سرِّه فحسب. فقد أدرك أنَّها نطقتْ بهذه العبارة الأخيرة مِن باب اللياقة لا أكثر.

يبتسم فارس في سِرِّه ويتساءل: تُرى ماذا ستقول لو أفضى إليها بما يدور الآن في سريرته؟ لو قال لها إنَّه قرأ لتروتسكي وهو تلميذ في

الثَّانوي، بل وكان متعاطفاً مع تَنظيم يساري منذ بدايات مراهقته؟ طبعاً، لم يقل فارس شيئاً من ذلك لزهور في تلك اللحظة. وقالت هي: "أنا أسكن بحيِّ العكَّاري، وأنتَ؟". "أنا؟ أنا أسكن قُرب الكنيسة، بحيِّ المحيط"، قال فارس. ثمَّ وَدَّعَتْه.

يتذكَّر فارس أنَّه، في أيَّام الدِّراسة بالمدرسة الإدارية وبشعبة الفلسفة في كلِّيَّة الآداب، بقي مجرَّد متعاطف مع التَّنظيم اليساري الذي انتمى إليه صديقه عزيز بوسبعين. فهذا الأخير كان قد أصبح، وهو طالب، عضواً في خليَّة للتنظيم المذكور كان يُشرف عليها خليل بوهدّي. هذا الأخير كان وقتها أستاذاً للفرنسيَّة بإحدى الثَّانويَّات، ومِن مُسَيِّري نادٍ سينمائيٍّ بحيِّ الأقواس، وعزيز كان طالباً بكلِّيَّة العلوم، ومِن مرتادي ذلك النَّادي، مِثلِي ومثل عليّ بوهدّي حين كان طالباً بكلِّيَّة آداب الرِّبَاط. وخليل بوهدّي هو أيضاً أخو عليّ، الذي سكن معي في البيت نفسه قبل رحيله إلى مصر. وكنَّا قد بقينا، عليّ وأنا، يساريَّيْن مُستقلَّيْن. وحين اندلعت موجة اعتقالات في أواسط السَّبعينيَّات، فرَّ خليل إلى فرنسا، وأقام بها فترة طويلة، وتزوَّج هنالك بِماري- جان، قبل أن يمرَّ وقت ويعلم، بطريقةٍ مَّا، أنَّه ليس مبحوثاً عنه في المغرب، فيعود ويستقرّ مع زوجته بالرِّبَاط، حيثُ يمَلِكان الآن مطبعة.

بعد أن شاهد فارس وزهور فيلمَ جان لوك غودار، "بِنَفَسٍ منقطع"، دعاها إلى مجالسته في مقهى الرّينسانس. لم تُفاجِئه زهور باستجابتها السريعة. طلب بيرة واختارت هي عصير برتقال. قالتْ: "في هذا الفيلم، استغربتُ كثيراً كيف أنَّ البطل سارع إلى رَمْي الشرطيَّ

بالرَّصاص بصورة مجّانية ... ولكنَّه في النهاية سيتقبَّل العقاب، بل ويتمسَّك بأن يُقتَل بدوره ... أمَّا الشَّابَّة الأمريكية ...". قال فارس، وقد واتتْه الفرصة ليُبديَ معرفته بعالم السينما: "الشَّابَّة التي تقوم بدورها جِينْ سيبرغ؟ على أيِّ حال، فجين سيبرغ نفسها أنهتْ حياتها، في عالم الواقع، بالانتحار". قالت زهور: "حقَّاً، للحياة مراراتُها أحياناً ...". أتى فارس على قنِّيْنَة البيرة، وبدأ يعبث بها بيُمْناه. وقالت زهور: "لديَّ صديقة أستاذة أُرافقها أحياناً - وفي الغالب يكون معها خطيبها - إلى مطعم تنسيفت بأگدال. المطعم معروف وقريب من المدرسة المحمَّدية للمهندسين. سأكون معهما مساء الجُمُعة القادمة، ما بين السابعة والتاسعة ... إذا أردتَ أن تجيء ...". بُوغِتَ فارس بالدَّعْوة، وقال بحماس: "سيسرُّني ذلك. سألتحق بكم بالتَّأكيد"، ثمَّ، دونما تفكير، وَجَد نفسه يمرِّر راحته على ظاهر كفِّها، بأناة، ضاغطاً قليلاً، وتلاقت عيونهما، وابتسمت زهور ابتسامة عريضة.

في مساء الجُمُعة ذاك، وصل فارس إلى باب مطعم تنسيفت بأگدال في السابعة وعشر دقائق. إنَّه مطعم كبير وأنيق، ويُمكن أن تشرب فيه أيضاً بيرة ونبيذاً وما شابه. صَعِدَ فارس الأدراج القليلة بعد أن دخل، ووجد نفسه في باحة عريضة مُضاءة بمصابيح صغيرة مختلفة الألوان. وبعد بضع خُطىً، سمع صوت زهور يناديه. إنَّه صوتٌ مَرِح، فكَّر فارس. والتفت فبدتْ له باسمةً ملوِّحةً بِكفِّها، ومعها صديقتها وخطيب هذه الأخيرة. (فيما بعد، سيعلم أن زوج زهور، قبل وفاته، كان رابعَهم في مثل هذه الجلسات). وقدَّمتْه زهور لِنُورة وعبد الغفور. كانت نورة متوسطة الطول، نحيفة قليلاً، ميَّالة إلى الابتسام في أيِّ

مناسبة، وكان عبد الغفور، وهو موظَّف بإدارة السِّكَك الحديديَّة، لا يكفُّ عن حَكيْ النُّكَت إلَّا ليشكو من العناء الذي يُسبِّبه له عمله المرهق، أو ليُسهِب في الكلام عن انبهاره بمدينة ڤنيتسيا التي زارها منذ وقت قريب. إنه طويل وغامق السُّمْرَة كبعض محترفي كرة السَّلَّة الأمريكان. كان يضحك من الأعماق بعد أن يحكي نُكته. وأدلى فارس بدلوه في الحديث. وكذلك فعلت المرأتان. وتناولوا عشاءهم وشربوا كؤوس نبيذ أبيض. وجاءت لحظة مُغادرة المطعم، فألحَّتْ نورة على أن تُوصِل فارساً وزهوراً، بسيَّارتها، إلى حيثُ يريدان، قبل أن تعود رُفْقة عبد الغفور إلى مَسكَن هذا الأخير. جلس فارس وزهور في الخلف، متقاربَيْن جِدَّاً. كان فارس مُنتشياً، وقال في سِرِّه، مُمازِحاً نفسَه: "شيء من المراهقة يُفرح القلب". أمسك بيد زهور ووضعها على ركبته، ثمَّ لامس بظاهر كفِّه جانب عُنقها القريب منه. ولا شكَّ أنَّها قالتْ عبارة مشابهة في سِرِّها، فقد بدأت تُحرِّك يدها المبسوطة على ركبته، كأنّها تُدَلِّكها، ثمَّ تصعد بأصابعها إلى فخذه وتبدأ في مداعبته. كان فارس يُرشِد نورة إلى الطَّريق نَحْو "الدَّار الخضراء". ولمَّا توقَّفتْ سيَّارة نورة أمام باب العمارة التي يوجد بها مَسكَن فارس، نزل هذا الأخير ومعه زهور، وودَّعا رفيقتهما وصاحبها، وصَعِدَا الأدراج نحو الطابق الأوَّل من العمارة. وفي تلك الليلة، تفنَّنا في التَّعاشُق!

يَرنو فارس، من خلال باب المقهى، إلى كهل يدفع أمامه درَّاجة ناريَّة، أثبت فوقها لوحاً خشبيَّاً مستطيلاً، عليه صندوق طويل به سردين. الكهل يصيح: "ها السّرْديل، ها السّرديل". فارس يعرف الرَّجُل. لقد سبق أن اشترى منه سرديناً. والآن، ها هو يمرُّ ويختفي.

وها عبدو يجلب لفارس صحيفتَيْن، لكنَّ هذا الأخير لا يرغب في القراءة، لذا يضعهما جانباً. ويدخل إلى المقهى الشَّيخ اليونانيِّ، وهو معروف لدى أهل حيِّ المحيط (لوصْيانْ)، ويُسَمُّونه "لَگريگي" أو كوسْتاسْ. إنَّه في بدلته السَّوداء وقميصه الأبيض المعهودَيْن. يمشي الهُوَيْنَا، يداه مشبوكتان خلف ظَهْره الذي تحنَّى، وكتفاه قد مالتا إلى الأمام بوضوح، تحت الثِّقَل الباهظ لسنواته التي تُناهِز الثمانين، والتي قضى عدداً منها، فيما يبدو، في ضنك من العيش، ومع ذلك تركتْ له خطوطا من الشَّعْر الأسود وسط شَعْره الأبيض الأثيث الذي كان يُسَرِّحُه إلى الخلف بِعناية. الشَّيخ اليوناني يُحيِّي الوجوه المألوفة لديه بحركة من رأسه وطيفِ ابتسامة. يُحَيِّي فارساً أيضاً. لقد خاط له بنطلونات وسترة فيما مضى. يردُّ عليه فارس بهزَّة من رأسه وابتسامة عريضة، ويتساءل، حين انتهى إلى أُذُنَيْه شيءٌ من زحير كوستاسْ، لدى مروره بجانبه: تُرى ما الذي كان قد جاء به من بلده البعيد، قبل أكثر من ثلاثين سنة، ليفتتح دُكَّانَ خياطةٍ صغيراً ومُنزوياً في زنقة خلفيَّة بحيِّ لُوصْيانْ؟ وفكَّر: كم أنا فُضوليٌّ في هذا الصَّباح! ثمَّ عقَّب على فكرته: إنَّه لَفضول بريء. أقوم ببعض التحرِّي في الخيال فحسب ... لِمَ يكون هذا الشيخ اليوناني قد لجأ إلى هذا المكان البعيد جِدَّاً عن بلده الأصلي؟ والمرأة التي كانت معه خلال سنواته الأولى وماتت حسبما سمعتُ؟ لا شكَّ أنّ وراء الأمر قِصَّةً مثيرة ... أَلَا يكون، مثلاً، قد ارتكبَ سلسلة من الجرائم في بَلده، ثمَّ جاء ليعيش هنا مُتخفِّياً؟ (في هذه اللحظة، يلوم فارس نفسه على ما أبداه من سوء نِيَّة تجاه الشَّيخ اليونانيّ، ثمَّ يُبرِّر الأمر بإدمانه الرِّوايات البوليسيَّة في الشُّهُور الأخيرة)، أَيكون كوستاس مُعارِضاً فرَّ من نظام

ديكتاتوريٍّ متوحِّش، وطوَّحتْ به الظُّرُوف إلى حيِّ المحيط هذا؟ أَيكونُ هو هوميروس نفسه وقد تسلَّل من عالم الأموات إلى زماننا، واختار الإقامة هاهنا؟ أَلا يكون أحد أبطال الإلياذة ...؟

ينظر فارس إلى ساعة يده. إنها التَّاسعة وسبع دقائق. وإذْ يُدير رأسه يساراً، يبدو له شُحْرُور صغير نازلاً بوداعة، ليستقرَّ على أحد فروع الجكرندة المسترخية قُرب باب المقهى. في قرية أولاد الطَّالب، مسقط رأس أبي - يتذكَّر فارس - يُسَمُّون الشُّحْرُور باسمٍ جميل: الجَحمومية. ويقول في نفسه: "أولاد الطَّالب" هي أيضاً مَسقَط رأس والد خليل وعليّ بوهدّي. تمرُّ، في خياله، مشاهد عاشها معهما، أو وحده، في تلك القرية، التي كانت عائلته، مثل عائلتهما، تحلُّ بها لأيَّام خلال بعض الأصياف ... ثمَّ يتَّخذ قراراً: لن أذهب لمقابلة رئيس قِسم الموظَّفين إلَّا بعد نحو ساعتَيْن، فالأساسيُّ هو أن أكون في مكتبه قبل الثَّانية عشرة ... يُؤدِّي فارس ما عليه لعبدو، ويغادر المقهى.

أين سأمضي الآن؟ أين سأمضي ...؟

ولِمَ لا أهيم بلا هدف؟ يُجيبُ فارس نفسَه.

وها هو يُطلِق العِنان لقدمَيْه، ثمَّ يتوقَّف أمام دكَّان بائع خضر وفواكه. رجل شابَ شَعْر لحيته، تنحني طاقيته قليلاً على جبينه. يرى فارساً واقِفاً أمام باب دكَّانه، فيقول له: "تفضَّل. بودِّي لو أستفتح من عندكَ. الخضر جديدة، طازجة، وكذلك الفواكه ..." شَعر فارس أنَّه ورَّط نفسَه بوقفته تلك، وفكَّر أن يُحيِّي الرَّجُل ويستمرَّ في طريقه، لكنَّه

لم يشأ أن يَخذُلَهُ، ففرض على نفسِه أن يدخل إلى الدُّكَّان ويشتري مَوْزات.

يعود إلى المَشي على الرَّصيف، وهو يَقضِم من موزة. ويترك لقدمَيْه أن تمضيا به إلى حيث تختاران، فإذا بهما تُعيدانه صوب مَسكَنه. يتقبَّل الأمر، ويدخل بيته بأناة، لئلَّا يثير الانتباه إلى أنّ الباب كان مفتوحاً أصلاً. يجد المَسكَن كما تركه: لا، لم يدخل أحد في غيابه وما مِن قطٍّ، حيٍّ أو ميِّت، في انتظاره.

يَجلس على طرف من الأريكة. يُشعِل سيجارة. سرعان ما يَمعَسُها في المنفضة. ثمَّ يخطو خطوتَيْن ويقف لِلَحظات أمام المكتبة، فقد لمح زجاجة عِطر على أحد الرُّفُوف. إنّها لِزْهور. وهذان الرَّفَّان المتراكبان، بهما الكُتُب التي تركها عليّ بوهدّي حين مضى ليلتحق بوظيفته بقنصلية المغرب في الإسكندرية. خلال الفترة التي عاش فيها علي في "الدَّار الخضراء" رُفْقة فارس، صديق طفولته وصديق أخيه خليل، كان يشتغل موظَّفاً في وزارة الخارجية بالرِّبَاط. قبل ذلك كان أستاذ لغة إنجليزية في بلدة بعيدة: گلميم. كان عليّ يُعَلِّق، مازحاً، على قرار تعيينه في القنصلية المغربية بالإسكندريَّة، بأنه تمَّ لكون مسؤولي الوزارة أصبحوا يعتبرونه مثقَّفاً كبيراً، إثر حصوله على دكتوراه في الأدب الإنجليزي. لكنَّ الخبر الصاعق سيأتي من الإسكندرية بعد حلوله بها بنحو سبعة أشهر، فقد توفيِّ هو وحبيبته المصريَّة ميريام، التي التقاها هنالك وارتبط بها، وماتت معه في حادث بالسَّيَّارة التي كانت تسوقها هي نفسها.

كُتُب عليّ بوهدّي التي بقيت في هذه المكتبة، هي بالعربية

أو الفرنسية أو الإنجليزية. كُتُب في الأدب والفكر اليساريّ. كُتُب لِكيركغارد وكتاب عنه، كتاب يتضمَّن مقالات مختارة ظهرت في المجلَّة الفرنسية "اشتراكية أو بربريَّة"، دواوين لمحمَّد الماغوط وآنَّا أخماتوڤا وغيرهما، مسرحية لتوفيق الحكيم "يا طالع الشجرة"، "فنّ الهوى"، لأوڤيد ... على رفٍّ يعلو إحدى خانات الكُتُب التي تركها عليّ بوهدّي، صورة تجمع كلّاً من عليّ وأخيه خليل وفارس، إلى جانب البحر. (فارس، في الصورة، وسط الأَخوَيْن). قريباً من تلك الصورة، قواقع صغيرة جميلة جلبتْها زهور، وصورة لمحمَّد، الأخ الأصغر لفارس، وهو مستند إلى جدار قصير قرب جسر الفنون بباريس، ومن خلفه تتلامع مياه نهر السِّينْ. محمَّد أصغر من تاجة، وهو يُهيِّئ دكتوراه في الاقتصاد بفرنسا.

يتمدَّد فارس على السرير ويتساءل: تُرى ماذا سيكون مصير الوظيفة؟

ثمَّ، ها هو عزيز بوسبعين يطفو في ذاكرة فارس، تلميذاً مع بقيَّة تلاميذ الفصل في حجرة درس. المشهد يعود إلى ما قبل نحو ثلاث عشرة سنة، ويجري في إحدى قاعات ثانويَّة (ط) بخريبگة، في أثناء حِصَّة الفيزياء، خلال صباح أضحى الآن بعيداً ...

لقد وجدتُ نفسي في لحظةٍ مَّا، والأستاذ يشرح قانون أرخميدس ويُعلِّق عليه، أكاد أُقَهقه، والسَّبب هو ما كان يرويه بُوسَبْعِينْ. ولم أكن وحدي مَنْ أوشَك أن يسْتَغرِقَ في الضّحك في تلك اللحظة. ميمُّو أيضاً، الجالس أمامي، جنبَ بوسبعين، وكذلك سعيد الرّيس، الذي

كان يُقاسِمني الطّاولة. كنَّا ندرس الفيزياء وموادَّ أخرى بالفرنسيَّة، وقد عرَّج الأستاذ جاك سورو على حكاية أرخميدس الذي مَرَقَ من الحمَّام، إثر انبثاق قانون الطَّفو في ذهنه، وبدأ يجري أمام النَّاس عارياً. ضحك التَّلاميذ، ولكنْ، في خفوت ودون صخب، كأنَّما يُجاملون الأستاذ، إذ كنَّا جميعاً نعرف حكاية أرخميدس تلك من قبل. لكنْ، في تلك اللحظة، أمالَ بوسبعين رأسَه جانباً نحو ميمُّو، بحيثُ يَرى هذا الأخيرَ بطرف عينه دون أن يلتفت إليه بشكل صريح، وبدأ يتكلَّم بصوتٍ خافت، وقد كان لكلماتِه جَرْسٌ يجعلُها مسموعة بكلِّ تأكيد، لكنْ، في دائرة ضيِّقة جِدَّاً من حوله فحسب، وكانتْ تتوالى في أُذُنيَّ أنا نفسي، خفيفةً، ونوعاً ما رخيمةً، وبالتَّأكيد مُدْهِشةً ومُضْحِكةً. قال إنَّه ذهب، في مساء اليوم السَّالف، إلى بيتٍ لِبَناتٍ من بائعاتِ الحُبِّ، وفي اللحظة التي كان قد شرع خلالها في تبادُل المداعبات مع واحدة منهنَّ، في إحدى غُرَف البيت القديم الكثيرة، سمع باب البيت يُدفَع وينفتح، وامرأةً تقول بصوتٍ مسموع: "البوليس! البوليس يَدهمون بيوت البنات!"، فكاد أن يُغادر المكان في مثل عُرْيِ أرخميدس ... ثمَّ أضاف: "وفي الليل، حَلَمْتُ بأنَّني أمرُّ قُدَّام بابِ حمَّام للنِّساء، وكان ثمَّة ظلام، وأمام عَتَبَة باب الحمَّام وجدتُ شيئاً جِدّ عجيب ... خَمِّنْ ما هو، يا مِيمُّو؟!" لكنّ مِيمُّو لم يُرِدْ أنْ يلتفت ناحيةَ بوسبعين، بل سمَّر عينَيْه في اتِّجاه الأستاذ، الذي كان قد شرع في إلقاء نظراتٍ مرتابة نحونا. وحرَّك لحسن ميمُّو مَرْفِقَهُ لاكزاً الفراغ الذي يفصله عن بوسبعين مرّاتٍ مُتواليات، طالباً من هذا الأخير أن يَصمت، إلَّا أنّ بوسبعين لم يُعِرْ حركاتِ ميمُّو اهتماماً، واستمرَّ في حَكْيِ قِصَّته: "إنَّكَ لن تستطيع أن تُخَمِّنَ ماذا كان ذلك الشَّيء العجيب، يا صديقي ...

لقد كان ... ماذا كان؟ كان كُسَّاً ساخناً، يا هذا ... التقطتُهُ وأودعتُهُ جيبي، حيثُ بدأ يختلج ويهتزُّ كعندليب!". وضحكنا، رغماً عنَّا، ميمُّو والرَّيس وأنا. التفتَ الأستاذ جاك سورو ناحيتنا، بشكلٍ صريحٍ هذه المرَّة، ووجَّه إلينا نحن الأربعة نظراتٍ غاضبة، وقال، بصوت خفيض، مشحون بنقمة كظيمة: "الرّيس، ميمُّو، نمَير، بوسبعين، اخْرُجوا". ونمَير ليس إلَّا فارس نمير، أي أنا. غادرْنا الحجرة مطرودين، وفي دواخلنا قهقهات عريضة، لمْ نستطع أن نُطلِق لها العِنَان، ولم يُفلِح شعورنا ببعض الخِزي والخجل في إخمادها كلِّيَّةً ...

خرجنا، إذن. ثمَّ انحسرت موجة الضَّحك الدَّاخليِّ من صدورنا كلِّيَّةً. وبدأ الوجوم يغزو سَحْنَاتِنَا. فنزلنا الدَّرَج، إذ كانت القاعة في الطَّابق الأوَّل، وفي أثناء نزولنا تلاقينا مع المُعيد القصير الذي كان يصعد نحو قاعات الطابق الأوَّل والثاني حاملاً أوراق الغياب. حيَّانا سي عبد الإله بابتسامة عريضة مُؤازِرة، فقد خمَّن أنَّنا مَغضوبٌ علينا!

دلفنا إلى السَّاحة، وكان ما نتوجَّسُ منه هو أنْ يرانا النَّاظر، الذي كان في قِصَر سي عبد الإله، لكنه كان قميناً بأنْ يُنَغِّص علينا نهارنا، بتحقيق دقيق وبأسئلةٍ لا تنتهي وربَّما بعقابٍ مَّا، لكنَّنا أجلْنا أبصارنا في الساحة طولاً وعرضاً فلمْ نلمحه، وتنفَّس كلٌّ منَّا ملء رئَتَيْه في سِرِّه، رغم أنّ الحارس العامَّ، السَّيِّد عليّ السّيّال، بدا لنا مُتَّكئاً على الجدار الذي يقع خلفَهُ مكتبُه. كان مُولياً وجهه صوبنا، خافضاً بصرَه، وواضعاً ساقه اليمنى أمام اليُسرى التي حمَّلَها ثِقَل جسده. وعلى الفور أدركْنا أنَّه لن يدعوَنا حتَّى لِيستفسِرَنا بشكل صُوريٍّ ووجيز عمَّا جعلنا نُغادرُ القِسْم، ذلك ما استدللنا عليه من وقوفه مُحدِّقاً في

رقعة الأرض المتاخمة لقدمَيْه، ومن اندساسِهِ في برنس جعلَ قُبَّه على رأسِه، رغم أنَّ الطَّقس لم يكن بارداً في ذلك اليوم بشكل خاصٍّ. فكثيراً ما كان عليّ السّيّال ينسحب إلى أعماقه بشكل عجيب، فلا يهتمُّ بالأشياء الصَّغيرة مِن حوله، مثل طَرد تلميذٍ مَّا من طرف أستاذٍ، اللَّهمَّ إلَّا إذا كان ذلك الطَّرْد مصحوباً بشكاية صريحة من ذلك الأستاذ. وقد كنَّا نرى فيه فيلسوفاً بطريقةٍ مَّا، وحين نراه في مثل تلك الحال، نقول إنَّه سائح في عوالمه الخاصَّة ... كان السَّيِّد عليّ السّيّال ذا ثقافة واسعة، وكان شعبيَّ المزاج ... وكان أيضاً مُحِبَّاً للشَّرَاب. وقد كنَّا، نحن التلاميذ، نُقَدِّره ونُكنُّ له ودَّاً واحتراماً، وكان تقديرنا له يعود ولا شكَّ إلى سَعَة ثقافته، وسلوكه المتفهِّم إزاء التلاميذ، وكذلك إلى ميوله اليسارية، التي يُضْمِرها، فتظهر أحياناً بصورة غير مُتَوقَّعة. فقد حدث مرَّةً أن دَهَم ثانويَّتنا عددٌ كبير ممَّنْ يُنعتون بالمخازنيَّة، مُسلَّحين بهراواتهم، على إثر إضرابٍ للتلاميذ رُفِعتْ خلاله شعارات يساريَّة، وكُسِرَ خلاله زجاج بعض النوافذ (من طرف تلاميذ، ربَّما كانوا عملاء للسُّلطة أو مجرَّد متهوِّرين)، وقد طاردنا المداهمون وأشْبعُوا مَنْ لحقوا منَّا ضرباً، وقفز تلاميذ كثيرون من فوق الأسوار المحيطة بالثَّانويَّة وأطلقوا سيقانهم للرِّيح عبر شوارعِ المدينة وأزقَّتها، ومنهم مَنْ ركض لكيلومترات كما هو حال المهديّ واهْيَا، الذي سيصبح، فيما بعد، بطلاً في العَدْوِ الرِّيفيِّ ... المهمُّ أنَّه، في اليوم الموالي لانقضاض المهاجمين علينا، جاء باشا المدينة، وحوله رجال سلطة عديدون، وكان مدير الثَّانويَّة واقفاً خلف الباشا، وألقى هذا الأخير خُطبته عبر ميكروفون، مهدِّداً متوعِّداً، شاتماً منعدمي التربية وأبناء الشوارع الذين لا يريدون أن يدرسوا ولا يعرفون قيمة العِلم... وكان

النَّاظر، عبد الله الطّيبي، واقفاً أسفل المنصَّة، بحيثُ يراه الباشا ورجال السُّلطة، وكان يحرِّك رأسه من أعلى إلى أسفل، مِن حين لآخر، مُبدياً موافقته التَّامَّة على كلام الباشا ووعيده، دافِعُه إلى ذلك التَّملُّق وإظهار الولاء للسُّلطة. أمَّا عليّ السّيّال، فقد شاءت المُصادفة، حين كان باشا المدينة يخطب ويُزَمجر، أن ينبثق من مكانٍ مَّا ويتَّجه نحو النَّاظر، لِيَقف بِقُربه، واضعاً على عينَيْه نظَّارة شمسيَّة سوداء، ولم يكن ينظر إلى الباشا، فما إن رآه هذا الأخير على تلك الحال حتَّى توجَّه إليه صارخاً في وجهه: "أنتَ مَنْ تكون؟ اِخلعْ نظَّارتكَ"، فما كان من حارسنا العامِّ العتيد سوى أن انصاع للأمر، وكيف لا وقدْ يُلْقَى عليه القبض إنْ عاكس الباشا، بل وقد تُلَفَّق له تُهمةٌ مَّا فيدخل في مسلسل أهوال؟ لكنَّ السَّيِّد عليّاً السّيّال قد انصاع مُمتعِضاً، كما بدا لنا نحن لتلاميذ مِن تغيُّر لون سَحْنته ومن اختلاج عضلات وجهه. وقد كنَّا نتداول قصَّة مفادها أنّ عليّاً السّيّال سبق أن أُلقِيَ عليه القبض، لأنَّه سَاعَد طالبَيْن يساريَّيْن على التخفِّي، إذ آواهما في بيت أُمِّه الذي أضحى مهجوراً بعد وفاتها، فيما كانت الشرطة تبحث عنهما.

وقد كان عليّ السّيّال يتطوَّع، أحياناً، ليُلقي علينا درساً في حال تغيُّب أستاذٍ مَّا. وفي أحد الأيَّام، لم يحضر أستاذ العربية، فجاء عليّ السّيّال ودرَّسَنا قصيدة جميلة لأبي الشَّمَقْمَق، يصف فيها إدقاعه وعدم امتلاكه بيتاً سوى "فضاء الله"، ولا أزال أحفظ أبياتاً منها إلى الآن.

هنالك ذكرى خاصَّة تجعل فارساً يُكنُّ مزيداً من الودِّ لهذا الحارس العامِّ. فقد كان لديه شعور بأنَّ عليّاً السّيّال أُعجِب وقتها بالعلاقة

التي جمعت بينه وبين وديعة، والتي كانت قد أصبحت صريحة إلى حدٍّ بعيد. بل حدث في أحد المساءات، إذ كان فارس ووديعة يتمشَّيان تحت أشجار الكاليبتوس، قُبَالَةَ باب الثَّانويَّة، لكنْ، بعيداً عنها بما فيه الكفاية - وكان فارس يدَخِّن سيجارة - أنْ ظَهَرَ عليّ السّيّال قادماً من طريق جانبي، وما إن رأى فارساً حتَّى غيَّر اتِّجاهه إلى حيث يُوجَد فارس، وإذ أصبح قريباً منه ابتسم وقال له: "لسنا الآن في الثَّانويَّة، وهنا لستُ حارساً عامَّاً. أنا فحسب شخص عابر من هذا المكان، جاء يطلب ناراً ليُشعل سيجارته ... لقد ذهبتُ إلى دكَّان بائع التبغ لأشتري قدَّاحة، لكنَّ الدُّكَّان مغلق ... هاتِ قدَّاحتكَ، يا نمير!". بدأ فارس يُفتِّشُ في جيوبه وقد شَعر بقليل من الحَرَج كان كافياً لجعل أصابعه لا تشعر بوجود القدَّاحة في جيب بنطاله الأيمن، حيثُ كانت بالفِعْل، لكنَّ عليَّاً السّيّال أنقذ الموقف بأنْ مدَّ يده نحو سيجارة فارس، فناوله هذا الأخير إيَّاها، فأشعل من رأسها الملتهب سيجارته هو وسحب منها نَفَسَاً. وقبل أن يُتابع طريقه إلى الثَّانويَّة، توجَّه إلى فارس ووديعة قائلاً: "الصّداقة والعاطفة القويَّة من أجمل ما تمنحه لنا الحياة. تبدوان لي فَرِحَين معاً. لا شكَّ أنَّكما ستبقيان معاً طويلاً، طويلاً. أتمنَّى لكما كلَّ خير"، ثمَّ انصرف مبتسماً، وفوق رأسه كانت غيمة من دخان، بيضاء ورماديَّة، تنتشر وتصعد في الهواء.

لكنَّ فارساً ووديعة لن يبقيا معاً "طويلاً، طويلاً"، كما أمَل علي السّيّال. كَلَّا، بقيا معاً لشهور عِدَّة خلال سَنَةِ البكالوريا تلك، عاشا خلالها الحُبَّ القويَّ، لكنْ، حلَّ بفارس ذلك المرض الغريب حين لم تبقَ إلَّا أيَّام على امتحان البكالوريا، فغاب عن خريگة لفترة، وبالطبع،

فهو لم يجتزِ الامتحان في دورته الأولى، وحين عاد بعد شهر من الغياب، لم يعثر لا على وديعة ولا على أحد من أفراد عائلتها، إذ كانوا قد غادروا بيتهم بتلك المدينة. فلولا ذلك المرض، يقول فارس في نفسه، هل كانت وديعة ستتبخَّر من حياتي؟ وأين هي الآن؟ إنَّه يتذكَّرها في هذه اللحظة وهي تجري أو تتسلَّق الحبل باقتدار في حصص رياضية بملعب الثَّانويَّة (وقد علم منها أنها كانت تتمرَّن في جمنازات منذ طفولتها)، ويستحضر صورتها أيضاً وهي مُتربِّعة أمامه على سرير عريض في مَسكَن أيُّوب التريكي، مُولِيةً إيَّاهُ ظَهْرها العاري الذي ارتسمت بأعلاه، قُرب الكتف الأيمن، شامة سوداء صغيرة، ويده تجوس على صدرها العاري بحُبٍّ والتذاذ، وهي تداعب بكفِّها ظاهر يده تلك، وترفعها إلى شفَتَيْها وتُقبِّلها. ويستعيد صورتها تارة وهي ممدَّدة قُبَالَته على ذلك السَّرير وهو يُقبِّل نهدَيْها، ويدفع بركبةِ رِجْله اليُمنى ما بين ركبَتَيْها، فتنفتح الركبتان، ويَشعر بفخذها تُوضَع على فخذه وتَصعد حتَّى تُوضَع على حِقوه، وتارةً أُخرى يتذكَّرها وهي واقفةٌ أمامه، في ساحة الثَّانويَّة، تُقَلِّبُ صفحات رواية "مُولنْ الكبير" قبل أن تمدَّها إليه، حاثَّةً إيَّاه على أن يقرأها ...

يُفكِّر فارس في أن يُشعِل سيجارة، لكنَّه يرغب في محاربة عادة التَّدخين في السَّرير. ويمَدُّ يداً إلى الصحن الذي على منضدة السَّرير، يريد أن يلتقط موزة، فيكتشف أنَّه أتى على الموزات جميعها. في المطبخ، قِنِّيْنَة ويسكي نصف ملآنة، لكنَّه يُقرِّر ألَّا يتناول ولو نصف كأس. يلبس جاكتته التي كان قد خلعها قبل أن يستلقيَ على السرير. إنها التَّاسعة وثماني وثلاثون دقيقة، هذا ما تقوله لفارس ساعة يده.

الوقت يتلكّأ في المرور، وهو لا ينوي أن يلتحق بملحقة الوزارة على الفور. سيخرج ومُجَدَّداً يتمشَّى بلا هدف، ولربَّما اتَّخذ مكاناً بإحدى المقاهي في انتظار لحظة التَّوجُّه نحو العمارة التي تؤوي مكتب المسؤول.

في الخارج يهبُّ عليه هواء نقيٌّ، مُنعِش، عليل. يَعُبُّ منه ملء رئَتَيْه. يَخطو على الرصيف، مُبتعِداً عن البيت. من الاتِّجاه المعاكس رَجل قادم، غاضب، زمجرتُهُ التي يُريدها كتيمة، تُصبح مسموعةً رغماً عنه. إنها مُوجَّهة للطفل الصغير الذي يُرافقه. يبدو أنَّه ابنُهُ. الرجل قصير، لكنَّه عريض المنكبَيْن. سواد جلابيته الكابي تتخلَّله خيوط صوف بيضاء قصيرة. الطفل متين البنية، حزين، عيناه دامعتان، ينتعل صندلاً بلاستيكياً. قميصه أصفر، عليه بقعٌ عريضة، تشبه أن تكون وحلاً ناشفاً. فجأة يتوقَّف الرَّجُل، فيتوقَّف الطفل. ثمَّ تقوم يد الرجل اليُمنى بحركة مُفاجِئة إلى أعلى، وها هو، بكفِّه المبسوطة، يَهوي على عُنُق الطفل، الذي يترنَّح ويضع كفَّه على عُنقه، ويزعق، ثمَّ تصدر عنه صرخة مديدة، عُواء آدميٌّ مشحون بالألم. يطالبه الرجل، بصوتٍ غاضب، بأن يصمت. أقول أنا، متوجِّهاً للرجل: "كلَّا! كلَّا! عيب! عيب!" لكنَّ الرجل ينظر إليَّ شَزْرَاً، يغمغم قليلاً، يرميني من جديد بنظرات نارية من عينَيْه الحمراوَيْن، ويُكْمِل سَيره جاذِباً طفله خلفه.

أمامي وقت قبل الالتحاق بملحقة الوزارة. ولْأترك لقدمَيَّ، مُجَدَّداً، حُرِّيَّةَ المُضِيّ بي أينما شاءتا.

هكذا، يسير فارس على رصيف شارع بروكسيل لدقائق، ثمَّ يقطع

الشارع ويُعرِّج يساراً، إلى زنقة ضيِّقة، سرعان ما تتَّسع. إلى جانبها الأيمن، هنالك ساحة عريضة، مُشَجَّرة وبها مصاطب خشبيَّة. وإلى يسارها، هنالك مقهى "الشاشي" الصغيرة، المُنزوية. لقد أسماها صاحبها بهذا الاسم، حسبما يُروَى، لأنَّه كان مُعجباً بالأفلام الهنديَّة، وبالممثِّل شاشي كابور على الخصوص! كثيراً ما تتناهى أصواتُ مُغنِّين ومُغنِّيات هنود من هذا المقهى إلى آذان العابرين، أمَّا في هذه اللحظة، فلم يصل إلى مسامع فارس سوى قهقهات بعض الزبائن. فجأةً، يخرج من المقهى فتىً وفتاة، ويَقصِدان فارساً نفسه. يُحدِّق إليهما، فيبدو له وجهاهما مألوفَيْن، ولكنَّه لا يتعرَّف عليهما فوراً. الفتى في نحو السَّادسة عشرة، أسمر، متناسق الملامح، طويل القامة، ويبدو من نظراته أنَّ هنالك شيئاً ما يُحيِّره أو يُضايقه. أمَّا الفتاة، ففي نحو السَّابعة عشرة، مليحة التقاسيم، وبين ثَنِيَّتَيْها التَّحْتِيَّتَيْن فَلَج، ابتسامتها تشي بالطِّيبة. الفَلَج بين الثَّنِيَّتَيْن التَّحْتِيَّتَين يُذكِّر فارساً بوجه آخر، اختُزِنتْ ملامحه في ذاكرته، وها هو ينبثق منها الآن: وجه نَزيهة سَليمي، صديقة وديعة الحميمة، التي كانت تدرس معها في القِسم نفسه. والتي كانت مُرافَقَةً باستمرار، في ساحة الثَّانويَّة، من قِبَل سعيد دوبال، الذي تُحبُّه كثيراً، وهو نفسه كان منصاعاً لها بدافع العاطفة القويَّة ...

أوه! أوه! يتعرَّف فارس على الفتى والفتاة. إنّهما وَلَدا شامة، أُخت عليّ وخليل بوهدّي. الفتاة اسمُها مريم، أمَّا الفتى، فهو ... فهو ... علاء. وتنبثق في خيال فارس صورة لعلي بوهدّي: وجه خفيف السُّمْرة، نظرات مرحة تتنقَّل، من حين لآخر، بين وجوه مُجالسيه في

"الدَّار الخضراء"، فيما أصابع يُسْراه تضغط على أوتار العود، ثمَّ ترتفع عنها، ويمُنْاه تهوي بالمِضراب على تلك الأوتار في حركاتٍ محسوبة، تتباطأ ثمَّ تُسرع، وتنتقل من الوداعة إلى الشِّدَّة ...

وتَتبع تلك الصُّورة في ذاكرة فارس واحدة أخرى، في مقبرة بمُرَاكُش هذه المرَّة، يبدو فيها فارس نفسه - واقفاً إلى جانب خليل، أخي عليّ، وسي ميلود، والد عليّ وخليل، وأفراد آخرين من عائلة بوهدّي وعدد من أصدقاء تلك العائلة - أمام قبر مفتوح سيُودَع فيه جثمان عليّ بوهدّي، هذا الجثمان الذي كان قد عاد إلى العائلة من مصر.

"عمِّي فارس، عمِّي فارس!" قالت مريم، وهي تقترب، مادَّة يدها للمصافحة، وخلْفها أخوها علاء، متأبِّطاً محفظته. "يا عمِّي فارس، والله حرام عليكَ أنكَ لم تعد تزورنا منذ زمان طويل. كنتَ تجيء عندنا مع المرحوم خالي عليّ، ثمَّ نسيتَنا ..."، قال علاء. شعر فارس بالحَرَج وبالخجل، وأحسَّ أنَّه سيتلعثم إن تكلَّم على الفور، فصمت قليلاً، ثمَّ ابتلع ريقه وقال: "أنا بالفعل أُفكِّر في أن أزوركم، لكنْ، ما زالت الفرصة لم تسنح ... لا بدَّ أن أحلَّ ببيتكم قريباً، وأرى أيضاً أباكما سي إبراهيم وللاَّ شامة". فبالفعل، حين كان عَلِيّ يشارك فارساً السَّكَن في "الدَّار الخضراء"، حدث أكثر من مرَّة أن اصطحبه معه ليتغدَّيا بالكُسْكُس في بيت شامة وزوجها إبراهيم. ثمَّ إنَّ لفارس علاقة شبه عائليَّة بعائلة بوهدّي، فوالده ووالد الإخوة بوهدّي يمُتَّان لبعضهما بصلة قرابةٍ مَّا، وكلاهما من قرية أولاد الطالب. وفي تلك القرية، التي كانت العائلتان، قبل سنواتٍ خَلَتْ، تزورانها بشكل متزامن، تمَّ التعارف الأوَّل بين فارس والإخوة بوهدّي.

ثمَّ سأل فارس الأخوَيْن عن حال أبوَيْهما، وكيف تمضي أمور الدِّراسة. وقال: "عمَّ كنتُما تبحثان بداخل مقهى الشّاشي؟". هنا تراجع علاء قليلاً إلى الوراء، وتقدَّمتْ أُخته نحو فارس، وقالت له بأنَّهما كانا يبحثان عن واحد من أصدقاء أبيهما، ليطلبا منه مرافقة علاء إلى ثانويَّة ابن زيدون حيثُ يَدرس، إذ إنَّ الحارس العامَّ ضبطه وهو يُدَخِّن في ركن منزوٍ خلف مراحيض الفتيان، فطلب منه أن يُغادر الثَّانويَّة، ولا يعود إلَّا مرفوقاً بوَليٍّ أمره. لكنَّ علاء لم يرغب في أن يَعْلم والدُه بالواقعة، ولذا فهو يحاول أن يجد حلَّاً بديلاً، أي أن يُقنع شخصاً آخر بأن يرافقه ويزعم للحارس العامِّ أنه عمُّه أو خاله، وأنَّه جاء بصُحْبته بتوصية من والده "المريض"... ثمَّ طلبت مريم من فارس، بضحكة مُحرَجة، أن يُرافق علاء إلى الثَّانويَّة باعتباره نائباً عن أبيه!

قال فارس باسِماً، وبنزوع مُضمَر للمزاح: "لستُ مُتيقِّناً من أنيِّ سأُؤدِّي دوري بإتقان! هذه اللعبة كنَّا نقوم بها نحن أيضاً لمَّا كنَّا تلاميذ... لكنْ، ماذا إذا انكشف أمْرُنا، يا علاء!". والتفت فارس إلى علاء، وتفرَّسا في بعضهما. كان هذا الأخير قَلِقاً ومُحرَجاً، وازدادتْ حُمْرة وجهه المتوتِّر. رغب فارس في أن يُزيح عنه كربه، فقال له: "هيَّا. سألعب الدَّوْر. سأُرافقكَ!". وبالفعل، انفرجت أسارير علاء، وودَّعتْهما أُخته، وقفلتْ راجعة إلى بيت أبوَيْها.

مِن أوراق عليّ بوهدّي

الثلاثاء 4 يونيو 1985

إنها العاشرة والرُّبع، واليوم سبت. أنا في "الدَّار الخضراء" بحيِّ المحيط، حيثُ أسكن رُفْقة فارس. أجلس على طرف من الأريكة الكبيرة. أبسط عليها راحتَيَّ. يريحهما مَلمَس الجوخ الذي يكسوها. جوخ أزرق فاتح. بعد عشرة أيَّام، سأطير نحو القاهرة، ومنها أمضي إلى الإسكندرية، وبها سأشتغل في قنصليَّة المغرب، فقد تمَّ تعييني هنالك. أيَّامي الثلاثة الأخيرة، قبل سفري من الرِّبَاط إلى مصر، سأقضيها في بيت أُختي شامة. ستعتب عليَّ كثيراً إنْ لم أفعل.

على كرسيٍّ بذراعَيْن، قريباً منِّي، يجلس لَحسن ميمُّو، وهو صديق لفارس من أيَّام دراستهما بالثَّانويّ. كلٌّ منَّا يَرشُف من قهوته. يقول لي ميمُّو متسائلاً، فيما يُشْبِه الهَمْس: "ما يزالان نائمَيْن؟". "لا شكَّ في هذا"، أُجيبه، ضاحكاً في خفوت. يقول: "سأنتظر أن يستيقظا لأُوَدِّعَهما، عليَّ أن أعود اليوم إلى كازا".

الثنائي الذي يتحدَّث عنه ميمُّو هو فارس وزهور. وهما بالفعل لا يزالان في غرفة نوم فارس. هي إلى جانب غرفة نومي. إلى جانبهما غرفة ثالثة. الغرف الثَّلاث تنفتح على هذا الفناء المؤثَّث، حيث نحن

جالسان الآن. والغرفة الثَّالثة هي التي ينام فيها ميمُّو منذ أن جاء إلى هنا، قبل ثلاثة أيَّام. حين وصل، كان مرفوقاً بعزيز بوسبعين، لكنَّ هذا الأخير لبث ها هنا نحو ساعَتَيْن فحسب، ثمَّ انصرف. أعرف أنَّ فارساً كان قد مرض في نهاية سَنَةِ البكالوريا، التي درس خلالها مع عزيز وميمُّو، ولم يحضر لاجتياز الدورة الأولى للامتحانات، ولم يَعرف عنه صديقاه المذكوران شيئاً بعد ذلك، حتَّى التقاه عزيز في النَّادي السِّينمائي المعروف وقتها بحيِّ الأقواس، ثمَّ ربط هذا الأخير الاتِّصال بينه وبين ميمُّو. كان أخي خليل مِن مُسَيِّري ذلك النَّادي ومُنَشِّطي النِّقاشات فيه، وقد توثَّقتْ صداقته بعزيز بعد أن أصبح هذا الأخير عضواً في خليَّة التَّنظيم اليساريِّ التي كان يُشرِف عليها خليل. وكنتُ أيضاً من مُرتادي ذلك النَّادي، في فترةٍ مَّا.

يقول ميمُّو، مُجَدَّداً: "سأنتظر أن يستيقظا لأُوَدِّعَهما". أقول له: "الموسيقى هي التي ستُوقِظهما". يَهزُّ رأسَه، مُوافِقاً. ويبدو كالمندهش، حين يراني أُفتِّش بين الكاسيتات. ربَّما ظنَّ في البداية أنَّني سأعزف على العود وأُؤدِّي إحدى أغاني وديع الصَّافي، كما فعلتُ مساء أمس.

لِميمُّو هيئة رياضية، وإن لم يكن طويل القامة فعلاً. هو أسمر، أفطس الأنف قليلاً، ومَرِح. خلال هذه الأيَّام الثلاثة، توثَّق التعارف بيننا. وقد قال إثر مجيئه من الدَّار البيضاء (كازا)، إنَّه غادر عمله الأخير كبارمان في إحدى الحانات هنالك، وإنَّه خصَّص الأسبوع الأخير لجولة يُروِّح بها عن نفسه، فزار خريبگة، التي يقطن بها أبواه، ثمَّ عاد إلى الدَّار البيضاء، وجاء بعدها مع عزيز بوسبعين ليزورا فارساً.

وقد أبديتُ له استغرابي من أن يُصبح ساقِياً (بارمانْ) في حانة بعد أن حصل على البكالوريا وتَسجّل بكلِّيَّة العلوم، قال لي هو بأنَّه قبِل عملاً في حانة كان قد عُرِض عليه - وكان وقتها قد تسجَّل فعلاً في كلِّيَّة العلوم - للتجربة فحسب، ثمَّ أَلِفه، خاصَّة لأنَّ دَخْله منه كان جيِّداً، فاستمرَّ فيه، وأَمْكنه أن يُساعد عائلته الفقيرة. ثمَّ أضاف: "هكذا نسيتُ العلوم وكلِّيَّة العلوم ... ".

بحثتُ بين الكاسيتات، واخترتُ شريطاً بِه أغانٍ قِصار خِفاف لِلِيُو فيرّي. أضع الشريط في قفصه بواجهة المسجِّلة، وأُشغِّلها فيبدأ لِيُو فيرّي في الغناء. ويَشرع ميمُّو في النَّقْر على الطَّاولة برؤوس أصابعِ يُسْراه، مُتجاوِباً مع إيقاع الأُغنيَّة.

قال ميمُّو: "أنا أيضاً مُعْجَب بِلِيُو فيرّي. أتمنَّى أن يُفلِح في إيقاظهما. عليَّ أن أعود إلى كازا، وهنالك سأبحث عن حانة أخرى أشتغل فيها".

وها نحن نسمع حركة في غرفة فارس وزهور. إنَّهما يستيقظان. ينظر إليَّ ميمُو، مبتسماً، ويرفع إبهام يمُنْاه. لقد تحقَّق له ما كان يأمله منذ لحظات. أُودِّعه، فأنا أُريد أن أخرج. نتواعد على تجديد اللقاء، مستقبلاً.

يَلفِظُني باب العمارة، فيستقبلني بردٌ خفيف، هواء رائق، شمسٌ حانية، أشعَّتها تُكْمِل إيقاظ المرء بِرِقَّة. أقطع الشارع وأَدلِفُ إلى زقاق جانبيٍّ. أخرج منه إلى شارع كبير آخر، أتابع فيه سيري. ثمَّ أنادي تاكسياً يُقِلُّني إلى المدينة القديمة.

المشي مُجَدَّداً. شارع قصير في "باب الأحد". إلى يميني، حوانيت تُباع فيها ثياب أطفال، أو تلفزيونات ومُسجِّلات وراديوهات وآلات حلاقة كهربائيَّة، وهنالك أيضاً دكَّان حلَّاق ومقهى ودكاكين بضائع. النَّاس تتحرَّك. أمرُّ بجنب بائع جوَّال يصيح معلناً عن جودة الفواكه التي يعرضها على بسطته، ثمَّ من أمام باب كبير يُنْفَذ منه إلى سوق مُكوَّن من محلَّات تُباع فيها لحوم وأسماك وبهارات ...

الساعة تجاوزت الحادية عشرة. لقد أفطرتُ وشربتُ قهوة سوداء في "الدَّار الخضراء". أفكِّر في أن أمضي صوب حانة في الرِّبَاط - المدينة، لأشرب بيرتَيْن أو ثلاثاً. أنا لا أُدخِّن، ولا أُكثر من الشراب. هذا ما تعوَّدتُهُ. فارس يشرب أكثر منِّي، لكنَّ زهوراً، هذه المرأة العاقلة والأنيقة لا تشرب إلَّا فيما ندر. إنهما متآلفان جِدَّاً، بينهما عواطف قويَّة. تزوره مرَّتَيْن في الأسبوع، وفي إحدى المرَّتَيْن، تبقى لتقضي معه الليلة. فهي تسكن في بيت عائلتها بحيِّ العكَّاري. لا أدري ماذا ينتظران ليتزوَّجا! أمَّا فيما يخصُّني أنا، فأكتفي بالقول: لقد رحلتْ لُبنى عاصم!

لا أُدخِّن ولا أشرب كثيراً، وفارس يقول إنيِّ متفرِّد في الجمع بين الميول اليساريَّة وممارسة التَّمارين الرّياضيَّة بانتظام. لعلَّه يمزح. فهو يعرف أنَّ مانديلا كان ملاكماً، وأنَّ لينين نفسه مارس الجمباز. وقد ضحكنا جميعاً حين رويتُ لهم حكاية المطاردة التي تعرَّضتُ لها من قِبَل مخزنيَّيْن. أقول: ضحكنا جميعاً، لأنَّ زهوراً ولبنى عاصم كانتا أيضاً حاضرتَيْن. فالذي وقع هو أنيِّ شاركتُ ذات مرَّة، بالرِّبَاط، في مظاهرة جمعتْ طلَّاباً ومعارضين ومُحتجِّين يُطالبون بإطلاق سراح

المعتقلين السِّياسيِّيْن، وفي لحظةٍ مَّا، هاجمنا المَخازنيَّة. كنتُ، وقتها، أسكن عند أُختي، يعني أنِّي لم أكن قد انتقلتُ بعد للسَّكَن في الدَّار الخضراء. واخترتُ الفِرَار إثْر الهجوم. هكذا بدأتُ أجري أمام مخزنيَّيْن، يحمل كلٌّ منهما هِرَاوَة، من دون أن أركض بشِدَّة، تاركاً لهما أملاً كبيراً في أن يلحقاني ويمْسِكا بي، فيُشْبِعاني ضرباً ورَكْلاً ... ههه ... لكنَّ حُلْمهما المقيت لم يتحقَّق، إذْ ما إنْ كانا يقتربان منِّي قليلاً حتَّى أزيدَ في سرعتي، فتكبر المسافة بيني وبينهما. وقد كرَّرتُ هذا المقلب مرَّات، فلم ينتبها إليه إلَّا بعد أن نال منهما الإعياء بشدَّة، فعادا على عَقِبَيْهما، لاهثَيْن. وقد التفتُّ نحوهما وتصنَّعتُ القهقهة دون أن أُصدرَ أيَّ صوت، فرأياني وفَهِما أنِّي أسخر منهما!

التي قهقهتْ بالفعل حين أنهيتُ قِصَّتي كانت هي لبنى. لبنى عاصم، الحبيبة الأخيرة، التي لم تَدم علاقتي بها إلَّا أحد عشر يوماً، بالتَّحديد. تُرى أين هي الآن؟ ربَّما في طائرة، فهي مُضيفة طيران. تُرى هل تتذكَّرني؟ لا شكَّ في هذا. رغم أنَّنا، منذ البداية، كنَّا متَّفقَين، ضِمنيَّاً، على أنّ علاقتنا ستكون عابرة. أُقِرُّ، بشجاعة وبلا خجل، بأنّ شجناً غامضاً اعتراني بُعيد ذهاب لبنى. لكنه بدأ يخفُّ الآن. وأُقِرُّ أيضاً، بأنّ هنالك أمراً يُحزنني، وإنْ بشكل غير محسوس حقَّاً، وهو خُلُوُّ حياتي من ارتباط فِعلي ودائم بامرأة تكون حبيبة فِعليَّة. هنالك نسوة وفتيات دخلنَ حياتي في فترات مختلفة، ثمَّ خرجنَ منها، لكنْ، لمْ تستمرّ، بيني وبين أيٍّ منهنَّ، تلك الرَّابطة الوثيقة، القويَّة، الذي تصمد في وجه تقلُّبات الحياة وعواصفها! وأنا أعتقد جازماً أنَّ حياتي ستكتسب رَوْعةً تنقصها الآن، يوم يُقَيَّض لي أن أعيش الحُبَّ الفعليَّ،

القويَّ، الدَّائم! فهل أنا رومانسي؟ ما أعرفه هو أنِّي أُحبُّ الشِّعْر والفنون، وأعتبر نفسي "أناركياً مستقلاًّ"، ووجوديَّاً بعض الشَّيء. أؤمن بأنَّ الحُبَّ والجمال ضروريَّان للحياة! هنالك رواية فرنسية اقتناها فارس مُؤخَّراً، مُؤلِّفُها اسمُه جان كايرُولْ، وعنوانها "سأعيش حُبَّ الآخرين". عنوان جميل ولا شكَّ، ولكنِّي مُصِرٌّ على أن أعيش حُبِّي أنا، وأشعر أنَّه قادم!

عليّ بوهدّي يتذكَّر: أوقاتٌ في أولاد الطَّالب

الثلاثاء 4- 8- 1970

كنتُ في السنة الثانية الثَّانويَّة، وبعد العطلة أكون في السنة الثالثة. بعد ثلاث سنوات، أصل إلى قِسم البكالوريا. وهذه عطلةُ الصَّيف قد حلَّتْ، ومرَّ منها اثنان وعشرون يوماً. إنَّ حرارة مُراكُش في اشتداد. نسكن بهذه المدينة، بمنطقة جميلة من باب دكَّالة. في بدايات العطلة، زرتُ أُختي شامة، التي تقطن بالرِّبَاط. لقد أصبحت لها طفلة لطيفة، أَسمتْها مريم، وهي في سنتها الأولى. وقد كنتُ أذهب مع زوجها إبراهيم إلى شاطئ الرِّبَاط أو شاطئ سَلاَ. أمَّا الآن، فنحن نستعدُّ لزيارة قريتنا، أولاد الطَّالب.

فَرِحٌ أنا بهذه السَّفْرة. إنَّنا ننتظر عودة أبي، الذي سيجلب معه سائق التَّاكسي الكبير الذي سيُقِلُّنا إلى تلك القرية. لأبي، سي ميلود سيَّارة، رونو 16، ذات طلاوة، غير أنَّه يُفَضِّل أن نمضي إلى الدَّوَّار في تاكسي. أُمِّي، أمينة، مثل أبي، مُتحمِّسة للسَّفَر إلى الدَّوَّار. أُختي شامة لن تكون معنا هنالك، لأنَّها الآن في بيت زوجها إبراهيم، على بُعد عشرات الكيلومترات. أمَّا خليل، فلا يُحِبُّ أن تبدو عليه علائم الفرح. يَعتبر أنه كَبُر على ذلك، فهو طالب جامعيٌّ. إنَّه قد بدأ يأخذ بِجدِّيَّة فكرة النِّضَال إلى جانب البروليتاريا، ويُحاول أن يُفَسِّرها لي. وهذا كلُّه لا يتلاءم، في رأيه، مع إبداء الفرح بشكل صبيانيٍّ!

وصل التاكسي الكبير، وانطلق بنا من مُرَاكُش إلى بلدة رأس العين، فالشَّمَّاعيَّة، وبعد كيلومترَيْن تقريباً، تغلغل في طريق ترابيَّة، مُتوجِّهاً صوب "أولاد الطَّالب". كان أبي يتحادث مع السَّائق، وكنتُ أنا وأُمِّي وخليل في الخلف. طيلة المشوار، أتطلَّع من النَّافذة إلى كلِّ ما نمرُّ به: بيوت، أكواخ، كلاب ضالَّة، امرأة تمتح ماء من بئر، مُؤذِّن فوق مئذنة متهالكة، والمشهد الذي نفَّرني كان جُثَّة حمار، بدأ بطنه ينتفخ، فارتفعت اثنتان من قوائمه إلى أعلى. نفوري من ذلك المشهد جعلني أُشيح بوجهي عن النَّافذة لِلَحظات. أبي وسائق التَّاكسي كانا يتحدَّثان عن أحد حلايقيَّة جامع الفنا المعروفين، ووفاته في قاعة سينما. أُمِّي ابتسمتْ لي، وداعبتْ أنفي. لقد مدَّتْ يدها لتفعل ذلك، فبيني وبينها، يُوجد خليل، الذي قطع صمته ليتحدَّث إليَّ عن فيلم حول الهنود الحُمر، شاهده مؤخَّراً. قال إنَّ ذلك الفيلم يُقَدِّم قضيَّتهم مُتوخِّياً الحقيقة، وليس الدِّعاية الأمريكيَّة الرَّسميَّة التي تُصوِّرهم كمُتوحِّشين. أَنْصَتُّ إليه طويلاً. بعدها، عدتُ إلى تتبُّع المشاهد من النَّافذة. وذلك إلى أن بدا لي الضَّريح الصَّغير، الذي على هضبة في مدخل القرية. ضريح متواضع، بجدرانه المَطليَّة بجير لامع البياض، قُرْبَه أطفال يلعبون: إنَّه ضريح سيدي العَرَبي.

ما إن يحاذي التاكسي الضريحَ حتَّى أتمكَّن من الإطلال على بيتنا الذي تحرسه، من الخلف، نباتات الصَّبَّار العالية المتكاثفة، وتقبع أمامه، بئر، وجنبها تلك الصَّخرة الضَّخمة جِدَّاً، التي يُطلِق عليها أهل الدَّوَّار اسم "لالَّة الحَجْرَة" ("السَّيِّدة الحَجَرَة")!

الأراضي، على جانبَي الطَّريق الترابي الذي ننزله، ذات لون أصفر

باهت، هو لون ما بقي من سيقان السنابل بعد الحصاد. وقد هبَّت كلاب عديدة من أمام البيوت المتناثرة في جانبَي الطريق الترابيَّة، ومن أماكن غير محدَّدة، وبدأت تجري بأسرعَ ما تستطيع، مُبْلِية في النُّباح بلاءً حسناً. إنّها تتوافد لاهثةً صوب التَّاكسي، وتَنبح، وأحياناً تُبرزُ أنيابها. وحين تقترب منه تتوقَّف على مسافة يسيرة، وتستمرُّ في إظهار عدائها للكائن المعدنيِّ ذي الهدير، الذي كان يتقدَّم بنا صوبَ البيت. كان هرير تلك الكلاب إعلاناً قاطعاً عن انتقالنا إلى بيئة مختلفة، إلى عالَم أُحِبُّه، وسنقضي فيه قسطاً من هذا الشَّهر الصيفي. وها هي فتاة صغيرة تمرُّ، على رأسِها سلَّة كبيرة، وتلتفتُ نحو التَّاكسي، وتتفرَّس فيه، ثمَّ تُكْمِل طريقها. وها بعض الحمير تتهادى في سَيْرها، محرِّكةً ذيولَها، وقطعةُ أغنام خلفها فتى يسوقُها إلى مرعى!

دخلنا بيتنا القرويّ، عبر باب كبير، مَطليٍّ بالأزرق الفاتح، مقشّر طلاؤه في قليل من المساحات الصغيرة، ذي خَوْخَة بها مقرعة من نحاس في هيئة قبضة يد. هذه المقرعة تبدو لي دائماً ذات جمال وأَلَق خاصَّيْن، كأنَّما تدبُّ في دخيلائها حياة سِرِّيَّة، وكأنَّما لها أسرار وذكريات!

في غرفة بالبيت، هي الأقرب إلى المطبخ، أعثر على كُتُب، كنتُ قد تركتُها هنالك في الصَّيفَ الماضي، مركونةً في طاقة: "دمعة وابتسامة" لجبران خليل جبران، "النَّظرات" للمنفلوطي، و"بشير وأصدقاؤه"، وهو بالفرنسية، إضافةً إلى كُتُب، كان قد تركها خليل، منها: " أحدب نوتردام"، لفيكتور هيغو، و"مدخل إلى الماركسية"،

وهو لكاتب فرنسي ... لقد جلبتُ معي كُتُباً أخرى، هذه السنة، وكذلك فعل خليل.

البيتُ يتكوَّن من دارَيْن: الدّار الكبرى، التي هي البيت الأصليُّ، وقد أُلحقَتْ بها دارٌ أصغر وذات طابع أكثر عَصريَّة. فحين تدخل من الخارج، تجد إلى يسارك، باباً خشبيّاً، مصبوغاً بالبُنِّيِّ الفاتح وُمبرَنقاً، يمُكنكَ أن تلجَ منه إلى الدّار الصغرى، وبها غرفتان ومطبخ وحمَّام، وفي وسطها حديقة صغيرة مستطيلة. أمَّا إذا دلفتَ من الباب الخارجيّ، ولم تدخل من الباب الذي إلى يسارك، بل تابعتَ السير، فستجد نفسكَ أمام باب آخر، يُفْضي بكَ إلى دار أكبر وأقدم، لها باحة واسعة ... كان أبي يترك مِفْتاح البيت، في العادة، لأحد أقربائه: المعطي ولد عبّو، وكان هذا الأخير يَقطُن به حين يشاء مع عائلته (إذ إنَّ بيته هو صغير قليلاً، ويوجد على تخوم القرية)، ويُفرِغه لنا حين نكون على وشك القدوم إلى "أولاد الطَّالب". ولذا نجد حين نصل، بقرة أو بقرَتَيْن، وربَّما بضعة خراف ودجاجات، يتركها المعطي في الباحة الواسعة للدّار الكبيرة، وَكَم كنتُ أُحبُّ أن تكون هذه البهائم في بيتنا، فَحَرافة روائحها لها فرادة، كما أنَّ خُوار الأبقار له جِدَّتُهُ على أُذُنيَّ، وهو أحلى فيهما من زعيق سيَّارات المدينة.

أُغادر الغرفة التي يجلس فيها أبي مع زوَّاره بالدّار الصغرى. فأنا أعرف أغلبهم ويعرفونني، وقد جِئتُ للتَّسليم عليهم فقط. لا يزالون قليلي العدد، فهنالك مَنْ سيأتون مساءً. أحمد بن التهامي، مثلاً، وهو ابن خالة أبي، لم يجئ بعد، وإلَّا لكان مَرحُه وهزْله قد أثارا في الحضور ضحكاً مسموعاً وتعليقات وضوضاء. لقد بقي خالي أحمد،

كما أُسَمِّيه، مستقيم القامة، رغم أنَّ أهل القرية يضربون به المَثَل في طول العُمُر، ورغم أنَّ من بين أبنائه الأوائل مَنْ شاخَ ومات! أتذكَّر أنيِّ سمعتُهُ يقول، قبل سنتَيْن أو ثلاث، لشخص سأله، مُمازِحاً، عن سِنِّه: "أبونا آدم يمكن أنْ يكون أكبر منِّي بشهرَيْن أو ثلاثة! ههه". أمَّا الفقيه سي العربي، فهو حاضر مع الجماعة، جالس إلى يسار أبي، مُغطِّياً رأسَه بقِبِّ جلاَّبيته، وكعادته، تبدو عيناه شبه مُغمضَتَيْن. إلى جانب الفقيه، سي الهاشمي، والد فارس نمير، الذي وَضَع على رأسه طاقية بيضاء. إذن، فقد حلَّت عائلة فارس بالدَّوَّار قبلنا.

أعود إلى البيت الأكبر، أمرُّ بالباحة التي تُقوقئ بها دجاجات، جَنْب ثلاثة خرفان جاثمة أرضاً وصامتة. بهذا البيت غرف ثلاث تنفتح كلُّها على الفِناء. أُمِّي في المطبخ، أراها تحاول أن تؤجِّج النار في مَجمَر معدنيٍّ طويل، بفتيلة مغموسة في الزيت. أقول لها، مازحاً: "براڤو، أُمِّي. لقد انقلبتِ قرويَّةً بسرعة". تقول لي، بمَرح: "أنا طولَ عُمُري قرويَّة. حتَّى في مُرَاكُش، حين أفتح نافذةً في الصباح الباكر، أرى، فيما وراء أضواء الشوارع والعمائر حقولاً وكروماً ونعاجاً". وبدتْ لي، بالفعل، قرويَّةً ومدينيَّة في آنٍ، بيجامتها الخفيفة، السوداء المخطَّطة بالأبيض وَبَلْغَتِها السوداء، والمنديل الأخضر الذي على رأسها، والتماعات العَرَق على وجهها، وبخاصَّة على قصبة أنفها. بل إنَّها قد وُلِدَت في قرية قريبة من مُرَاكُش. أُمِّي امرأة ذاتُ عزيمة. تسألني: "هل ما يزال خليل في الدار الصغيرة، مع أبيكَ وضيوفه؟". أُجيبها بالنَّفْي، وأقول لها إنه لا شكَّ قد خرج، ومضى إلى كَرْمٍ مَّا أو هو يجوس في القرية.

أخرج من البيت، قافزاً فوق الجزء السُّفلي من الباب الكبير، فخوخته هي التي تُفتَح وتُغلَق في العادة. تَستقبل رئتاي ريح أولاد الطَّالب، وأتنشَّق رائحة الدَّوَّار التي أُحِبُّها. على مقربة من الباب، إلى يمينه، وخلف "لالَّا الحَجْرة"، هنالك البئر، التي يعلوها برج صغير قصير، وهو أسطوانة إسمنتيَّة حوافُّها شديدة السّمك. أمَّا "لالَّة الحَجْرة"، فهي الصّخرة الضّخمة جِدَّاً، ملساءُ السّطح العلويّ، القابعة في مكانها باللاأُباليَّة نفسها منذ أن استقرَّتْ فيه في تاريخ لا أعتقد أنَّ أحداً من أهل الدَّوَّار يتذكَّره. تنحطُّ عليها عيناي، وأعمل ما في وسعي لِئلَّا أشعر إزاءها بأيِّ تهيُّب أو تعظيم. لقد تعلَّمتُ هذا من أخي خليل، رغم أنَّ أهل القرية يُعَظِّمونها ويُجِلُّونها، وقد ورثوا ذلك عن أجدادٍ قُدامى كانوا قد عثروا عليها في أحد الأصباح، في مكانها هذا. قالوا إنَّه من المستحيل أن تكون نُقِلتْ إلى حيثُ هي من طرف كائنات بشرية، باعتبار عِظَم حجمها، واستنتجوا من ذلك أنها كائن عُلويٌّ نزل من السَّماء في هيئة حَجَرَة ضخمة جِدَّاً، وسيبقى سِرُّه خفيَّاً على أهل أولاد الطَّالب ... لقد أُنشِئَت بجانبها حُجْرَة صغيرة جِدَّاً، أقصر من الصخرة نفسها، لها باب صغير، وسقفها عبارة عن قُبَّة، وهنالك دائماً مَنْ يجلب شمعة ويُشعلها، ويُثبِّتها بداخل الحُجرة شَديدة الصِّغَر، من باب تبجيل لالَّة الحَجْرَة.

أَستدير يميناً. هنا الحائط المديد، القصير، السّميك، المشكَّل من أحجارٍ مركومة بانتظام فوق وجنب بعضها البعض. خلف الحائط، نباتات صبَّار مرتفعة لثلاثة أمتار تقريباً، مُتكاثفة، تُشَكِّل نصف دائرة عريضة جِدَّاً خلف بيتنا. وها هي ثمار التِّين الشَّوكيِّ، مُغشَّاةً بأغلفتها

السّميكة ذات الأشواك القصيرة الدّقيقة المتجمِّعة في حُزَم صغيرة صفراء، حواليها "أوراق صُبَّار" ليست، في الواقع، سوى أقراص ثخينة خضراء ذات عصارة وذات أشواك بيضاء كبيرة.

لِمَنْ هذا الوجه الذي يطالعني بابتسامة عريضة؟ ليست هذه إلَّا الكَامْلة، بقامتها المتوسِّطة وشَعْرها الذي انحسر عنه غطاؤه حتَّى المنتصف، فبدا أنَّ شيبه بِصدد اجتياح ما تبقَّى به من بقع سوداء. كانت للَّا الكامْلة تضع قريباً منها سطلاً بلاستيكيَّاً أزرق، وتجتني التِّين الشَّوكيَّ بقَرَّاصة - وهي قصبة طويلة مشقوقة من الرَّأس، يُنفَذ في جانبَي رأسها المشطور خيط سميك، وتُستعمَل لقطف التِّين الشَّوكيِّ. أبي يُعطي دائماً للكامْلة الضَّوء الأخضر لاقتطاف التِّين الشَّوكيِّ من هذا الصَّبَّار الذي هو مِلْكه. قالت الكامْلة: "رأيتُكم حين وصلتُمْ. لقد كنتُ عند أُمِّكَ، وسأعود ... هكذا، فأنتَ الآن كبير ... هل نجحتَ في الدِّراسة؟". أُجيبها بالإيجاب، وأقول لها: "مبروك على ابنك سي عبد الهادي أنه أصبح مُعلِّماً". فبالفعل، كنتُ قد سمعتُ أحد زوَّار أبي يقول: "الكامْلة فرحانة مسكينة. وَلَدُها عبد الهادي عُيِّنَ مُعلِّماً في بَنْگَرِير".

أتابع السير، صاعداً في الطريق الترابيَّة الضيِّقة. إلى يساري، الجامع العتيق الصغير، والنّطفية (البئر الصّغيرة) التي أمامه، والتي هي خزَّان مائه. إذا أكملتُ سيري صاعداً في الطريق الضيِّقة، فسأصل إلى حانوت صغير، كنتُ أشتري منه أحياناً، في أصياف ماضية، شموعاً وبَيضاً وصندوقات أعواد ثقاب. إنه حانوت لَكبير لعْرَج. لكنِّي لا أتابع السير في الطّريق التّرابية الصّاعدة، بل أتوجَّه نحو باب الجامع،

وأدخل إليه. هذا الجامع ليس مُخَصَّصاً للمُصلِّين ولتلاميذ الفقيه سي العربي فحسب، بل إنَّه يستقبل، أحياناً، فتية يقضون في إحدى حجرَتَيْه - وهي التي إلى يسار الداخل - وقتاً يتبادلون فيه الحديث والحكايات ... وتبقى الحجرة الأخرى، أي التي على يمين الدَّاخل، مخصَّصة للصَّلاة ولتعليم تلاميذ الفقيه. يُوجد بالحُجرة التي إلى اليسار خزانة قديمة بلا أبواب، رفوفها فارغة إلَّا من أحجار مُدوَّرة صقيلة تُستعمل للتَّيمُّم، ومصحف قديم، وسجَّادة قديمة، وجُبَّة سوداء مهترئة. بالحُجرة أيضاً، "مِيْسَان"، أي تابوت. أقترب من باب الحجرة، فتتناهى إلى أُذُنَيَّ أصواتٌ وأصداءُ ضحكات. إنهم هناك. أعني جماعة الفتيان. بالفعل، في الحجرة حيثُ "المِيْسَان"، أجد خليلاً وفارساً وعبد السَّلام ولد سي المكيِّ وفتيَيْن آخرَيْن.

دخلتُ وسلَّمتُ على الجماعة. سُررتُ لرؤيتهم، وقلتُ: "السلاااام عليكم"، ثمَّ عانقتُهُم، واحداً واحداً، بمَنْ فيهم أخي خليل، الذي سايرني في المَزحة.

ورحَّبوا بي وسألوني عن سَيْر الدِّراسة، ثمَّ عادوا إلى ما كانوا بصدده قبل قدومي. أيْ إلى نقاشٍ حول مَنْ يستطيع، بلا خوف، أن يتمدَّد في "المِيْسَان". أخي خليل، الذي هو أكبرنا سنَّاً، يقول إنَّه يستطيع، بالطَّبع، أن يتمدَّد في المِيْسَان، بل أكثر من هذا، "فإنِّي قادرٌ على أن أقضي فيه القيلولة". يقول عبد السَّلام إنَّ النَّعشَ هو للأموات وليس للأحياء، ولذا فلا يُحبَّذ هو أن يتمدَّد فيه. ينهض خليل ويتوجَّه صوب المِيْسَان بخُطى واثقة، وبتحدٍّ قويٍّ. يقول له عبد السَّلام: "العَن الشّيطان، يا خليل". لا يهتمُّ خليل بما يسمع، بل يتمدَّد في

التابوت، وبعد لحظات يُغمِض عينَيْه، ثمَّ يضحك ويقول: "ها أنا في نعشي!". ثمَّ يضيفُ: "احذروا أن تدفنوني ... أنا ميِّت، لكنِّي سأعود فوراً إلى الحياة!". يضحك بعض الفتية، ويقول أحدهم، مُتصنِّعاً الخوف: "أنا سأهرب". ترتسم على شفتَي عبد السَّلام نفسه ابتسامة عريضة، لكنّها تبدأ في التَّقلُّص بِسرعة. بل ويبدو على سَحْنته امتقاع خفيف، ويقول لخليل: "العن إبليس، يا خليل، واستغفر ربَّكَ". بلا تردُّد، يُجيبه خليل: "لا وُجود لإبليس إلَّا في خيالاتنا". يَصمت عبد السَّلام، ينظر صوبَ قدمَيْه، ويُحرِّك رأسه يمْنَةً ويَسْرَةً، مُستنكِراً ما سمع. أمَّا خليل، فينظر إلى فارس. فارس واقف الآن، وظَهْره إلى الحائط. لم يعد نحيفاً كما كان في السنة الماضية. قميصه الأخضر مرصَّع بالنجوم، وشَعْره مُسَرَّح إلى الخلف. إنه طويل القامة، بل هو في مثل طول أخي خليل، الأكبر منه سنَّاً. وها هو فارس يبتسم، ويحكُّ أنفه قليلاً. يفهم أنَّ خليلاً يتحدَّاه في مسألة الاستلقاء في التابوت. يتماكر قليلاً، ثمَّ يقول: "أنا لا أخاف من أمر هكذا، لكنْ، لو كان هذا النّعش على شاطئ وفوقه شمسيَّة، لاستلقيتُ فيه بارتياح". يُقطِّب خليل جبينه، ثمَّ يمطُّ حاجبَيْه، مُتصنِّعاً الاندهاش من تذاكي فارس. يقول: "خيالكَ واسع، يا فارس. ستكون شاعراً ولا شكَّ!"، فيبادر أحد الفتية المَرِحين إلى التّصفيق.

السبت 8 - 8 - 1970

في هذه الساعة ممَّا بعد العصر، ليست الشمس بالقاسية جِدَّاً عليكَ، يا رأسي، فلأتفسَّحْ قليلاً في وسط أولاد الطَّالب، ثمَّ أتوجَّه صوبَ حانوت الطَّيِّبي. بداخل هذا الحانوت، في هذه الأيَّام القائظة، يكون هنالك الطَّيِّبي، طبعاً، لابساً في الغالب قميصاً صيفيَّاً فضفاضاً وسروالاً تقليديَّاً فضفاضاً أيضاً، ولأنَّه نحيف وخفيف الحركة، فهو يبدو كشخصيَّة في شريط رسوم متحرِّكة. ورغم أنَّه في نحو الثلاثين فحسب، فصلعته تجتاح أرباعاً ثلاثة من المنبسط العلويِّ لرأسه. إنه ميَّال إلى الضَّحك، وأمام حانوته، تكون هنالك حلقة من أشخاص متفاوتي الأعمار، يتفرَّجون على لاعِبَيْ ضَامَة، أو على أربعةٍ يلعبون الورق، ويتحادث الجميع، ويضحكون، وقد يتخاصم اثنان، لكنّهما، في العادة، لا يصلان إلى العراك الفعليِّ. أحياناً، يلعبُ فارس الضَّامَة مع أحدهم، فهو يُحسِن هذه اللعبة، بل ويَحدُث أنْ يُشارِك في "طَرْح" من "الرُّونْدَة"، التي هي صنف من لعب الورق. أمَّا أخي خليل، فقلَّما يلعب معنا كرة القَدَم أو الورق. هذا طبيعيٌّ، فهو أكبر منِّي ومن فارس بنحو أربع سنوات. وهو طالب جامعيّ بالرِّبَاط، يتابع دراسته بشُعبة الأدب الفرنسي، وله حبيبة رِبَاطِيَّة، أطلعَني على بعض صوره معها. أُختي شامة أكبر منه بثلاث سنوات. أمَّا أنا وفارس، فمتقاربان في السِّنِّ، وقد تجاوزنا الرَّابعة عشرة ببضعة أشهر. هنا، في أولاد الطَّالب، يَحدُث أن يأخذ خليل معه كتاباً إلى مكان مُشجِّر

ويقرأ. بل وقد يقرأ صفحات من كتاب بداخل الجامع، حين لا يكون سي العربي يُعلِّم الصبية، ولا تكون جماعة تتجاذب أطراف الحديث أو تُصَلِّي. هكذا، فإنّ خليلاً، حسبما قال لي، ينفرد بكونه قرأ صفحات من كتاب لينين، "الإمبريالية أعلى مراحل الرّأسمالية"، في مسجد، وتحديداً في جامع أولاد الطَّالب!

في طريقي صوب الحانوت، أمرُّ بدار خالتي الكامْلَة، كما أُسمِّيها. إنَّ أمامها كلاباً لا شكَّ في كونها ستتعرَّفُ عليَّ، فقد دخلتُ هذه الدّار مراراً مِن قبل. أمام الحانوت، هنالك مجموعة محيطة بشخصَيْن يلعبان الضَّامَة: المحجوب ولد عامر وفارس. فارس، في رأي لاعبي الضَّامَة المتمرِّسين في الدَّوَّار، هو بمثابة عبقريّ في مجالهم، رغم أنَّه أصغر منهم سنَّاً بكثير. يبقى بطلهم الكبير في هذا المضمار هو بن هنيَّة، ذو اللحية البيضاء.، الشّهير بحِيَله الكبرى في اللعب. أمَّا المحجوب ولد عامر، فرجلٌ كبير في السِّنِّ، لكنه يُرَكِّز جيِّداً على هذا "الطَّرْح" بينه وبين فارس. وفارس يلعب ويُنصِت مع المُنصتين لِمَا يرويه جْعَاطَة. في أولاد الطَّالب، يَقطُن فارس وعائلته في جناح من دار جَدِّه الشَّاسعة. جَدُّه اسْمه المختار. أتبادل وفارساً التّحية بتحريك حواجبنا، قبل أن أمضي لأقف إلى جانب عبد السَّلام، الذي تنحدر حافَّة طاقيته ذات المربَّعات الخضراء والصفراء حتَّى تُدانِيَ منتصف جبينه. إنه يتتبَّع "طَرْح" الضَّامَة، ويُنصت إلى جْعَاطَة وهو يتكلَّم. وها أنا أفعل الشّيء نفسه.

يسكن جْعَاطَة، أو العسكريّ كما يُسمُّونه أيضاً، بكازَبلانكا (الدَّار البيضاء)، لكنَّه يأتي من وقت لآخر إلى هذه القرية التي وُلِد فيها

وترعرع. كان قد غادرها وهو صغير، واشتغل عند عائلة فرنسيَّة بآسَفِي، ثمَّ التحق بعد ذلك بالجيش الفرنسي في بداية أربعينيات القرن العِشرين. إنه رجلُ مغامرات، قد يكون الآن في الخامسة والخمسين، ويَحدُث أن يمضي من بلدة إلى أخرى، سيراً على القدمَيْن، ليلاً على الخصوص. في أحيان كثيرة، يحكي عن حياته المثيرة أمام حانوت الطَّيِّبِي. لقد أنْصَتُّ إلى قصصه أكثر من مرَّة، وليس في هذا الصّيف وحسب. يقولون عن والده إنَّه كان قاطع طريق، وكان، مع جمع من رفاقه، يُغيرون على قرىً شديدة البُعد عن أولاد الطَّالب. سمعتُ أيضاً أنَّ والد جْعَاطَة، في إحدى تلك الغارات، كان قد سَبَى فتاة، هي التي صارت زوجته بعد ذلك، وهي أُمُّ جْعَاطَة وإخوته. إنَّها الآن قد ماتت، وكذلك أبوه. لكنِّي لم أسمع قصَّة السَّبْي تلك من فم جْعَاطَة نفسه.

أنف جْعَاطَة مُتأكِّل من جوانب خيشومَيْه، فكأنَّما قَرضتْ منه فئرانٌ مشاكسة. وهو الآن جالس على حجر ضخم، يَحكي، والمتحلِّقون حول لاعِبَي الضَّامَة في نصف دائرة، يُنصتون ويُتابعون المباراة بين فارس وغريمه. "في تلك الليلة، خرجتُ من الشَّمَّاعيَّة بعد منتصف الليل بقليل، وبدأتُ السَّيْر، قادِماً إلى الدَّوَّار. كانتْ بيدي هراوتي التي لا أُفَرّط فيها، فهنالك قُطَّاع طُرُق في المنطقة. عادَة المشي لمسافات طويلة اكتسبتُها أيَّام كنتُ عسكريّاً، ولا تزال تُلازمني. في الليلة التي أحكي لكم عنها، كنتُ أتابع سيري وأتطلَّع إلى النّجوم أحياناً، أو أُسَرِّح ناظرَيَّ فيما حولي، وقطعتُ كيلومترات بلا مشكلات. لكنْ، فجأة، انبثق قُبَالَتي، على بُعد أمتار منِّي، قاطع الطَّريق المشهور آنذاك،

والمعروف باسم وَدْ الغُرّ. كنتُ قد سمعتُ عنه كثيراً. ولأنيِّ أعرف أنّه ضخم الجثَّة، قويّ البنية، طويل الشَّعْر أكثر من المعتاد، أمكنني أن أتعرَّف عليه على الفور ..." كان العسكري (جْعَاطَة) يَحكي ومباراة الضَّامَة تستمرُّ. فارس يهجم من الجانبَيْن ومن الوسط، المحجوب ولد عامر يُدافع ويستعمل مهاراته ليدرأ هجمات فارس. هذا الأخير يتقدَّم بثلاثة بيادق نحو الخانات الأربع العليا، والذي يصل من تلك البيادق إلى واحدة من تلك الخانات، سيكتسب صفة "ضَامَة" ويُصبح ذا مقدرات وخطورة على الخصم. المحجوب يستنفر مهاراته، لكنّ فارساً ليس باللَّيِّن العريكة. وجْعَاطَة يروي: "... تعرَّفتُ عليه، ولا أخفي عنكم أنَّني شعرتُ بشيء كالخوف، ولكنِّي أثَّبتُ نفسي، وتذكَّرت أيَّام كان الرَّصاص يُلعلع فوق رؤوسنا - أنا ورفاقي - في نورماندي بفرنسا، وفي رَمشة عين عادتْ إليَّ رباطة جأشي، فتوقَّفتُ عن السَّيْر، مُنتظِراً ما سيُقْدِم عليه وَدْ الغُرّ. قال لي بحَنْجَرَة بحَّاء وصوت شديد الخشونة: "الفلوس اللي عندك، أَعْطِني نصفها فقط، وسِرْ الله يعاونك". أجبتُهُ بأنَّه ليس معي نقود، وأضفتُ، لينطليَ عليه ادِّعائي: "لو كانتْ عندي نقود لَمَا رأيتَني عائداً إلى الدَّوَّار على القدَمَيْن في هذا الليل". صَمَت لثوانٍ، وبدا أنّه يُخطِّط لأمرٍ مَّا. بقيتُ أنا على الحَذر، بل على أُهْبَة التعارك معه، إن لزم ذلك. وبالفعل، فما هي إلَّا بِضع ثوان حتَّى خَطا تجاهي بسرعة ذكَّرتْني بالاندفاع السّريع المباغت لِمجنون كان يبدو هادئاً، ثمَّ أجفل وانطلق ...". كنتُ أُتابع قِصَّة جْعَاطَة ومباراة الضَّامَة في الوقت نفسه. التقت عيوننا، فارس وأنا، فحرَّك رأسه ومطَّ شفتَيْه، في ابتسامة مُتَكتَّم عليها، كأنها رسالة خفيَّة تؤكِّد لي أنَّه سينتصر. وبالفعل، كانت لديه الآن ثلاث "ضَامَات"، بينما لم

يكن للمحجوب بعد ولو ضَامَة واحدة. يُحاول أحدهم أن يُسعِف المحجوب بتوجيهاته. المحجوب يُناور ويُحاول أن يتقدَّم. جْعَاطَة، بدوره، يستمرُّ في الحكي: "لكنِّي انزحتُ مبتعداً قبل أن يُصبِح في مواجهتي، وهكذا عَسُر عليه أن يهويَ عليَّ بعصاه التي كان قد رفعها عالياً، وفي النهاية أهْوَى بها كيفما اتَّفق، فلم يتمكَّن سِوى مِن أن يَشُقَّ الهواء نِصفَينْ! في تلك اللحظة بالضبط، وهو لا يزال مُنحنياً بكتفه اليمنى، أسقطتُ الهراوَة مِن يدي لأنَّه كان قريباً منِّي، ولكمتُهُ بقوَّة، فأصبتُ حَنْجَرَتَهُ. وقد استدار نحوي بصعوبة، ففاجأتُهُ بركلة أصابتْ أسفل بَطنه، فتقهقر إلى الخلف مُنْحنيَ الجذع، ثمَّ هوى جالساً، وعلى الفور التقطتُ هراوَتِي، وأطلقتُ ساقَيَّ للرِّيح، فلم أتوقَّف حتَّى وصلتُ إلى قنطرة مُشرفة على شِعْب فسيح، وهنالك رأيتُها، بعيدةً عنِّي، تتحرَّك في وسط الشِّعْب فتتماوج هيئتها قليلاً، وتهتزُّ المُلاَءَة التي تتلفَّع بها وينفخ البرد جوانبَها، فتنبثق من المُلاَءَة ومضات وظلال. كان ضوء النّجوم ينسكب قُربها فيُشكِّل ما يُشبه بركة ماء بيضاء وزرقاء، متماوجة السّطح. ثمَّ ها هي تلك المرأة تقوم بحركات راقصة، بيِّنة الغُنج. شعرتُ أنَّني أَنْشَده وأنَّ خَدَرَاً غريباً يسري في أطرافي، بدءاً من كتفَيَّ. إثر ذلك اشتدَّت حالةُ انشداهي، وأصبحتُ كالمَسحور، وبدأتُ أنزل المنحدر المحاذي للقنطرة متوجِّهاً صوبها، مسلوبَ الإرادة، فيما هي تقوم بحركات بيدَيْها كأنّهَا تتهيَّأ لمعانقتي، فيتعرَّى ذراعاها، وأراهما بيضاوَيْن لَدنَيْن، ويتأكَّد لي ما أدركتُهُ من البداية: إنّها هي. بل وتبدأ في مناداتي: "والْعسكريّ! والْعسكريّ!". إنَّها هي، كما قلتُ لكم ...". في تلك اللحظة، وجدتُني من بين الذين رفعوا أصواتهم - كثيراً أو قليلاً - سائلين: "لكنْ، هي، مَنْ هي؟". فارس

والمحجوب كانا أيضاً ينظران في اتِّجاه جْعَاطَة. وعلى رقعة الضَّامَة، كان فارس يتقدَّم بقوَّة والمحجوب يندحر. لكنْ، وَقَع أمرٌ عجيب. فقد بدا أنّ فارساً، في لحظة معيَّنة، لم يَعد يدري ما الذي يُقْدِم عليه، وكأنّ سبَّابة يُمناه أُصيبتْ بِخَبَل، فدفعتْ بإحدى "ضَامَاته" الأربع إلى الخانة الخطأ، بحيثُ لم يعد مطلوباً من المحجوب سوى أن "يأكل" ضامَتَيْن لفارس بلا عناء. وهكذا سيَؤُول "الطَّرْح" إلى التّعادل. لِمَ أَقْدَم فارس على هذا الخطأ؟ إنَّه لأمر غريب! ويأتي الجواب المُرتَقَب من فم جْعَاطَة، بإيقاع بطيء ونَبْرة رصينة: "هي، مَنْ هي؟ (يبتسم)، هي غيثة. غيثة، الله يرحمها، امرأتي الأولى. تزوَّجتُ بها في كازا ... كنَّا نُحبُّ بعضنا بِقوَّة، وضَحَّت معي كثيراً، حتَّى بما كان لديها من مال، وقد كان وفيراً ... ثمَّ مَرضت وماتتْ ... وبعد ذلك بوقت، تزوَّجتُ امرأتي الحالية ...". ألتفتُ ناحية فارس الذي أنهى جولة الضَّامَة بالتّعادل. لم يُرد أن يبدوَ أقوى من غريمه كبير السِّنِّ. هذا ما فهمتُهُ. ويستمرُّ جْعَاطَة في الكلام: "المهمُّ أنني تعرَّفتُ عليها حين ظهرتْ لي في تلك الليلة، وأنا على الجسر. وبالطّبع، فقد بقيتُ خائفاً منها، لأنها أصبحت الآن غيثة المنتمية إلى عالم الأموات، فلربَّما يدفعها حبُّها لي إلى محاولة أخذي معها إلى حيثُ هي. وهذا يُخيفني بِشِدَّة. فما الذي فعلتُهُ حين بدأتْ تُحرِّكُ ساعدَيْها وتتغنَّج في حركاتها الرَّاقصة؟ في العادة، حين يظهر لي شبحُ ميِّت في أثناء سيري ليلاً، وهذا ما سبق أن وقع لي أكثر من مرَّة، فإنِّي أتناول من جيبي مِطوَاة، وأُخرِج نصلها من مَكمَنه، فيبدو متلامعاً في ضوء النّجوم، ولَحْظتَها يختفي الشبح بلا إبطاء. عندي طريقة ثانية، وهي إشعال عود ثقاب. لَم أشأ أن أُخرِج المِطْوَاة وأُشهر نصلها على غيثة، فحناني عليها لم يختفِ بموتها، ولذا آثرتُ استعمال الطريقة الثانية:

إشعال عود الثقاب". عند هذا الحَدِّ توقَّف جْعَاطَة عن الحَكيْ، وقال: "لاحِقاً أُنهي قِصَّتي، أمَّا الآن، فعليَّ أن أمضي إلى البيت"، ووقف وحيَّا الجماعة برفع كفِّه المفتوحة، ثمَّ انسحب. وتحلَّقت جماعةٌ لتلعب الورق، وانصرفنا، أنا وفارس وعبد السَّلام.

أفكِّر أنَّه جميل من جْعَاطَة أن يتعاطف مع زوجته الأولى الميِّتة، غِيثة، وأن تمنعه رِقَّته تجاهها من أن يَشهر نصل مِطوَاته على طيفها، رغم أنَّها، في نهاية المطاف، شبحٌ يُخيفه. هل يُمكن فعلاً أن يظهر شبح إنسان ميِّت لشخصٍ مَّا في الليل أم لا؟ خليل له تصوُّره في هذا الأمر، فهو يعتبر أنّ جْعَاطَة لم يَكذب فيما رواه، ويؤكِّد أنَّه ليس هنالك أشباح فِعليَّة تعود من عالم الموتى. لقد تحدَّث لنا طويلاً - فارس وأنا - عمَّا يُسمَّى الاستيهامات والهلوسات ... نحن نستفيد منه كثيراً. أنا وفارس نوافقه على الكثير من أفكاره، بل إنَّ عبد السَّلام نفسه، في أحيان كثيرة، يُنصِت إلى كلامه باهتمام. عبد السَّلام هو ابن القرية ومقيم فيها في غالب الأوقات، وإنْ كان يقضي الآن فتراتِ الدِّراسة في الشَّمَّاعيَّة، فهو تلميذ بثانويَّة هنالك، ولا أدري لماذا يُزمِع الانقطاع عن الدِّراسة، حسبما يَقول. وحتَّى جْعَاطَة يُوافق على بعض آراء خليل، ذلك أنّ هذا الرَّجُل يجالسنا بارتياح، من حين لآخر، خاصَّة حين ننضمُّ إليه وهو قاعدٌ وحده تحت سور بيت صهره. مرَّةً قال خليل: "لالَّة الحجْرة، يا للتّسْمية المُضحِكة! أهلُ القرية يُبَجِّلونها باعتبارها نازلة من السماء، وهي مُجَرَّدُ حجر نيزكيٍّ، والمُشكِل هو في إقناعهم بالحقيقة". أمَّا أنا وفارس، فكنَّا مُقتنعَيْن بما قال، فيما كان عبد السَّلام مُتردِّداً، ولم يُفصِح عن رأيه، إن كان له رأي. ضحك جْعَاطَة وقال: "ما دام النّاس يرون فيها كائناً عُلْوِيّاً نازلاً من السّماء، وما داموا

مرتاحين لِمُعتقدهم، فلِم ستحاول، يا خليل، أن تُبَدِّل فكرتهم؟". لكنّ جْعَاطَة، الذي كان يناقش مسألة مثل لالَّة الحجْرة بلين وتفهُّم، سرعان ما كان يصبح واقعيّاً جِدَّاً حين يتعلَّق الأمر بموضوعات يعتبرها ذات خطورة. هكذا، فحين رأى خليلاً يُطنب في الحديث الحماسيِّ عن النضال والفلاَّحين الفقراء ... انبرى له بودٍّ، لكنْ، بصرامة، قائلاً بأنَّ النّاس في هذه القرية يَرهبون السلطات، وإذا تكلَّمتَ معهم عن النِّضال، فلا شكَّ أنَّكَ ستجد مَنْ يتطوَّع من بينهم لإخبار أعوان الدّاخلية عمَّا يصدر عنكَ ... ولم يكتفِ جْعَاطَة بما قاله لأخي خليل، بل قام بإنذار أبي: "تنبَّهْ جيِّداً، يا سي ميلود، فولدكَ خليل يلعب بالنّار". وبالفعل، تلقَّى خليل مِن والدي تأنيباً شديداً. قال له الوالد بأنه يُخاطِر بنفسه بصورة حمقاء. وكانت عبارة الوالد التي أضحكتْني حين سمعتُها من فمه، وبقينا، خليل وأنا، نتندَّر بها زمناً، هي: "واشْ بغيتيهم يْديروا لنا حْبالْ ف عْناڭْنا؟" (هل تريد مِنهم أن يجعلوا لنا حِبالاً حول أعناقنا؟).

فارس

الجُمُعة 11 أبريل 1986

قُرب الباب الكبير لثانويَّة ابن زيدون، ينتشر تلاميذ وتلميذات ينتظرون جَرَس العاشرة إلَّا خمس عشرة دقيقة ليدخلوا إلى ساحة الثَّانويَّة. أمَّا فارس وعلاء، فسيمضيان، بعد لحظات، إلى مدخل الرِّوَاق المخصَّص لموظَّفي الإدارة والأساتذة ومَنْ يزور الثَّانويَّة من آباء التلاميذ وذويهم. وِجْهة فارس ستكون هي مكتب الحارس العامِّ، حيثُ سيلعب دور وَليِّ أمر علاء، وهذا الأخير سيكون حاضراً ليسمع ما سيقوله عنه الحارس العامُّ، وما سيجود به عليه من توبيخ.

تعلو حرارة جبين فارس وقِحْفِه، ويطلب من علاء أن يقفا قليلاً جنب العربة القابعة في ظلِّ شجرة أوكاليبتوس كثيفة الأوراق. صاحبها يَعرِض عليها حلويات وبزور بِطِّيْخ مشوية وأصنافاً من الشّوكولا ... يحتمي فارس بالأوراق الكثيفة لشجرة الأوكاليبتوس الطيِّبة تلك. يأخذ علاء قطعة شوكولا ويؤدِّي ثمنها لصاحب العربة الذي بدا أنَّه يعرفه جيِّداً، فهو يقول له، ضاحكاً: "ضبطوك تدخِّن وطردوك؟ القضية بسيطة ... سيُحَلُّ المُشكِل". يُشعِل فارس سيجارة. يرفع رأسه ثمَّ يحنيه، لأنَّ أشعَّة الشَّمس هَوَتْ على وجهه بحرارتها. يَرى نفسه الآن واقفاً بجانب عربة عُبَيْد الله الذي كان أيضاً يبيع الحلوى، ولكنْ، أمام

ثانويَّة (ط) بخريگة. يمُالِئُ نفسه على حُلْم اليقظة هذا، بل ويلتفت باحثاً عن الرّيّس أو ميمُّو أو أيٍّ من أصدقائه الآخرين. ويتساءل هل هو على موعد اليوم فعلاً مع وديعة في مَسكَن أيُّوب التريكي، الذي هو ابن أُخت زوجة عبد السَّلام، عمّ فارس ...؟

ثمَّ يمضي فارس وعلاء في رِوَاق، سيُؤدِّي بهما إلى مكتب الحارس العامِّ، الذي هو السَّيِّد موسى الشّحرور. اسم الشّحرور هذا يُضحِك فارساً! لكنّ الشّحرور لَم يَعد بعدُ إلى مكتبه، فهو مـــا يزال في السّاحة. لِذا، يبتعد فارس وعلاء عن باب المكتب، ويقفان على مصطبة صَقيلة، طويلة، عالية، تمتدُّ أمام عدد من حجرات الدّرس، سطحها من موزاييك تتحاذى فيه بقع رمادية داكنة وأخرى بيضاء غير ناصعة. مِن حولهما ينزل تلاميذ خارجون من الأقسام ويَتوجَّهون إلى الساحة العَريضة التي تُرى في الجهة اليُسرى منها أشجارُ سَرو خلفها بضع صنوبرات، محيطة بما يبدو أنها مراحيض. يُسَرِّح فارس بصره في السّاحة حيثُ التّلاميذ والتلميذات، بِوِزْرات بيضاء غالباً. وتتتبَّع عينا فارس شخصاً قادماً من جهة مبنىً ذي طابقَيْن، لابِساً جاكتة جِلْدِيَّة سوداء فوق الوزرة البيضاء الطّويلة التي تصل إلى مستوى ركبتَيْه. جاكتة جِلْدِيَّة فوق الوزرة البيضاء؟ ومَنْ يفعلُ هذا سوى الأستاذ سُورُو، مدرِّس الفيزياء بثانويَّة (ط) بخريبگة؟!

مِن جديد، يَعيش فارس حُلْم يَقظته، ويستلذُّ ذلك الحُلْم. فها هو طائر كناريٌّ يعبر من أمامي في هذه الصّبيحة. وها هي الآنسة تورتورال، أستاذتي لمادَّة الرِّياضيات، تمرُّ قريباً منِّي. عيناها مُصوَّبتان نحو الأسفل، وهي تبتسم ابتسامة تكاد لا تُلْمَح. وأخيراً، ها هي وديعة

قادمة صَوبي، ومعها صديقتها نزيهة سَليمِي، وصديق هذه الأخيرة الحميم، سعيد دوبال. يهتزُّ شَعْر وديعة قليلاً من أمام، فثمَّة هبَّة برد، وتتدلىَّ منه خُصلتان على طرفيَ جبينها. هي في مثل طولي تقريباً. إنَّها تتقدَّم بِخَطو واثق. يتحرَّك كتفاها فيهتزُّ نهداها بشكل طفيف، ويُنعشُني اهتزازهما ويُرعِشني، وقد لا يلاحظه غيري، ولكنَّني أنا ألاحظه. ترتاح نظرتي على وجهها الأليف الذي يُخامر بياضَه الآن لونٌ نبيذيٌّ. ونتحادث عمَّا وقع قبل يومَيْن، حين دَهَمَ "مَخازنيَّة" بِهَرَاوَى ثانويَّة (ط)، وهاجموا التَّلاميذ المُضْربين، فذلك موضوع السَّاعة. كنتُ أنا قد هربتُ وقفزتُ من فوق السُّور إلى خارج الثَّانويَّة، وتابعت جَريي حتَّى وصلتُ إلى حديقة عموميَّة بعيدة. أمَّا وديعة ونزيهة، فبقيتا مع تلميذات كثيرات في الجناح العِلمي، في أمان. سعيد دوبال قال، وهو يمسح نظَّارته الطِّبِّيَّة بمنديل حريريٍّ والنَّمش الذي يُرَصِّع وجهه يمَنحه طابعاً طِفلِيَّاً نوعاً مَّا، إنَّه كان مُستدعَىً إلى مكتب عليّ السّيّال، لأنَّه تغيَّب في اليوم الفارط عن حِصَّة الرِّياضة البدنيَّة، وبقي في ذلك المكتب إلى أن أنهى ذوو الَهرَاوَى غَزوتهم. وانضمَّ إلينا سعيد الرّيّس، وقد كان مَرِحاً، يتكلَّم فتبدو أسنانه البيضاء المنضودة وثَنِيَّته العليا المكسورة. قال إنَّه أغلق عليه باب إحدى حجرات الدّرس في الطّابق الأَوَّل، وانغمس في قراءة رواية "موبي ديك" لهرمان ملڤيل، وفي تلك الحجرة، بقي آمناً مطمئنَّاً، إلى أن عاد السّلام إلى الثَّانويَّة ... بعد مرور يومَيْن على ذلك الحديث، ستلتحق بي وديعة إلى مَسكَن أيُّوب التّريكي، لابسة جلَّابية رجاليَّة، كنتُ قد اشتريتُها أنا لتلك الغاية بالضَّبط، وأكملْنا الحديث في موضوع المداهمة ذاك، قبل أن ننصرف إلى نشاطنا العِشقيِّ. لقد جاءت وديعة لابسة

تلك الجلَّابية في ذلك اليوم، ولم يكن وارداً أنْ يَخطُر ببال من يراها أنها فتاة في لباس ذكوريٍّ، إذ إنَّ الجلَّابية كانت واسعة في منطقتي الصَّدْر والرَّدْفَيْن. وفيما بعد ذلك اليوم، لن تكون مضطرَّة إلى التَّنكُّر بتلك الطَّريقة، فسرعان ما سندرك أنَّ منطقة "الغَرْسُوْنِيْرَات" (مساكن العزَّاب) التَّابعة لشركة الفوسفاط، الواقعة في منطقة معزولة كثيرة الأشجار، تبقى شبه مهجورة في معظم ساعات النّهار، إذْ لا يعود إليها ساكنوها، عادةً، إلَّا مساءً، بعد انتهائهم من العمل. ضحكتُ وأنا أراها وأُعانقها وهي في تلك الجلَّابية. ونَزَعَتْها وقالت إنها تُعجبها، بل وتُحِبُّها لأنيِّ لبستُها قبلها، ثمَّ أضافتْ، وكأنّها تُكمِل حديثنا في الثَّانويَّة عن الدَّهْم العنيف الذي حدث: "لقد كان بإمكاني أن أركض مع الرّاكضين، وأن أقفز من فوق السّور بكلِّ سهولة، وأنتَ تعرف ذلك، ولكنِّي لم أُرِد أن أترك نزيهة وحدها". ثمَّ نسينا ذلك الحديث، فلحظة الملامسات كانت قد أزِفَتْ، وكان لا بدَّ للشِّفاه أن تلتقي، ذلك أنَّنا كنَّا قد تجاوزنا التَّحرُّج والخجل منذ لقائنا الأوَّل. فها وديعة أمامي، بعينَيْها الواسعَتَيْن العاشقَتَيْن، وصُديريّها التّحتي الرُّمَّانيِّ اللون، وثُبَّانها الأسود، المخرَّم والشَّفَّاف على جانبَيْه الأيمن والأيسر، لكنْ، الثَّخين في الوسط، على الرّبوة البيِّنة المعالم، التي تستثيرني أيَّما استثارة. وأعلى منها، كان هنالك ما يشبه تموُّجات خفيفة ورائقة للبطن. وها يداي ترتعان فوق تلك التموُّجات ...

ويُنهي فارس حُلْم يقظته بالتساؤل الذي لا مناص منه: "لكنْ، أين هي وديعة الآن؟"

ويُجيبه علاء، ولكنْ، عن سؤال آخر: "إنَّه قادم صوب مكتبه، سي

موسى الشّحرور". وتَشرع مجموعات من التَّلاميذ في مغادرة السَّاحة نحو الأقسام. وتمرُّ تلميذة بدينة، في نحو الخامسة عشرة، بالقرب من علاء، وتلتفت نحوه باسمة عن أسنان بيضاء جميلة، وتقول له: "هل أنتَ مطرود، يا علاء؟"، فيجيبها بهزَّة من رأسه، مرفوقة بابتسامة عريضة تنمُّ عن زُهُوٍّ وإحساس بطولي!

بعد لحظة، دخل السَّيِّد موسى إلى مكتبه، ولحقا به. أخبره فارس أنَّه وَلِيُّ أمر علاء، وأنَّه جاء معه كما هو مطلوب.

موسى الشحرور أطول من فارس بشبرَيْن تقريباً. ظهره مَحنيٌّ إلى الأمام قليلاً. وهو ذو كتفَيْن عريضَتَيْن وجبين عريض متقدِّم أيضاً إلى الأمام، ممَّا يجعل عينَيْه تبدوان كالغائرَتَيْن. يلبس جلَّابية صوفية فاتحة الخُضْرَة تصل إلى منتصفَي ساقَيْه، وجورَبَيْن سوداوَيْن، وينتعل بَلْغَة صفراء، قديمة ومتينة. بعد أن جَلس خلف مكتبه، وطلب من فارس أن يجلس، ورحَّب به، سأله إن كان والد علاء؟ فقال له فارس إنَّه من أقربائه، وإنَّ أباه لا يستطيع الحضور بنفسه، لكنَّه هو ينوب عنه. فطلب منه الشّحرور أن يُؤنِّب علاء ويُوبِّخه على فعلته، وأن يُوضِّح له مضارَّ التَّدخين ... فقال فارس إنَّه قد فعل ذلك، وإنّ علاء أبدى النَّدم على ما كان قد أقدم عليه، وهو لن يُكَرِّر خطأه. وسأل موسى الشّحرور علاء، الذي بقي واقفاً، إن كان يتعهَّد بألَّا يعود إلى التَّدخين في الثَّانويَّة، فأجاب هذا الأخير بأنَّه لن يعود أبداً إلى ذلك، فأعطاه إذناً مكتوباً للالتحاق بقِسْمه. إثر مغادرة علاء، خَلَع موسى الشّحرور عن وجهه قِناع الصّرامة، وابتسم، وقال: "إنَّهم أطفالنا، وعلينا أن نحرص عليهم". ثمَّ طلب مِن فارس أن يُوَقِّع ورقةً يُؤكِّد من خلالها أنَّ الإدارة أعلمتْهُ بما كان قد قام به علاء ... وَعَلَّق موسى الشّحرور: "مجرَّد إجراء روتينيٍّ".

فارس

الجُمُعة 11 أبريل 1986

بعد أن غادرتُ مكتب السَّيِّد موسى الشّحرور وخرجتُ من الثَّانويَّة، أوقفْتُ تاكسياً. طلبتُ من السَّائق أنْ يُوصلَني إلى مُلْحَقَة وزارة الثَّقافة بأگدال. ذَرَع بي شوارع ومنعرجات، وأَوقفَهُ ضوء أحمر هنا، وآخر هناك ... وفي النهاية، توقَّف أمام بناية عصريَّة من ثلاثة طوابق، مع العاشرة وسبع وثلاثين دقيقة.

دخلتُ وحيَّيتُ الرَّجُل القصير المكلَّف بالاستقبالات. سألتُهُ عن السَّبيل إلى مكتب رئيس قِسم الموظَّفين. أرشدني، فَصَعِدْتُ السَّلالم إلى الطَّابق الأوَّل، ثمَّ طرقتُ باب سكرتارية رئيس القِسْم، وواربتُهُ وأطللتُ منه. رفعتِ السكرتيرةُ رأسَها، فسألتُها هل سي حَمُّودة موجود؟ وبدورها سألتْنِي لِمَ أريد مقابلته؟ فقلتُ: إنَّني مُسْتدعىً، ودخلتُ وسلَّمتُها الاستدعاء. طلبتْ منِّي الانتظار في الخارج. وبعد دقائق معدودة، أطلَّتْ وقالتْ لي:

- تفضَّل ادخلْ، سي حمُّودة حَسْبي في انتظارِكَ.

سي حمُّودة رجل داكن البَشرة، قصير، شَعْره جعد، عيناه ضيِّقتان كعيون الآسيويِّيْن، وعلى شفتَيْه ابتسامة. طلبَ منِّي أن أجلس، وفي جمل قصيرة كقامته، أوجز لي ما أراد أن يقول:

- سي فارس نمير، أنتَ تشتغل منذ سنوات بالوزارة، ومؤخَّراً كثُرت التقارير عن تغيُّباتكَ وتأخُّراتكَ ورُخَصكَ المَرَضِيَّة غير المُقنِعَة، وقد اجتمعتْ لجنة وزاريَّة لتدرس مشكلتكَ ومشكلات موظَّفين آخرين طبعاً، وآثرتْ ألَّا تُقَدِّمكَ إلى مجلس تأديبي في هذه المرَّة، فاكتفتْ باتِّخاذ قرار بنقلكَ للاشتغال في بلدة بَرديشة، وهي كما قد تعرف بلدة صغيرة بين سَطَّات وخريبگة.

بَرديشة! بَرديشة! ردَّدتُ هذا الاسم الغريب في داخلي، وشعرتُ ببعض الانزعاج والاستغراب في البدء، ثمَّ برغبة في الضحك أحبطتُها بسبب دماثة السَّيِّد حمُّودة حسبي.

أمَّا هو، فقد ضحك، وكأنه قام بتطبيق ما أحجمتُ أنا عن فِعله، ثمَّ أضاف: "وهنالك أمرٌ سيُعجبكَ: ستشتغل هنالك قيِّماً على مكتبة المركز الثقافي، وقد قيل لي إنَّكَ تُحبُّ الكُتُب، ويَحدُث أن تجلب معكَ كتاباً تقرؤه في مكتبكَ. المهمُّ، بعد توقيعكَ على محضر الالتحاق يوم الاثنَيْن القادم، ستبقى لبضعة أيَّام بلا عمل في بَرديشة، إذ إنَّ المكتبة ما تزال غير جاهزة تماماً، وسيتمُّ تزويدها بالكُتُب في غضون أيَّام قليلة. أتمنَّى لكَ حظَّاً طيِّباً".

نَاولني قراراً بنقلي يحمل خاتم الوزير، فأخذتُهُ منه، وطلب منِّي أن ألتحق بمقرِّ عملي "السَّابق"، أي بالوزارة، لأُوقِّع على قرار المغادرة. فاكتفيتُ بأن قلتُ له: "شكراً لكَ، سي حسبي!"، وبقي هو صامتاً، فنهضتُ من على كرسيِّي، ووضعتُ كفِّي اليمنى على وسط صدري في إشارة ودٍّ وتحيَّة، وغادرتُ المكتب.

خَرج فارس من الملحقة، وما إن انعطف يميناً، حتَّى انتفض قِطّان كانا يلعبان في ذلك المكان مُعبِّرَيْن عن غضبهما من ظهوره المُفاجِئ، وزمجرا في وجهه، وتَراجعا قليلاً من دون أن يستديرا، بحيث بقيا مُواجهَيْن له، فما إنْ ضربَ فارس الأرض بباطن فردة حذائه اليمنى حتَّى هربا وابتعدا عنه.

ابتعد فارس عن باب الملحقة ووقف، عازماً على انتظار تاكسي.

على الرَّصيف المقابل، بدتْ له امرأة تَلبَس بدلة رياضية تمشي بسرعة إلى أن اختفتْ في منعطف. لكنْ، سرعان ما يظهر شخصان سكرانان، أحدهما شديد النّحافة والآخر نحيف فحسب. النحيف جِدَّاً يُحاول أن يُسْنِد رفيقه خوفاً عليه من أن يَسقط، الأمر الذي يَجعلهما يوشكان معاً على الارتطام بالأرض، لكنَّ النّحيف جِدَّاً يَتماسك، ويبدو أنَّ لديه طاقة داخليَّة تُعَوِّض عليه ما ينقصه من قوَّة جسمانيَّة. فها هو يدفع بمَنْكَبِهِ وكتفه رفيقَه الذي مال وانحنى منجذباً بثِقَلِه كلِّه إلى أرضية الرَّصيف، فأصبح على وشك التّمدُّد فوقها. لكنَّ عمليَّة الدَّفْع المُضادِّ التي يستميتُ النّحيف جِدَّاً في الاضطلاع بها تُفلِح في إعادة رفيقه إلى وضع يتعامد فيه مُجدَّداً مع الأرض، ويعودان إلى جَرِّ أقدامهما جَرَّاً. ثمَّ ها تلك الأقدام ترتفع على التوالي، في الهواء، أكثر من اللَّازم وتقوم بحركات مَدَى كلٍّ منها ربع دائرة أو نصفها، في رقصة عجيبة مُضحِكَة، يستحيل على شخصَيْن صاحيَيْن أن يقوما بمثلها. فيا للسَّكْرة الصَّباحيَّة العجيبة، يُفَكِّر فارس!

ويشعر أنَّه مُقْدِمٌ على مغامَرة مُفاجِئة برحيله القريب عن الرِّبَاط.

ينتابه شيء من القلق، لكنه يُحِسُّ ببعض الارتياح أيضاً، لأنَّ الرُّوتين الذي اعتاد عليه ها هنا سيتبدَّد، حين يجد نفسه في بلدة لم يرها من قبل. ولا تنسَ أنَّكَ ستكون مُشرِفاً على مكتبة، يقول لنفسه. هنالك بالطَّبع ارتباطه بزهور، لكنَّ العلاقة بينهما ترسَّختْ، بحيث لم تعد قابلة لأن تتأثَّر سلبيَّاً بغياب فارس عن الرِّبَاط لفترةٍ مَّا، خاصَّة أنه سيزور هذه المدينة في نهاية كلِّ أسبوع أو بعد كلِّ أسبوعَيْن على الأكثر.

وجاء التاكسي ووقف أمامه، مُستجيباً لتلويحته.

في مبنى الوزارة، لم يتأخَّر فارس طويلاً. دخل إلى مكتب مهدي العسلي، ولم يَقْضِ فيه غير دقائق معدودة. كان هذا الأخير على عِلْم بأنَّ فارساً سينتقل إلى بلدة صغيرة. وفارس نفسه شعر بحياد غريب تجاه مهدي العسلي. لم يكن حانقاً عليه بتاتاً، بل كاد أن يشكره على دَوْره في صدور قرار الانتقال. ومرَّ فارس بالمكتب الذي توجد به زهور، فحيَّاها من شِقِّ الباب. لا داعي لأن يدخل، فهي ستلتحق به، ولا شكَّ، هذا المساء.

خرج فارس، بسرعة، كأنَّه يفرُّ من الوزارة. وتمشَّى حتَّى وَصَل إلى سينما روَيَالْ، فوقف قُبَالَتَها متأمِّلاً ملصقات أفلام، ثمَّ تابع طريقه وفي نِيَّته أن يمضي إلى مطعم قريب ليتغدَّى. فضَّل أن يقطع الشارع العريض، نازلاً نحو "باب الأحد"، حيث يعرف قلَّة من المطاعم التي تُقدِّم مأكولات تُعجِبُه. ثمَّ فكَّر: "ولِمَ لا تكون "صِقِلِّيَة" ملاذي الآن، فأنا لم أزرها منذ فترة؟!".

صاحب "مطعم صِقِلِّيَة" هو عبد السَّلام بن المكيِّ، ابن دَوَّار أولاد الطَّالب، وصديق طفولة فارس، خلال فترات من أصياف مُعيَّنة بالأخصِّ. أمَّا عبد السَّلام نفسه، فلم يكنْ قد أنهى دراسته الثَّانويَّة حين سافر إلى إيطاليا، وتنقَّلَ بين عدد من مُدُنها بائعاً للزّرابي، وبعد سنوات مِن النّشاط التّجاري هناك، قضى منها وقتاً طويلاً في صِقِلِّيَة، وجمع خلالها مالاً، عاد واشترى بضعة دكاكين في تِطْوَان، ثمَّ جاء، قبل نحو سنة ونصف، ليستقرَّ في الرِّبَاط، إثر زواجه بامرأة رِبَاطِيَّة، وأنشأ هذا المطعم المُختصَّ في السّمك وفواكه البحر، وقد أسماه "صِقِلِّيَة" ...

يَدخل فارس إلى المطعم، يراه عبد السَّلام، فيبتسم وينهض من مكانه خلف صندوق الأداء، ويأتي نحوه.

عبد السَّلام: أهلاً، فارس. كيف الأحوال؟ وأين كنتَ مختفياً؟

فارس: بخير على العموم، يا عبد السَّلام. وأنتَ، والعائلة؟

يرافقه عبد السَّلام إلى طاولة. يجلسان.

عبد السَّلام: وكيف أحوال خليل؟ رأيتُهُ مرَّة واحدة بعد وفاة المرحوم عليّ. كان قد جاء إلى هنا رُفقَة زوجته الفرنسيَّة. سيِّدة راقية وطيِّبة. وأنتَ أيضاً، لم أَرَكَ كثيراً خلال الشهور الأخيرة.

فارس: رغم أنَّنا لا نجد الوقت دائماً لزيارتكَ ها هنا، فنحن نَذْكركَ في أحاديثنا، فأنتَ صديق قديم طبعاً.

عبد السَّلام: كنتُ قد أخذتُ من خليل عنوان بيت أُخته شامة، إثر وفاة عليّ، وزرتُها هي وزوجها إبراهيم، وقدَّمتُ لهما التّعازي. شامة حزنتْ لوفاة عليّ كثيراً.

يجيء نادل، ويقف إلى جانب فارس، فينهض عبد السَّلام، ويقول: أتركك تأكل.

يطلب فارس سَلَطة وسمكة غُبَر (مِيرلان) مَشويَّة. وحين يجيئه النّادل بما طلب، يبدأ في تناوُل طعامه بأناة ... تدخل للمطعم امرأة أوربية في نحو الأربعين، قصيرة بعض الشّيء، شَعْرها الأشقر معقوص. تُصافح عبد السَّلام ويتحادثان بالإيطالية. المرأة تضحك بمَرَح، وعبد السَّلام يتكلَّم بحماس. يَنطِق الإيطالية بلُكْنَة مغربيَّة.

ينتهي فارس من الأكل. يمضي إلى اللافابو، وهو في زاوية من المطعم، محشورة في منعرج أمام المرحاض. يغسل يدَيْه. يجيء عبد السَّلام، ويطلب منه أن يعود إلى مَقْعَده، أن يبقى قليلاً. لنشربْ شاياً، يقول عبد السَّلام.

يعود فارس إلى طاولته، ومُجَدَّداً، يجلس عبد السَّلام قُبَالَتَهُ. يطلب من النّادل أن يأتيَهما بكأسي شاي.

عبد السَّلام: هنالك شخص جاء معكَ مرَّة، ومع خليل مرَّة، وبدأتُ أتعارف معه. مَرِح ويُحبُّ المُزاح. والآن، لا أتذكَّر اسمه.

فارس: أوه، اسمه عزيز ... عزيز بوسبعين.

عبد السَّلام، بشكل مُفاجِئ: لحسن الحظِّ أن خليلاً لم يدخل السّجن مع اليسارِيِّيْن، لقد كان ثوريَّاً مُتحمِّساً منذ شبابه الأوَّل ... تَعْرِف، أنا لم أنْسَكم، حتَّى في إيطاليا ... وسأحكي لكَ أمراً قد يُضحككَ ... كان لي صديقان إيطاليَّان شيوعيان، وكان أحدهما يتحدَّث أحياناً عن ابن أُخت له، زعيمٍ طلابيٍّ يساريٍّ أتذكَّر اسمه جيِّداً، كارلو سيلدو ... بصراحة، أقول لكَ ... كلَّما تحدَّث صديقي الإيطالي ذاك عن كارلو وعن تزعُّمه لمظاهرة أو إلقائه خُطبة ناريَّة، كان كارلو يكتسب في خيالي وجه خليل بوهدّي.

فارس: سألتقي بخليل وعزيز هذا المساء، وسأروي لخليل حكايتكَ مع كارلو.

عبد السَّلام: سَلِّم لي عليه كثيراً. وعلى صديقكَ الآخر أيضاً. وتذكَّر أنّ "صِقلِّيَة" وصاحبها يُرحِّبان بكم دَوْماً!

يقف فارس أمام باب مَسكَنه، ويبقى للحظة وجيزة بلا حَرَاك، وكالقَلِق. يتساءل: "يا تُرى، ماذا سأجد أمامي بعد أن أفتح الباب؟" ثمَّ يقول لنفسه: "هيَّا، افتح، وليكنْ ما يكون". وبكتفه يدفع الباب، بحركة لطيفة وئيدة، ويخطو داخل بيته. وها كلُّ شيء كما تركه.

يُحْكم إغلاق الباب من الدّاخل، ويتَّجه صوب السّرير. إنَّه مُتعَب ويرغب في التّمدُّد قليلاً. يتخفَّف من ثيابه. يمضي نحو المطبخ. يتمشَّى على الزّربية اللطيفة الملَمَس، وبعدها يسير على مربَّعات البلاط الباردة قليلاً. يرتاح لها أخمصا قدمَيْه. في المطبخ، يتناول كأساً كبيرة، ثمَّ قِنِّيْنَة الويسكي المنتصبة في هدوء فوق صينية على

النّضد الرخامي المديد. يَصُبُّ لنفسه كأساً جيِّدة. ستُشفي الغليل وزيادة. يَعود إلى الغرفة، يضع الكأس على الكومودة، يستلقي على السّرير، ويتَّكئ على مَرْفِقهِ الأيسر. يرشف من الويسكي الممزوج بالماء. يتذكَّر أنّ عبد السَّلام كان يتصوَّر أن لذلك الزّعيم الطُّلَّابيَّ الإيطاليَّ وجه خليل فيضحك. هو على موعد، هذا المساء، مع خليل وعزيز بوسبعين في حانة مارينيان. كان خليل قد زاره يوم الثّلاثاء، وقال له إنَّه وعزيزاً بوسبعين سينتظرانه في تلك الحانة مساءَ اليوم، في نحو السّابعة والنّصف.

ينهض. يجلس إلى مكتبه. يُقَلِّب أوراقاً، ثمَّ يُخرِج من إضبارة جِلْدِيَّة أظرفةً تحتوي رسائل جاءتْهُ من أماكن عدَّة في فترات ماضية. يستلُّ من بينها ظرفاً وصله ذات يومٍ من الإسكندرية، يحتوي رسالة كان قد كتبها إليه عليّ بوهدّي قُبَيل وفاته في الحادث الذي ماتت فيه أيضاً عشيقته المصريَّة ميريام، فقد كانت تقود سيَّارتها بسرعة فائقة، وانقلبت بهما.

يشعر فارس بضبابة من الحزن تُخيِّم على ذهنه. يُخرِج الرّسالة من الظَّرْف، ويضعها أمامه. يقرأ:

الإسكندريَّة، 29/ 12/ 1985

فارس صديقي،

تحيات إسكندرانيَّة حارَّة في هذا اليوم البارد، الماطر قليلاً.

أتمنَّاكَ بألف خير،

لقد بدأتُ آلفُ العيش في هذه المدينة الجميلة، وأتعوَّدُ أيضاً على وظيفتي في القنصليَّة، رغم أنَّها لا تستثيرُ لديَّ حماسة كبيرة.

صباحَ أمس السبت، تريَّضتُ بكورنيش الإسكندرية. جَرَيتُ وجريتُ. وفي المساء، تجوَّلتُ قليلاً في ميدان محمَّد عليّ برُفْقة ميريام. إنَّها حبيبتي إلى الأبد. وقد تسكَّعنا وجلسنا في مقهى يرتاده طلَّاب ومثقَّفون، وعُدنا، في سيَّارتها، إلى شُقَّتي. فهي، رغم أنَّها احتفظتْ بشُقَّتها التي كانت تَقطُن بها قبل أن نلتقيَ، تسكن معي في أغلب الأوقات. هي من عائلة قاهريَّة قِبْطِيَّة، وقد حدَّثتْني طويلاً عن أخيها لويس، وأكَّدتْ لي أنَّه سيكون شاعراً متميِّزاً، وعن أبيها، وهو ذو ميول يساريَّة. ميريام في الرَّابعة والعشرين، حاصلة على إجازة في الأدب الفرنسي، تُدَرِّس الفرنسيَّة في الثّانوي، وتُهيِّئ بحثاً بالفرنسيَّة عن السُّورياليِّيْن المصريِّيْن لِنَيل الماجستير. لها سيَّارة سبورت جميلة والكثير من الكُتُب الجيِّدة.

لقد تعرَّفتُ إليها خلال أُمسيَّة ثقافية بالمعهد الثّقافي الفرنسيّ، بعد حلولي هنا بأسبوعَيْن. كنَّا نتابع محاضرة عن "الأدب الفرنكوفوني بالمغرب الكبير والشّرق الأوسط"، ألقاها محاضر تونسيّ قادم من فرنسا، وفي نهايتها، قمتُ أنا بتدخُّل حول الشِّعْر المغربيّ الفرنكوفونيّ، وتدخَّلَ شخص آخر، ثمَّ تحدَّثتْ ميريام عن السّورياليِّيْن الفرنكوفونيِّيْن في مصر ... وكان بيني وبينها حديث بعد أن انفضَّ أغلبُ مُتتبِّعي المحاضرة، وتعارفنا. اتَّفقنا على الالتقاء مُجَدَّداً، لنُكمل حوارنا، وبدأ فيما بيننا التّآلف. ثمَّ اشتعلتْ بيننا شرارة الحُبِّ. كما ترى، فإنَّ اللحظةَ التي طالما انتظرتُها بشوق عارم، لحظةَ انبثاق الحُبِّ القويِّ في حياتي، قد حلَّتْ! ونحن نعيش عشقنا بجنون. أكيد أننا سنتزوَّج عمَّا قريب.

سَلِّمْ لي على زهور. ميريام أيضاً تُحيِّيكما، فقد حدَّثتُها عنكما، وفي

يوم ما ستزور المغرب في رُفْقتي، وتعرفانها عن كثب.

صديقكَ الأبديّ: عليّ

ملحوظة: بعد أن كتبتُ هذه الرّسالة، قبل نحو ساعة ونصف، طويتُها ووضعتُها بين صفحات مجموعة سيلڤيا پلاث الشِّعْرِيَّة "آرييل". والآن، حين أردتُ إخراجها لأضعها في ظرف بريديّ، وجدتُ أمامي - إذْ فتحتُ المجموعة - هذه الأبيات المُؤثِّرة: "عِظامي تختزن صمتاً، الحقول في البعيد / تجعل قلبي يذوب. / إنها تُهدِّد بأن تقودَني إلى سماء / بلا نجوم ولا أب". پلاثْ، يا لها من شاعرة!

***

قرأ فارس الرّسالة، ومَرَّةً أُخرى، استوقفتْهُ عبارة س. پلاث: "عِظامي تختزن صمتاً"، وعبارتها الأخرى: "إنها تُهدِّد بأن تقودَني إلى سماء / بلا نجوم ولا أب". من المعلوم أن سيلفيا پلاث ماتت مُنتحرة، ولا شكَّ أنّها كانت، من خلال تعبيرَيْها المذكورَيْن، تُشير إلى موتها القريب. فكيف جاءت هاتان العبارتان في رسالة عليّ بوهدّي، في وقت كان فيه سعيداً ومرتاحاً لمسار حياته في الإسكندريَّة؟

السّابعة وعشرون دقيقة مساء: فارس يقترب من مدخل حانة مارينيان. خلفه، المكتبة السوڤياتية. يتذكَّر فارس أنَّه اشترى من هذه الأخيرة بأثمان زهيدة، كُتُباً لماركس وللينين ولأدباء روس بالفرنسيَّة. ثمَّ يَصعد الدَّرَجَات ويدخل إلى الحانة القليلة الصَّخَب، فالزّبائن فيها

ليسوا كثيرين هذا المساء. في الصُّوَّان الزُّجّاجي الذي على يمين الدّاخل، والذي هو في مستوى ارتفاع الكونتوار، نقانق وكفتة وسفافيد لحم وسَلطات. الجالسون إلى الكونتوار أربعة فحسب. يُجيل فارس عينَيْه في القاعة، فلا يبدو له خليل أو عزيز حتَّى في أبعد الطاولات عن المدخل. يُفكِّر أنَّهَما قد يكونان في الرِّوَاق العريض الذي يبتدئ عند آخر القاعة، والذي يجب الانعطاف إليه يساراً، فهو يُشكِّلُ قاعة أصغر مُشتَقَّة من القاعة الكبيرة، لا يراها الدّاخل إلى الحانة للوَهْلَة الأولى. في ذلك الرِّوَاق الواسع، يَجد، بالفعل، صديقَيْه عزيزاً وخليلاً ومعهما امرأة شابَّة، في نحو الخامسة والعشرين. يتَّجه نحوهم. يُسَلِّم على الجماعة ويَجلس.

يُقدِّم له عزيز المرأة الشَّابَّة. إنّها سميرة الزّينبي، وهي من الدّار البيضاء، ومن هنالك جاءت معه. كانت، قبل فترة، مُنتمية إلى التنظيم اليساريّ الآخر، الذي عُرِف كتنظيم صِنو لذاك الذي انتمى إليه كلٌّ من خليل وعزيز.

سميرة الزّيني سمراء رشيقة القَدِّ، طويلة وقصيرة الشَّعْر، شفتاها غير المكتنزَتَيْن ولا الدّقيقتَيْن تنمَّان عن قوَّة العزيمة، وفي الوقت نفسه عن أنوثة رزينة. ماركسية التنظيم الذي انتمتْ إليه كانت منفتحة على التفكير القوميّ العربيّ. وهي تشرب عصير برتقال، فيما يشرب عزيز وخليل قِنِّيْنَتِي بيرة.

قال خليل، مشيراً إلى عزيز: "ستكون روايته التي تحمل عنواناً لا أتذكَّره الآن من أوائل ما سيصدر عن "منشورات بروق"، التي سأُنشئها

في غضون هذا الشّهر. يجب أن تُهنِّئني، يا فارس". وبَسط كفَّه في اتِّجاه فارس، الجالس قُبَالَتَهُ، فصَفَقها هذا الأخير بكفِّه، في حركة احتفاليَّة، وقال: "أمر رائع. تستحقُّ بالطَّبع أنْ تُهَنَّأ عليه".

وعرَّف عزيز المرأة الشَّابَّة بفارس، قائلاً: "مُثقَّف يساري. يشتغل بوزارة الثقافة. يُحبُّ الأدب وهو قارئ كبير. ربَّما يكون كاتباً أيضاً في يومٍ مَّا".

ثمَّ جاء نادل ذو نظَّارة طبِّيَّة، فطلب فارس بيرة. وقال بوسبعين، متوجِّهاً إلى خليل: "عنوان روايتي هو "زمن التِّلْقَائِيَّة"، لا تنسَ هذا العنوان، يا خليل".

قال خليل، ضاحكاً: "سأحاول، سأحاول".

لدى خليل وزوجته مطبعة، هي "مطبعة الأمل"، لكنْ، جميلٌ أن يُصبح ناشِراً، فكَّر فارس.

يتوجَّه فارس إلى عزيز: "لقد حدَّثْتني عن عمل سيرذاتيّ تكتبه، حول بدايات شبابكَ، لكنَّكَ لَم تذكر لي هذا العنوان".

يوضِّح عزيز: "إنَّه الكتاب الذي حدَّثتُكَ عنه، ولكَ فيه حضور مثلما لآخرين غيركَ، لكنْ... مع تغيير الأسماء طبعاً. أمَّا العنوان الذي انتهى إليه اختياري، فهو: "زمن التِّلْقَائِيَّة"... ويبقى بدوره قابلاً للتّعديل".

وتجيء لحظة لا يستطيع فيها فارس أن يُسيطر على سؤال يَلُوب في ذهنه، فيطرحه على سميرة. سؤاله هو عمَّا إذا كانت قد عانت

جرَّاء انتمائها السّياسي. تبتسم هي، كأنَّها لا تفهم قَصْد فارس جيِّداً. لكنَّ عزيزاً يُبادر ويجيب، مقرِّباً وجهه من فارس، وخافضاً من صوته: "لا، سميرة هي مثلنا. أفلتتْ من السّجن. حَدَث أن قضت أيَّاماً في كوميسارية بالمعاريف، ستَّة أيَّام بالتحديد، ثمَّ أُفرِجَ عنها. هي الآن خطيبتي. ولتعلمْ من الآن أنَّكَ، بالطبع، من المَدعُوِّين القلائل إلى حفل زواجنا القريب ... ههه ... القريب، يعني بعد نحو شهرَيْن لا أكثر".

يَقول فارس لعزيز وسميرة: "رائع جِدَّاً. هنيئاً لكما"، وتتَّسع ابتسامة سميرة، وتهزُّ رأسها في إشارة امتنان على التهنئة.

يُنادي خليل النّادل، وتُطْلَبُ قنان جديدة. سميرة فحسب تكتفي بالعصير الذي أمامها. فجأة، يتوجَّه فارس إلى الجماعة: "لقد أخبرَنا خليل وعزيز بالجديد لديهما، وأنا بدوري سأفعل. لقد تمَّ نقلي - بسبب التّهاون، حسبما قالوا ... ههه ... - إلى بَرديشة، حيثُ سأصبح قيِّماً على مكتبة دار الثقافة هنالك ... والغريب في هذا كلِّه هو أنيِّ لم أسمع ببَرديشة من قبل!"

تُعقِّب سميرة الزّينبي: "ولا أنا سمعتُ بها، وأنتَ، يا عزيز؟"

يجيبها: "أنا سمعتُ بها، بل وعبرتُ منها يوماً ما نحو بلدة أخرى. إنّها إحدى البلدات القريبة نسبيّاً من خريبگة".

يقول خليل: "أنا أعرفها. هي بلدة صغيرة والمسافة من كازا إليها نحو ساعة ونصف لا أكثر ... والعيش فيها ليس ممَّا يختاره الإنسان

عن طِيب خاطر، ولكنْ، إذا اضطُرَّ إليه، فتلك ليست بالكارثة ... فلا داعيَ لِأنْ تحزن، يا فارس ... يا مُتهاوِن ... هههه ... فأنتَ، على أيِّ حال، لن تبتعد عنَّا كثيراً".

وسادت لحظة صمت، تبعتْها لحظاتُ عَبٍّ وارتشاف. ثمَّ قالت سميرة، متوجِّهة إلى فارس: "على أيِّ حال، سَتُغيِّر الأجواء، وتكتشف أماكن جديدة وناساً، من دون أن تبتعد كثيراً عن الرِّبَاط ... ودون أن تنسى دعوتنا لكَ، عزيز وأنا، لحضور حفل زواجنا ...". يقول فارس: "أنا فَرِح لكما جِدّاً، وسأكون من أوائل الحاضرين".

ثمَّ توجَّه فارس لخليل وعزيز: "نسيتُ أن أُخبركما بأمر ... عبد السَّلام ولد المكيِّ يُسلِّم عليكما ... كنتُ عنده اليوم في "صِقِلِّيَة". تسأل سميرة: "كنتَ عنده اليوم في صِقِلِّيَة؟" يُجيبها: "ليست صِقِلِّيَة التي في إيــطــالــيــا ... ولكنْ مطعمُ عبد السَّلام الذي أسماه "صِقِلِّيَة"".

يقول عزيز لسميرة: "لقد تغدَّيتُ مرَّتَيْن أو ثلاثاً في ذلك المطعم، مرَّة مع فارس وخليل، ومرَّة ..." لا يُنهي عزيز جملته. يتكلَّم فارس: "لقد أَضحَكَني عبد السَّلام حقَّاً حين قال لي إنَّه في أيَّام عيشه بإيطاليا، كان له صديق يَحكي له عن زعيم طلاَّبي شيوعيٍّ من عائلته اسمه كارلو، وقال إنَّه كان، في خياله وبشكل لاإرادي، يتصوَّر أنَّ لكارلو وجه خليل ".

يَضحك خليل ويقول: "هكذا فأنا الآن اثنان، واحد في إيطاليا وواحد معكم ها هنا ". ثمَّ يُضيف، مُتحدِّثاً عن صاحب "صِقِلِّيَة": "في هذه

اللحظة، أتذكَّره في موقف عجيب. كان ذلك في أولاد الطَّالب، حين كان يافعاً. لقد كان مَرِحاً مُتشَيطِناً، يركب أشرس حمارة، فتشرع بالتَّقافز به بشِدَّة وهو يقهقه، إلى أن يَدبَّ فيه الخوف، ووقتها يُبقي فاهه مفتوحاً على سعته، وفي إحدى المرَّات أسقطتْهُ جحشة بعنف شديد، رَضَّ ظهرَه وضلوعه، وقد شعر بالألم وحاول أن يصبر ويُكابر، لكنْ، في لحظةٍ مَّا، ندَّ عنه صوتٌ عجيب: آآآآآآحْ ممممم ..."

تضحك الجماعة، وخاصَّة سميرة، التي تُطيل القهقهة. يُضيف فارس: "وهو أيضاً شُجاع. فليس سهلاً على أيٍّ كان الذّهاب إلى إيطاليا والاتِّجار هنالك بنجاح". يُعَقِّب خليل: "وكان الأقرب إلينا مِن بين فتية أولاد الطَّالب في تلك الأيَّام. عبد السَّلام كان دائماً ذكيَّاً".

تقول سميرة: "ذكريات الطفولة والصِّبَا تُبدي لكَ الأماكن التي كنتَ فيها أكثر جَمالاً ممَّا تكون عليه في الواقع. حين كنتُ مُتخوِّفة من أن أُعتقَل - وقتَها كان البوليس قد ألقوا القبض على رفاق كثيرين - فكَّرتُ أن أمضيَ لأتخفَّى في بيت خالة لي بإحدى القرى، وأُقيمَ عندها حتَّى تنحسر موجة الاعتقالات، لكنَّ أُمِّي أَنذرتْني بأنِّي سأُثير رَيْبة الناس هنالك، وهم يرهبون السّلطات، "ولا شكَّ أنَّ من بينهم مَنْ سيُبلِّغ عنكَ"، قالت أُمِّي ... قبل أن تُنبِّهني وتُنذرَني، كانت تلك القرية التي قضيتُ فيها فتراتٍ من الطّفولة، قصيرةً ولا شكَّ، تبدو لي بمثابة عالَم تسوده البراءة والأُخُوَّة ..."

ويقول عزيز بوسبعين: "تعرفون في ماذا أُفكِّر أنا الآن؟ في أطفالنا القادمِين، أنا وسميرة ...".

تضحك سميرة من الأعماق، وتتوجَّه لعزيز: "يا لكَ من مُتسرِّع، أَليس كذلك، يا جماعة؟".

يقول خليل: "وأنا، أَتعرفون ما أُفكِّر الآن فيه. أن نتعشَّى ونشرب نبيذاً، وتشرب الرفيقة سميرة ما تريد طبعاً، وذلك على حساب "منشورات بروق" ... ههه"، يُعَلِّق فارس: "دعوة طيِّبة مِن "بروق" جاءت في أوانها، فقد بدأتُ أجوع". يُضيف عزيز: "بالفعل، حان وقت الأكل".

ينادي خليل النّادل ذا النَّظَارة، ويطلب منه لائحة المأكولات. يجلب عدَّة لوائح، يوزِّعها على الجماعة. ويختار كلٌّ ما يرغب فيه.

ثمَّ يطلب خليل قِنِّيْنَة نبيذ، ويقول، مشيراً إلى سميرة: "الآنسة ستطلب مشروبا آخر". تقول سميرة: "أنا أريد أورنجينا". يُغمغم النّادل: "أوكي". يُعَقِّب فارس: "أنا لم أشربْ أورنجينا منذ نحو عشرين سنة، أي منذ كنتُ طفلاً". تقول سميرة: "أنا أُفضِّلها لأنَّها تُذكِّرني بالمرحومة أُمِّي. كانت أورنجينا تُعجبها". وتصل المأكولات. ثمَّ يتبعها النّبيذ وأورنجينا.

ومُلِئَتْ كؤوس وأُفْرِغتْ. وحلَّت السّكينة في الأذهان. وانتهوا من الأكل. ومَنْ أراد غسْلَ يديه مضى إلى اللافابو.

بعدها، التفت عزيز صوب سميرة وقال: "آن أوان الذّهاب. لا شكَّ أنهم ينتظروننا في البيت". فوالد عزيز، بعد التقاعد من عمله بخريبگة، عاد بعائلته إلى بيتهم الأوَّل بحيِّ الأقواس بالرِّبَاط.

بقي فارس وخليل وحدهما، وقال هذا الأخير: "أقترح أن يطلب كلٌّ منَّا كأس ويسكي، ثمَّ ننصرف". ردَّ عليه فارس: "وأنا أقترح أن نمضيَ معاً إلى مَسكَني، وهنالك نتناول كأساً ..."

V
زهور

الجُمُعة 11 أبريل 1986

فتحتْ زهور عينَيْها بعد إغفاءة قصيرة. إنَّها السّادسة وثلاثون دقيقة مساء. الغرفة معتمة بسبب الستارة الزّرقاء السّميكة، المرصَّعة بأزهار بيضاء، والمنسدلة على النافذة المغلقة. في الأصباح خاصَّةً، تُحبُّ زهور أن تُطِلَّ من نافذة غرفتها هاته على تلك الرّقعة من الأرض المُحاطة بأشجار ونباتات، التي يُولِيها منزل عائلة زهور الكبير ظهرَه، وتنفتح عليها، من الجانب الآخر، أبواب عمارات متحاذيات.

كان أطفال أُسَر تَقطُن بالعمارات المذكورة قد بدؤوا صخبهم في تلك الرّقعة المبلَّطة، فهم قد عادوا، إذن، بعد حصَّة المساء الدراسية، وهاهم الآن يمرحون، وربَّما يطاردون كرة أو يركضون خلف بعضهم البعض. كان ذلك الصّخب يتناهى إلى مسامع زهور، وكانت تُحبُّه. هي لم تُولَد في هذا البيت الكبير بهذه المنطقة العصريَّة من حيِّ العكَّاري، بل انتقلت إليه عائلتها وهي لا تزال طفلة في الثّانية عشرة، بعد أن تحسَّنتْ أحوال أبيها المادِّيَّة.

كانت زهور تشعر ببعض الأسى، فغداً قد تبدأ حكايتُها مع فارس في الانطماس من حياتها اليوميَّة. زهور تعرف أنَّه جاء اليوم للوزارة ووقَّع محضر المغادرة. وهي تتساءل: هل، يا تُرى، في مُستقبل قريب،

يُمكن أن تُصبح علاقتُنا بالنِّسبة إليه مُجرَّد ذكرى بالية؟ لا أعتقد ذلك. لماذا هذا الوسواس إذن؟

لقد مرَّ فارس، اليوم، من أمام مكتبها وهو في طريقه إلى مكتب العَسْلي، وحيَّاها بقبلة طبعها على سبَّابة ووسطى يمُناه، ثمَّ نفخ عليها لتطير نحوها! وقد ردَّتْ عليه زهور بحركةٍ من رأسها مرفوقة بابتسامة.

إنّها تُزمع المُضِيَّ للالتقاء به هذا المساء، ولا شكَّ أنَّها ستقضي معه الليلة. وها هي تُشعل الضَّوء وتمضي نحو دولاب الملابس، المحاذي لباب غرفتها الفسيحة، الموجودة بالطّابق الأوَّل من البيت العائليِّ الكبير. بعد قليل، تغادر الغرفة مرتدية قميصاً أزرق وجاكيتة زرقاء وبنطلون جينز. فوق الدّولاب القصير، قُرب الباب، هنالك صورة بالأسود والأبيض، في إطار فِضَّيٍّ، اجتمع فيها عدد من أفراد عائلتها، وهي تعود إلى زمن طفولة زهور. إنَّها تبدو فيها في نحو الثّامنة، واقفة بين أبيها وأُمِّها، وإلى يمين الأُمِّ، هنالك فتَّاح، أخوها الأكبر منها. فتَّاح هو الآن تاجر سيَّارات، يَقطُن بمدينة سَلاَ، ويزور العائلة من حين لآخر. أمَّا الأب، فتُوفيِّ بعد معاناة مَرَضِيَّة.

حين كانت زهور تدرس المُحاسَبة - بعد حصولها على البكالوريا - تعرَّفت إلى إسماعيل، الذي كان موظَّفاً بإدارة السِّكَك الحديديَّة، وكان مثقَّفاً، يُحِبُّ الحياة والأسفار. وتحابَّا وتزوَّجا ... وعلى غير انتظار، توقَّف قلبه عن الخفقان بشكل فُجائيٍّ ذات مساء، ومات، مُخَلّفاً في نَفْس زهور، بعد انصرام مشاعر الحزن، إعزازاً لذِكْراه.

تُفكِّر زهور في الموت الذي لَم يرحمها من مفاجآته قاصِمةِ الظَّهْر، وفجأةً تتساءل، لاإراديَّاً: "ماذا لو مات فارس عمَّا قريب؟ ماذا لو مِتُّ أنا بعد دقائق؟".

بعدها فكَّرَتْ: لا، فارس شقيٌّ، والموت يتفادى أمثاله، لكنْ، إنْ غادر ونسيَنِي؟ على أيِّ حال، فأنا سأتوجَّه هذا المساء إلى مَسكَنه. ألم تكن الإشارات التي تبادلناها من بعيد في الوزارة تأكيداً لموعدنا المسائي، لِلَيلة عِشْقيَّة قبل الوداع.

وتساءلت زهور: لكنْ، أيّ صنف من الوداع سيكون فيما بيننا؟

حقَّاً، إنهما لم يَتبادلا قطُّ وعوداً بأن يعيشا معاً طيلة الحياة! لم يُقْدِما على شيء من هذا القبيل، لكنَّ جَذوة الحُبِّ هي، ولا شكَّ، مشتعلة في نَفْس كلٍّ منهما ...

نزلتْ زهور الدَّرَج إلى الطَّابق الأرضي، وَدَلفتْ إلى الغُرفة التي كانت بها أُمُّها وخالتُها، وكانتا تضحكان حين دخلتْ عليهما. ومن جديد، استأثر بإدراك زهور ذلك الشَّبَه العجيب بين الأُختَيْن، وذلك التّباين البارز بينهما في الوقت نفسه. فقد كان لكلٍّ منهما صفاء وأَلَق خفيف في النظرة، وعينان لوزيَّتان يُخالطُ سوادَهما مسحة من البُنِّيِّ حين تُركِّزان نظرهما على شيء جاذب للاهتمام (فكَّرتْ زهور أنَّها ورثتْ عينَي أُمِّها)، كما كان للمرأتَيْن الجبين العريض نفسه الذي حلَّت به التّجاعيد دون أن تكتسحه أو تُخدِّده، والشفتان الممطوطتان قليلاً، بحيث تبدو المرأتان دائماً كأنَّهما على وشك الابتسام، أو كأنَّهما تتكتَّمان على حالٍ من المرح لا تريدان إبداءها للعِيَان. لكنَّ

الوزن كان أكثر ما تباينتا بخصوصه، ففيما كانت خالة زهور تزداد بدانة، كانت أُمُّها نحيفة حقّاً.

كانتا جالستَيْن قُرب بعضهما، وقد افترشتا أبسطة مُمدَّدة فوق الزربية السميكة المستطيلة التي تُغَطِّي أرضيَّة الغرفة، وأمامهما طاولة عليها صينيَّة، بها برَّاد شاي وكؤوس وأرغفة طريَّة وصحون صغيرة، بها زيت زيتون ومربىً وعسل. كانت الأختان تُفضِّلان اقتعاد تلك البُسُط الصّوفية المتراكبة النّاعمة على الجلوس فوق أحد السّدادير الممدودة لِصْقَ جدران الغرفة، وكانت زهور تعرف أنهما كانتا تشعران بِراحة فعلية إذْ تجلسان بتلك الطريقة، فقد ألِفَتاها مُذْ كانتا طفلتَيْن في بيت أبوَيْهما، بقرية للَّا عزيزة بإقليم شيشاوة، سنواتٍ طويلة قبل أن تجيء لطيفة إلى الرِّبَاط، لتُقيم فترة عند خالة لها، ثمَّ تتزوَّج بِحمدون (والد زهور). أمَّا أُختها، زهرة، فمتزوِّجة ولها أولاد بِالقنيطرة، وهي الآن في زيارة لأُختها.

حين أطلَّت زهور على المرأتَيْن، كانت هاتان الأخيرتان تضحكان، فقالت لهما: "أَضحِكَاني معكما أنا أيضاً". ثمَّ قالت زهور لأُمّها إنها ستخرج وقد تقضي الليل عند صاحبتها نُورَة، فاكتفتِ الأُمُّ بأن قالت: "اهتمِّي بنفسكِ، وكوني حذرة". كانت الأُمُّ تعرف نورة، فهذه الأخيرة سبق أن زارت هذا البيت رُفْقة زهور. وفكَّرت زهور أنَّ أُمَّها قد لا تثق حقّاً في أنَّها ذاهبة عند صديقتها المذكورة، بل إنها، لا شكَّ، ستشعر أنَّ وراء الأكَمَة علاقة غراميَّة مَّا. لكنْ، ألمْ تتزوَّج أُمُّها من أبيها بعد علاقة حُبٍّ؟ تساءلتْ زهور، وأجابت نفسها وهي تخرج من البيت: بالطَّبع، بالطَّبع، هذا مُؤكَّد.

فكَّرتْ زهور أنّ فارساً لن يكون بعدُ قد عاد إلى بيته. وقالتْ في نفسها: "لِم لا أمضي في تاكسي إلى مقهى مَّا، أُزجِّي فيه بعضَ الوقت أوَّلاً".

هكذا، وجدتْ نفسها، بعد نحو ثلث ساعة، تنزل من التّاكسي قرب مَقْبَرَة الشّهداء، وتتوجَّه إلى مقهى الأوداية العتيق. في طريقها إلى المقهى، اشترت صحيفة. أمَّا المقهى، فقد حرص مَنْ يتولَّى شؤونه أن يكون ذا طابع مغربي تقليدي، من حيث ملابس النُّدُل وقَلَنْسُوَاتُهُم الحمراء والدّيكور العامّ للمقهى. وفي وسطه، كان مُرشدٌ سياحيٌّ يتحدَّث إلى جمع من الألمان شكَّلوا حوله دائرة، وبعضُهم وقفوا على سلالمِ دَرَج حجريٍّ صاعد، تقابلتْ على جانبَيْه بازارات صغيرة. جلست زهور في زاوية يُمْكنها أن ترى منها جانباً من البحر. ومِنْ أجل إطلالة على المياه الزّرقاء، كان عليها أن تَحني رأسها قليلاً، فالمقهى في مكان مرتفع. إنَّها تُطِلُّ وتَلحظ في لمحة سريعة الأمواج المُنسابة في هدوء، وتشعر كأنها تنساب في أعماقها وتُنعشها ببرودتها، فيما تتنشَّق رائحة طيِّبة تنداح نحوها من أصيص الخُزَامَى الكبير، المُثبَت في زاوية، عند نهاية الجدار القصير الذي يُشكِّل حاجزاً بين المقهى ومنحدر معشوشب طويل، يهبط حتَّى منبَسَط به صخور، قريباً منه تَلصف مياه البحر - أو ما يبدو منها - بلألاء خافت مُريح للبصر وللنَّفْس.

قَضت زهور في المقهى الهادئ أكثر من ساعة، شربت خلالها عصير برتقال، ثمَّ شاياً، وقرأت نُتَفَاً من مقالات في الصحيفة التي كانا لديها. كانت غايتها تَرْك الوقت يمرُّ، وها قد تمَّ ذلك. تترك

الصّحيفة جانباً، وتؤدِّي ما عليها، ثمَّ تغادر. تمضي في طريق نازلة يَفصلها رصيف عن شارع كبير.

تُشير لتاكسي، لكنَّه يستمرُّ في طريقه دون أن يَخْفض من سرعته، وحين يقترب منها يَلُوح لها في مَقْعَدَيْه الخلفيَّيْن وجهان هَرِمَان لامرأتَيْن ضئيلتَيْن قامةً وحجماً. لكنَّ التّاكسي المُوالي كان من دون زبائن، فتوقَّف وصَعِدَتْ إليه.

كان سائق التّاكسي شخصاً قصيراً أكرش، ورغم صمته فقد كان يبدأ أحياناً في الزّحير، ووقتَها يتنحنح ويُمَرِّر كفَّه اليسرى على جمجمته المستطيلة الحليقة. وقد أَبْلَى في السّياقة بلاءً حسناً، وطلبت منه زهور أن يتوقَّف على ناصية شارع بروكسيل، قُرب الكنيسة.

حين نزلتْ، ذهبت إلى محلِّ بائع سندويتشات قريب، واشترت وجبة نقانق، لفَّها لها البائع في كيس ورقيٍّ. ثمَّ توجَّهتْ نحو مَسكَن فارس، وفي ذهنها هذا السّؤال: "هل يكون قد عاد إلى بيته الآن؟". أجابت نفسها: "لا أعتقد. سأُزَجِّي الوقت بمشاهدة ما تعرضه قناةٌ مَّا، وبالتهام هذا السّندويتش ... "

تمشَّت على الطّوار نحو الباب المنشود. كانت السيَّارات التي تمرُّ قريباً منها تبدو لها، حين تُحاذيها، كأنَّها تسير بسرعة مُفرطَة جِدّاً. لذا فقد ابتعدَت أكثر عن جانب الرّصيف القريب من الشارِع، وأكملت سيرها قريباً من صَفِّ البيوت الممتدِّ إلى يمينها.

ثمَّ حدث أمر أَضْحك زهور: تريَّثتْ سيَّارة رماديَّة من طراز بوجو

505، ومِن نافذتها الجانبيَّة أطلَّ وجه مستطيل، بارز العظام، ينطبع في وسطه شارب كَثٌّ نافر الزَّغَب إلى أعلى. وافترّتْ شفتا هذا الوجه، وانبجستْ من بينهما عبارة مُلَجْلَجة: "واشْ ما خاصّك منْ يِوَنّسَكْ آلغْزال؟" (ألَا تحتاجين مَنْ يُؤنسكِ، يا غزال؟). تفاجأتْ زهور نفسُها بضحكة ساخرة تَنِدُّ عنها إثْرَ سماعها ما قاله ذو الوجه المستطيل، فقد بعثتْ فيها هذه الكلمات شعوراً بالاندهاش السّاخر وحالاً من المَرَح، ولو أسلست القِياد لنفسِها لقالت لمُخاطِبِها: "ماذا تقول، أيُّها الكركدنُّ المُتحامق؟"، لكنَّها لم تفعل، واكتفتْ بقهقهتها الباطنيَّة.

وقفتْ زهور قُبَالَة الباب، ولاحظتْ أنْ لا ضوءَ يتسلَّل من تحته، فتأكَّدَ لها ما كانت تستشعره: فارس ليس في البيت! وضعت المِفْتاح في القُفْل، وأرادت أن تُديره لتفتحَ الباب، لكنَّ المِفْتاح لا يقوم بدورته المعتادة. وتُدير مِقْبَض القُفْل يميناً، وتدفع الباب بساعدها، فلا يُقاوم. تخطو زهور إلى الدَّاخل مُتَوَجِّسة، وتسمع خشخشة الكيس الورقيِّ حيثُ السّندويتش، فتُسارع إلى ضغط زِرِّ الكهرباء القريب من الباب، ويعمُّ الضّوء ... وها هو البيت على حاله المعهود!

تُغْلِق الباب من خلفها بمزلاج حديديٍّ عريض، وتشعر بالطّمأنينة. تضع السّندويتش على الطاولة، ثمَّ تخلع جاكتتها وتجلس.

بعدها، تمضي إلى المطبخ، وفيه تجد قِنِّيْنَة ويسكي، مليئة إلى النصف تقريباً، موضوعة على صينية فِضِّيَّة مستطيلة ذات مِقْبَضَيْن، بين اللافابو والثلَّاجة. في الثلَّاجة، هنالك طبق فواكه بحر مَقْلِيَّة. لكنْ، لديها النقانق. لِذا، تأخذ معها صحناً وشوكة وكأس ماء، على صينيَّة، وفي الغُرفة، تُفرِغ السندويتش في الصَّحن، وتَشرَع في الأكل.

بعد أن تنتهيَ من الأكل، تحمل الصّينية بما عليها إلى المطبخ. وهنالك، تُهيِّئ قهوَّة، وتحملها إلى الغرفة.

تُشعِل التلفاز، وتنتقل، بجهاز التحكُّم، إلى قناة فرنسيَّة. كانت هذه الأخيرة تَعرِض شريطاً وثائقيَّاً عنْ بلدة كارْكَاسُونْ. وضجرت زهور من التلفاز فأطفأتْه.

ثمَّ أشعلت التلفاز من جديد، وشرعت في التنقُّل بين القنوات، حتَّى توقَّفتْ عند واحدة كانت تَعرِض فيلم رعاة بقر من بطولة يُول برايْنِر، وأزعجتْها أصوات الرصاص المنطلق بصخب شديد من بضعة مُسدَّسات، فخفضت من الصّوت، وبدأتْ تتابع وقائع الفيلم.

بعد وقت، سمعت الباب يُرْطَم. كان هنالك شخص يدفع الباب بكتفه ويقرعه بقدمه، ثمَّ بدأ يتحدَّث إلى شخص آخر. تعرَّفتْ زهور على صوتِ فارس، وتذكَّرتْ أنها وجدت الباب مفتوحاً، فطبيعي أن يتوقَّع فارس أن يجده أيضاً مفتوحاً، كما كان قد تركه. فتحت زهور الباب للقادِمَيْن: فارس وصديقه خليل. إنَّها تعرف هذا الأخير منذ أيَّام "الدّار الخضراء"، كما كانت تعرف أخاه عليَّاً. قال فارس لخليل: "ها أنتَ ترى أنَّه لم يَحدُث شيء ممَّا كنتُ أتخوَّف منه". قال خليل: "قلتُ لكَ إنَّكَ ستجد بيتكَ كما تركتَهُ، وها أنتَ تجده كذلك وفيه زهور العظيمة ... دعنا نسلِّم عليها أوَّلاً".

وتبادلا التحيات مع زهور، ثمَّ ضمَّها فارس إليه وقال بنَبْرة مَرِحَة، مُتغنِّياً: "نعمْ، أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ". وأضاف، باسِماً، وهو يلامس خدَّها بظاهر كفِّه في حركة وئيدة: "ثمَّ إنَّكِ حللتِ لي مشكل المِفْتاح،

فأنا أريد أن أستنسخه ...". قالت زهور بنَبْرة فيها غضب مفتعَل: "إذن، فما يهمُّك من مجيئي هو المِفْتاح؟" ضحك فارس ورنا جانبيَّاً إليها، وكان صدرها النافر مشرئبَّاً من تحت قميصها كأنّما يتحدّاه، عارضاً عليه جولة عِشق فوريَّة، وكان جواب فارس أنْ قال في سِرِّه: "الليل طويل أمامنا، أيَّتها المرأة العزيزة". وانحنى فارس ناحيتها وقبَّل كتفها. قال: "كلَّا، لو أنَّكِ لم تجيئي الليلة لبقيتُ هنا في انتظاركِ أيَّاماً، ولَما اهتممتُ بالالتحاق بتلك البلدة ... واسمُها ... بَرديشة!". قالت زهور: "بَرديشة؟ سمعتُ عنها ... إنَّها بين خريبگة وسَطَّات ... وعلى أيِّ حال، فهي ليست بعيدة جِدَّاً عن الرِّبَاط ..." عقَّب فارس: "ليست بعيدة جِدَّاً عن الرِّبَاط، ذلك ما قاله خليل أيضاً". وأضاف: "هي بلدة صغيرة فعلاً. قال خليل إنها ليست بتاتاً بالجميلة، لكنَّها على بعد ساعة ونصف فحسب من كازا ...". كانا قد نسيا خليلاً لِلَحظات. أمَّا هو، فقد شابك أصابع يدَيْه وصمت قليلاً، قبل أن يتحدَّث بكلام العارف بجغرافيا المنطقة التي توجد بها تلك البلدة: "بَرديشة قريبة من بلدات صغيرة أخرى، مثل "بن أحمد" و"فيني" و"سِيد الذهبي" ...". وقالت زهور بين الجِدِّ والهَزْل: "اسمُ بَرديشة هذا غريب وعجيب ومُخيف قليلاً ... ههه"، وضحك خليل بدوره، بصوت عال، وقال، لِيُساند زهور فحسب: "نعم، اسمُ هذه البلدة قد يوحي بالرَّهْبَة"، وأضاف، وقد كبح قهقهة ممكنة: "لكنَّ فارساً رجل الشدائد". علَّق فارس: "ما لنا وللشّدائد يا رَجُل! سأعيش هنالك عيشة موظَّف عاديٍّ". وصمتوا جميعاً في آنٍ. وعلى شاشة التّلفاز، كان روائيٌّ فرنسيٌّ يتحدَّث عن طفولته القرويَّة، قبل أن يطرح عليه محاوره سؤالاً عن تجربته العسكرية إبَّان الحرب العالميَّة الثانية.

جلب فارس قِنِّيْنَة الويسكي من المطبخ، وثلاث كؤوس، صبَّ فيها الشراب الذّهبي اللون. كانت زهور لا تشرب أبداً أكثر من كأسَيْن. أمَّا فارس وخليل، فَيُفرِغان الكأس الأولى في جوفَيْهما بسرعة، والكؤوس التي تأتي بعدها يتعاملان معها بأناة أكبر. فجأة، يقول خليل: "أنا أيضاً أُفكِّر في أن أكتب نصَّاً قصصيَّاً. وقد أصبحت هذه الفكرة تُلِحُّ عليَّ فعلاً انطلاقاً من لحظة محدَّدة، مثيرة حقَّاً". يسأل فارس: "أيَّة لحظة تعني؟". يُوَضِّح خليل: "كانت هنالك مجموعات من الطَّلَبَة اليسارِيِّيْن المغاربة في فرنسا حينَ كنتُ بذلك البلد، وكنَّا طبعاً نلتقي ونتناقش، وكانت هنالك خلايا ... وهذا كلُّه معروف ... وحين عدتُ إلى المغرب رأيتُ واحداً من أولئك الطَّلَبَة ذات يوم في إحدى الحانات، وكان شخصاً بديناً. كان معي بتلك الحانة واحد من رفاقي الخارجين من المعتقل، فأخبرني بأنَّ البدين كان مُخبِراً مُندسَّاً بيننا في فرنسا. إلى هذا الحدِّ يبدو الأمر عاديَّاً جِدَّاً، ولكنَّ ما جعل ذلك البدين - واسمه عبد الوافي، فيما أعتقد - يثير اهتمامي أكثر فأكثر هو أني سأراه لاحقاً، مُتَّسِخ الثياب، بلحية شعثاء مديدة مُلبَّدة، حافيَ القدَمَيْن، وممدَّداً بين مَصْطَبَات حديقة صغيرة في وسط الرِّبَاط ... في تلك اللحظة فكَّرتُ بكتابة رواية عن الفترة التي عشتُها في فرنسا، أُقدِّم من خلالها أصنافاً من الشّخصيّات التي عرفتُ في تلك الأيَّام، والتّجربة التي عشناها ..." قال فارس: "وبالطبع، ستُصدِرها عن منشورات بروق"، ثمَّ أضاف، متوجِّهاً إلى زهور: "خليل سيُنشئ دار نشر" قالت زهور: "جميل جِدَّاً. أُهنِّئكَ، سي خليل". وأضافت: "لقد كثر المخبرون بشكل غريب". ثمَّ توجَّه خليل لفارس: "على أيِّ حال، فأنتَ لن تبتعد عنَّا كثيراً، رغم أنَّكَ

ستلتحق ببَرديشتكَ العجيبة! ومَنْ يدري، فلربَّما فاجأتُكَ يوماً بزيارة هنالك". قال فارس: "ولا تنسَ أنيِّ سأستمرُّ في كِرَاء هذا المَسكَن، وسآتي إلى الرِّبَاط مرَّة كلّ أسبوع أو أسبوعَيْن، وستكون لنا لقاءات". سُرَّت زهور بشكل خاصٍّ، حين علمتْ أنَّ فارساً لنْ يُفرِغ البيت، وقالت: "فكرة ممتازة" قال خليل: "الآن، عليَّ أن أعود إلى البيت. لا شكَّ أنَّ ماري- جان بدأت تقلق. هي المسؤولة في الواقع، فهي لا ترغب في مرافقتي إلى المقاهي". قال فارس: "لكنَّكَ لم تشرب سوى ثلاث كؤوس". ردَّ خليل: "والتي قبلها، هل نسيتَها؟". ضحك فارس وعَقَّب، مازحاً: "دَعْ عنكَ الماضي، واهتمَّ بالحاضر فحسب ... ههه ...". بدوره، أجاب خليل: "دَعْ عنكَ الهَزْلَ، وكُنْ جِدِّيّاً ... ههه ... ولو من حين لآخر". ثمَّ أضاف: "طابت ليلتكما". أجابه فارس وزهور في آنٍ: "طابت ليلتكَ". ورافقه فارس إلى الخارج، ثمَّ عاد وأغلق الباب بالمزلاج. إثر ذلك، سمِعا صوتَ سيَّارته وهي تتحرَّك.

اقترب فارس من زهور حتَّى التصق بها، وأحاط كتفَيْها بمعصم يُسْراه، واجتذبها نحوه. قُبلة. قُبلة أخرى. ثمَّ ثالثة. وربَّتت زهور على كتف فارس، ثمَّ انحنتْ إلى الخلف قليلاً بجِذْعها وسوَّت قميصها من جهة الكتفَيْن وقالتْ: "أنا وأنتَ، نعيش حُبّاً أخرس". وانبثقتْ ضحكة وجيزة من بين شفتَيْها اللتَيْن سرعان ما زَمَّتْهُما، كأنّها لم تستحسِنْ ما قالتْ. ثمَّ تناولت جهاز التحكُّم وأطفأت التلفاز. أمَّا فارس، فشعر بما يَشي ببعض المرارة في صوتها، وبقي مُندهِشاً ولم يقل شيئاً. فكَّر: "أنا عاطفيٌّ وإن كنتُ أستنكف من التّعبير المباشر عن ذلك". أضافتْ زهور، وكأنَّها تُريدُ أن تمنح كلامها دلالة فكاهية بعض

الشَّيء: "وما المشكل؟ الحُبُّ الأخرس يُمكن أن تكون له روعته أيضاً، أَليس كذلك؟"، وفي هذه المرَّة ضحكتْ بشكل عاديٍّ، ورشفتْ من كأسِها. قال فارس: "إنّ الحُبَّ إنْ لم يفرض نفسه في الحياة الواقعيَّة لشخصَيْن، فالحديث عنه يكون مُجرَّد ثرثرة ... معسولة، ولكنْ، جوفاء". وبصِدْق، قال فارس لزهور: "أنتِ غالية عندي، يا زهور". وقالتْ هي: "أتمنَّى ذلك. سأُحبُّ الحياة إنْ بقينا معاً". قال فارس: "بعد غد، أتوجَّه صوب بَرديشة. وسنبقى على تواصُل ونلتقي ونتدبَّر أمرنا". قالت زهور: "نعم، نعم، بالتَّأكيد". وباتِّفاق غير مُعلَن، بدآ يتهيَّآن للاندساس في السّرير.

VI
فارس

السبت 12 أبريل 1986

يستيقظ فارس وزهور في نحو التّاسعة صباحاً. فزهور لا تشتغل يوم السّبت. يُفطران. تقول إنَّها ستذهب إلى بيت أُسرتها. يقول: حتَّى أنا سأزور بيت العائلة مساءً، وربَّما أَبِيتُ هنالك حتَّى صباح الغد. يخرجان ويجلسان في مقهى. بعدها، يمضيان صوب صانع مفاتيح، ليستخرج فارس مِفْتاحاً يبقى لديه. ثمَّ يُوقِف فارس تاكسياً لزهور.

***

(فارس في بيت العائلة)

تستند كلثوم، أُمُّ فارس، بصُدْغِها الأيسر على قبضة يُسْراها التي تدلَّتْ عليها أهداب مفتولة من المنديل الذي تلفُّ به رأسها. تصبُّ القهوة، بينما ينشغل فارس بحديث جانبيٍّ مع ناصر، زوجِ تاجة. إنّ هذا الأخير يتشكَّى من مشكلات شركة الملابس الجاهزة التي يَملِكها، وقد قال إنَّه استغنى عن خمس وعشرين خيَّاطة بسبب ضعف الطَّلَب على المنتوج، وإنَّ أولئك النسوة رفعنَ عليه خمساً وعشرين دعوى قضائيَّة. كان يروي هذا لفارس وهو ينتف عَنْفَقَتَهُ بشيء من التّوتُّر. وقالت أُمُّ فارس، مُكْمِلةً حديثاً مع ابنتها: "لو أنَّ

جَدَّكِ كان قد أعطى أباكِ قِسماً من ذلك المال ومن تلك الأراضي قبل سنوات، حين كان أبوكِ قادراً على أنْ يستفيد منها، وكان في كامل صحَّته، لكان قد فعل خيراً، أمَّا أن يتركها مُجمَّدة حتَّى يرث والدُكِ نصيباً منها في وقت متأخِّر ...". كانت أُذُنا فارس تلتقطان كلماتِ الأُمِّ. وتطلَّع إلى وجهها، ولاحظ أن تجاعيدها قد تزايدت منذ وفاة أبيه. كان فارس يعلم أنَّها لا تكره جَدَّه لأبيه، ولكنَّها كانت تُطْلِق العِنَان لحسراتِها. بل إنَّه كان مُوافِقاً على ما قالتْهُ.

وبلا مُقدِّمات، سرح فارس في عالم الخيال، فتصوَّر أنّ كتاب عزيز بوسبعين قد صدر عن "منشورات بروق". فكَّر: سيكون ذلك حدثاً جميلاً بالنِّسبة إليه. وتساءل: تُرى كيف تطرَّق إلى علاقتي بوديعة؟ ثمَّ تخيَّل أنّ وديعة تُجالسهم في هذه اللحظة، وتتحدَّث إلى أُمِّه وتقول لها: "لا تهتمِّي فحسب بمسألة الإرث الذي جاء مُتأخِّراً، فأنا وابنكِ لدينا مشروع: أن نعيش معاً". ثمَّ تنبَّه فارس من تخيُّلاته الجميلة.

لقد أعاده إلى الواقع صوتُ تاجة، فقد كانت تقول للأُمِّ: "بَرديشة! بَرديشة! من الرِّبَاط إلى هذه البَرديشة التي لم أسمع بها أبداً.". وقالت الأُمُّ، باسِمةً: "جميل أنهم نقلوه إلى بَرديشة، ولمْ يُرسلوه إلى تازة أو طانطان، فبَرديشة على الأقلِّ قريبة ...".

يقول فارس: "بل كان ممكناً أن يطردوني حتَّى ...".

تقول الأُمُّ: "وتقولها بِوَجْهِك أحمر (دونما خجل)؟"

يَردُّ فارس: "هههه ... أقولها بوجهي أحمر ... ففي تلك الحالة،

كنتُ سأُنشِئ مكتبة ... ربمَّا بالاشتراك مع تاجة ... ولا ننسَ أنَّ بَرديشة جميلة ... واسمها بديع ...".

قالت تاجة، ضاحكة: "فكرة المكتبة ليست سيِّئة ... لكنَّكَ ستذهب إلى بَرديشة. بَرديشة، اسمُها جميل؟ كأنه اسمُ واحدة من بلدات الجِنِّ ...".

قال فارس باستنكار مُصطنَع: "هل توجد بلدات للجِنِّ؟ وكيف حَدث أنَّ لكِ فكرة عن أسمائها؟"

قالت الأُمُّ بمرح: "مسألة الاسم بلا أهمِّيَّة. مرَّة، مَرضتِ، يا تاجة، وأوصتْني نساء من زنقتنا أن آخذكِ إلى عيادة طبيب قريب اسمُه عبد الكريم الغُول. في الواقع، أثَّر فيَّ اسمُ الغول، وقلتُ: يا ربِّي السّلامة! لكنِّي كنتُ أعرف أنَّ توجُّساتي بسبب اسم "الغولْ" مُضحكة، فذلك الطَّبيب، بشهادة الجميع، كان يُتقِن شغله، وكان مُهذَّباً جِدَّاً".

يَنقر فارس برؤوس أصابع يُمناه على ركبته. يمَيل نحوه ناصر ويقول له: "حين تُرْفَع عليكَ دعاوى بذلك العدد، فلا بُدَّ لكَ من خمسة محامين، على الأقلِّ!"

VI
فارس

الأحد 13 أبريل 1986

إنَّها التّاسعة صباحاً. جلس فارس في مَقْعَده بتاكسيّ كبير، سَيُقلُّه ومَنْ معه إلى سَطَّات. ومِن هنالك يُكمِل إلى تلك البلدة المُسمَّاة بَرديشة. قبل الصعود إلى التّاكسي سلَّم فارس حقيبته ذات العجلات ومحفظته الكبيرة للسَّائق، ليضعهما في الصندوق الخلفي، فيما احتفظَ بمحفظة أصغر حجماً، مُعلَّقةً إلى كتفه.

كان الجوُّ في الخارج خانقاً. قال فارس، مُتأفِّفاً، وبصوت خافت جِدَّاً: "أووفّ. يا لَلصَّهْد اللايُحتمَل!". كان الآن جالساً إلى الخلف، جنب الباب الأيمن. أمامه، امرأة تَلبَس جلَّابية خضراء زيتية. القبُّ على رأسِها اتَّخذ شكلاً أسطوانياً، وهي تضع نقاباً أنزلتْهُ أسفل شفتَيْها. وإلى يسارها - بينها وبين السّائق - جلس طفل بَدين بعض الشيء، في نحو الثانية عشرة. إنه ابنها ولا شكَّ. إلى يسار فارس، هنالك شخص تجاوز السِّتِّين، طويل، يَلبَس بدلة سوداء متكمِّشة قليلاً، ويعتمر طاقية حمراء. وبين هذا الأخير والباب الأيسر، فتى سيظهر أنَّه ابنه، وشخصٌ آخر نحيف.

صَعِدَ السائق، القصير، الذي تكتسح صلعته أعلى رأسِه، وقال: "السّلام عليكم، يا بسم الله"، وانطلق التّاكسي. قال الرجل الذي

إلى جانب فارس، ذو البدلة السّوداء: "يا لَهذا الصَّهْد!"، وأخرج من كيس جِلْدِيٍّ موضوع جنب قدميه فوطة صغيرة زرقاء، ومدَّها للفتى الذي سيظهر أنَّه ابنُه، وقال له: "امسحْ جبهتَك من العَرَق، يا موسى". قال فارس في سِرِّه: "ما تلك التي بيمينكَ، يا موسى؟"، واسترق نظرةً إلى يساره، فرأى أنَّ الفوطة الزرقاء هي التي كانتْ بِيَمين موسى.

قال السائق: "هذا الصَّهْد أَطْبقَ علينا منذُ نحو ساعة فحسب ..."

عقَّبت المرأة التي أمام فارس: "ما يشاؤه الله، مرحباً به".

قال ذو البدلة السّوداء لفارس: "افتحِ النافذة قليلاً، الله يرحم والديك".

أنزل فارس زجاج النافذة قليلاً، لكنَّ ما دَخَل من هواء كان ساخناً.

ثمَّ أغفى فارس، لكنْ، سرعان ما استيقظ. كان جاره يتكلَّم، وبين عبارة وأخرى، يضحك قليلاً أو كثيراً.

يقول الجار: "ابني هذا، موسى، الله يرضى عنه. لا هَمَّ له سوى الدّراسة والرّياضة. الفرنسيَّة والرّياضيات وكُرة القَدَم. في السّنة القادمة يجتاز امتحان الباك. ليس مثل الآخر، شْعَيْبَة، الذي يسكن في الرِّبَاط مع عمَّته، والذي يَتْبع النّصارى في الزّناقي، فهو مرشد سياحي بلا أوراق أو ترخيص. مشاكله لا تنتهي.".

يتدَخَّل السّائقّ: "ما أكثر ما يكون هنالك أخوان متناقضان في كلِّ شيء. يا سبحان الله. تجد إنساناً يتَّقي الله وذا أخلاق حسنة، له أخ قاطع طريق أو نَصَّاب ... هذا هو حال الدّنيا".

يتحدَّث جار فارس مِن جديد: "مع ذلك، أطلب من الله أن يرضى عنهما معاً. عن موسى وعن شْعَيْبَة ... شْعَيْبَة مغامر ومشاكس منذ صغره. وقبل أن يذهب إلى الرِّبَاط، كان أقرانُه في سَطَّات يقولون عنه: لا أحد يضرب بقوَّة بالرأس مثل شْعَيْبَة بن المهدي الجزَّار ... فأنا جزَّار واسمي المهديّ."

يَشعر فارس بأنّ مخَّه يلفُّه ضباب ثقيل. إنَّه بالفعل مُتْعَب، فهو لم ينم البارحة جيِّداً. يقول لنفسه، بمرح لا تصنُّع فيه: "اِستَجمِعْ قواكَ. كُنْ في أتمِّ اليقَظة. بَريشة في انتظارِكَ!" كان فارس يُغالِب النعاس، فعيناه تُغمَضان تِلْقَائِيَّاً، رغماً عنه للحظة أو لحظتَيْن، لكنَّه، بِمعافَرة وعناد، يُعيد فتحهما.

يُضيف الجار ذو البدلة السّوداء، مُكْمِلاً كلامَه: "مُؤخَّراً، كان شْعَيْبَة ابني عائداً إلى بيت عمَّته، أُختي هنيَّة، وكان سَكران، وقُرْب البيت، تعارك مع بائع حلزون مسلوق، وكَسَر له شْعَيْبَة عربتَه، وتركه مُمسِكاً بأنفه النّازف. مساءَ اليوم الموالي، جاء بائعُ الحلزون ووقفَ برأس الزنقة. طَرق فتىً باب دار أُختي، وأخبرها بأنَّ بائع الحلزون ذاك يَحمل سكِّيناً، وينوي أن يطعن به شْعَيْبَة. ذهبتْ أُختي عنده وطيَّبتْ خاطره، وقالت له بأنَّ والد شْعَيْبَة سيأتي ويُؤدِّي له ثمَن عربته وما ضاع له من حلزون. ثمَّ اتَّصلتْ بي، فجئتُ إلى الرِّبَاط لأحلَّ المُشكل. وقد أدَّيتُ لبائع الحلزون ثمن عربته، وزِدتُه عليه تعويضات عن الضّربة التي أصابتْ أنفه. وقد تصالح مع شْعَيْبَة أمامي ... وَها أنا الآن عائد إلى سَطَّات حيث أسكن، بعد أنْ رُزِئتُ في مبلغ ماليٍّ ما أحوجني إليه... فشْعَيْبَة أيضاً أخذ منِّي مبلغاً ... مع هذا، فالنّقود يخلفها الله... ".

وإذ سمع فارس جاره يضحك مِن مصيبته، لم يتمالك نفسَه، فقهقه قليلاً.

عقَّبت المرأة التي أمام فارس على أقوال جاره: "أحسنتَ صنعاً. لقد حلَلتَ مُشكل ابنِك".

قال سائق التّاكسي، بِنَبْرة شَحَنها بغضب طفيف: "لكنْ، على شْعَيْبَة أن يتعقَّل".

قال جار فارس: "اسمُه الفِعليّ هو بوشعيب، لكنَّه صبح معروفاً بِشْعَيْبَة منذ صِغَره".

أمَّا فارس، فقد ثقُل رأسُه من التعب. وفجأةً، تسلَّلتْ من النّافذة نصف المفتوحة، جنبه، نَفْحَة باردة قليلاً، تَنشَّقها بِعمق، ثمَّ تَرك جفونه تنطبق رويداً رويداً.

وها هو ينظر إلى تحت. فتنبثق أمام ناظرَيْه زهور متناثرة في مساحة معشوشبة، بها بقعٌ أصبحتْ كالجرداء بمفعول الأحذية التي وَطِئتْها. كانت تلك الزّهور صفراء وزرقاء وخضراء، وعلى كلٍّ منها قطرةُ نَدىً عالقة لا تتزحزح ولا تَنشُف، فكأنَّها دمعةُ حزن ناضحة من الزّهرة نفسِها. وبعد أن تأمَّل فارس تلك المساحة المعشوشبة مُقَرْفِصاً، نهضَ والتفت يساراً فرأى باب بيته. كان البيتُ منعزلاً، لا توجد قُربه أو قُبالَته بيوت، وإنّما هو محاط بأرض خَلاَء شاسعة. يمُعن فارس النّظر إلى ما وراء البيت، فتبدو له، في البعيد، مياهُ نهر تَلْصفُ تحت شَمسٍ باهتةِ الضوء، وإذا استدار إلى الجهة المعاكسة يرى طريقاً تَمتدُّ مِنْ حيثُ هو

واقف وتستمرُّ، فَتختفي بين كُتَل من الطّين الأحمر ناتئة، عالية، لتظهر بعد ذلك مجدَّداً وهي تُحاذي ساحل بحرٍ مَّا. ينشَقُّ بابُ البيت، ثمَّ يَنفتح على سَعَته، وتخرج منه وديعة التي يبدو أنَّها دوَّشَتْ لِتوِّها، فأثرُ البَلَل لا يزال بادياً على شَعرها اللمَّاع السّواد، كما أنّ وجهَها مُتورِّد بِشكل بَيِّن. يَخطو فارس خطوة نحو وديعة ويتوقَّف، وتقترب هي منه، فيتوجَّه بشفتَيْه صوبَ خَدِّها لِيُقبِّله، لكنَّها تتحرَّك فتنطبع قُبلته على شفتَيْها. إنَّها تَلبَس حِذاءً رياضِيّاً باهت الحُمْرة، وبدلة رياضية رُمَّانيَّة اللون، مع تي - شيرت أبيض. وها هي تُحَرِّك قدميها كأنَّها ستشرع في العَدْو. وتقول لفارس: "يجب أن تبدأ في الرَّكض. وألَّا تنقطع أنفاسكَ وأنتَ تركض. اركضْ، اركضْ، اركُضْ. لن تصل إلى بَرديشة إلَّا رَكْضاً. لا قِطار يُوصِل إليها، ولا حافلة ولا تاكسي ولا طائرة. كما أنَّه من غير الممكن أن تَصل إليها عن طريق البحر. اركُضْ، يا فارس، وسأركض معكَ". ويشرع فارس في الركض في الاتِّجاه الذي يعتقد أنه سيؤدِّي به إلى تلك البلدة. وتركض معه وديعة، لكنْ، سرعان ما تختفي. فَيَحار فارس ويتمشَّى قليلاً، وإذْ يلتفت، يرى باب بيته ويمضي نحوه. البيت الآن منتظم ضمن صفِّ بيوت، في مكانه المعهود. والواقف أمامه ليس إلَّا أبوه. يَقترب منه فارس ويريد أنْ يُقبِّل يده، لكنّ الأب يبدأ في الضّحك. ثمَّ يُمسك فارساً من كتفه ويُحرِّكه برفق ... يَختفي الأب، لكنَّ يداً تستمرُّ في رَجِّ كتف فارس بِأناة، فيفتح عينَيْه. تلك كانت يد صاحب السّترة السّوداء. ويَخرج فارس من حُلْمه الذي ركض فيه طويلاً. لقد وصلوا إلى سَطَّات.

نزل الركَّاب، وقالوا لبعضهم: "على السّلامة!". فكَّر فارس في

أنْ يرتاح قليلاً في مقهى قريب، فمضى، حاملاً بيُسْراه المحفظة الكبيرة، فيما كانت يده اليمنى تجتذب خلفها الحقيبة ذات العجلات الصغيرة، ومن كتفه اليمنى تتدلَّى المحفظة الأخرى.

تمشَّى قليلاً في شارع المدينة الكبير، الذي تَدْخل منها السَّيَّارات القادمة من كازابلانكا والرِّبَاط ... وبدا له، في أحد المنعرجات، مقهى كبير جميلُ المنظر، مُحاط بسياج حديدي مصبوغ بالبنفسجيِّ. بعد الدخول عبر باب السِّيَاج، هنالك درجات تَصعدها نحو منصَّة مرتفعة فسيحة نظيفةِ الفسيفساء، تناثرتْ على سَطحها طاولات وكراسٍ.

كان فارس قد عبر من وسط سَطَّات، قبل سنوات، في حافلة. حدث ذلك في أثناء رحلةٍ مَّا. وها هو الآن في هذا المقهى، جالس إلى طاولة وقُرْبه شجرة دِفْلَى، وحواليه زبائن قليلون. يجيء النّادل، ملامحه بها احتقان يَشي بإدمانه السّهر، وربَّما المشروبات الكحولية. يبتسم عن أسنان بيضاء، لكنها ليست أسنانه الحقيقيَّة. هو حليق الرأس وبدين. تَعاطف معه فارس، وشعر بأنه سبق أن رآه في مكانٍ مَّا، وطلب منه عصير برتقال وقهوة إكسبرس.

كانتْ في الجوِّ رطوبة. وسرى هواء مُنعِش رائق. وفي الآن نفسه، دهمت خَيْشُومَي فارس رائحةُ يُودٍ قويَّة. تنبَّه إلى وجود ضِماد يَلُفُّ إبهامَ يد النادل اليمنى، وقد رَشَحت منه طبقة رقيقة حمراء من دم ممزوج بدواء سائل أحمر، وربَّما بمَرْهم ما. وانتبه النّادل إلى فارس وهو يتفرَّس في ضِمَاد إبهامه، فبادر إلى القول بأنَّ قطعة من زجاج كأس منكسرة جرحتْهُ قبل نحو ساعتَيْن.

يغيب النّادل قليلاً ويعود، ويضع أمام فارس عصير البرتقال والقهوة.

رائحة يود، دواء أحمر، دم، ضِمَاد: هذا كلُّه يُذكّره بلحظة ماضية، راسخة في ذهنه. اللحظة الماضية تعود إلى فجر بعيد. فجر يوم من سبتمبر 1973.

في فجر ذلك اليوم البعيد، أيقظه والدُه باكراً. وعلى الفور دهمتْ خَيْشُومَي فارس رائحةُ يُود قويَّة. كان أبوه قد جَرح أصبع يده ولفَّه في ضِمَاد أبيض. وكانا - الأب وفارس - سيتوجَّهان إلى خريبكَة، حيث سينتقل هذا الأخير ليدرس سنته الأخيرة بالثّانوي ويجتاز البكالوريا. تلك كانت رغبة والده الذي خاف عليه من أنْ يُنكَّل به ويُسْجَن، بعد أن علم أنَّه شارك في مُظاهرة يساريَّة. وكان الوالد قد نَقل، من قبل، مِلَفَّ الابن من ثانويَّة بالرِّبَاط كان يتابع فيها دراسته، إلى ثانويَّة (ط) بخريبكَة. وبهذه الثَّانويَّة، سيُلاقي وديعة خُفاف، وسيعيش اهتزاز الأعماق وروعة الحُبِّ المتحقِّق، قبل اختفاء وديعة من حياته. ومن جديد، ها هو يقول لنفسه: "إنَّها لا بُدَّ في مكانٍ مَّا، لكنْ، أين؟".

كان سائق الحافلة، في ذلك الفجر البعيد، في نحو الأربعين، بديناً وأصلع وعاري الرأس، وبدتْ لي صلعته متلامعة، كأنَّه دَهَنها بالزّيت. وقد ضحك كثيراً خلال حديثه المُقتضَب مع أحد الرُّكَّاب قبل أنْ يتَّخذ مكانه خلف المِقْوَد. طِيلة الطّريق، لم أُفكِّر إلَّا قليلاً في القادم من الأيَّام التي سأقضيها ساكناً عند عمِّي عبد السَّلام بخريبكَة، بل استأثرتْ بذهني أوقاتٌ مِن الماضي. هكذا عِشْتُ

مِن جديد الذّكرى التالية: نَدخل، أنا وأبي، إلى مطعم تقليدي في السّويقة بالرِّبَاط، فقد كان رائق المزاج في ذلك اليوم، ولديْه ولا شكَّ فائض من النقود، والتقاني في الطريق، قريباً من البيت، فطلب منِّي أن أُرافقه إلى مطعم نتغدَّى فيه. هكذا ركبنا تاكسياً مضى بنا إلى السّويقة. كان مرتدياً معطفه الأسود الطّويل، فالجوُّ وقتَها بارد. وعلى رأسه كانت هنالك طاقية صوفية. ونحن نقترب من باب المطعم الذي كنَّا نَقصِده، قال: "طَبْخُهم قرويٌّ بعض الشّيء وجيِّد. تُعجبني مأكولاتهم. هذا مطعم قديم، أكلتُ فيه قبل أن تُولَد، لكنَّهم جدَّدوه". كان في المطعم قلَّة من النّاس، وكان باديَ الانتماء إلى زمن قديم، لكنْ، يسودُه النّقاء. حين دخلنا، كان الموسيقار فريد الأطرش يَصدح بصوت رخيم، جَهير: "بَنَادِي عَليكْ / إسمعْ نِدايا مَعايا قبل ما أنْدهْلَك / وأحِنّ إليك / وكلّ لحظة تْفُوت من عمري تشتاقلك ...". على جدران ذلك المطعم، انتشرتْ صُوَر كثيرة لفريد الأطرش، يبدو فيها تارة وحده وأحياناً مرفوقاً بمغنِّية أو بممثِّلة، ومعه في واحدة من الصُوَر محمَّد عبد الوهَّاب. كنَّا نتغدَّى وأغاني فريد تترادف واحدة بعد الأخرى، تتخلَّلها أصواتُ زبائن وقرقعة صحون وأحاديثنا، أبي وأنا.

في مرَّات أُخرى، تغدَّينا معاً، بدعوة من أبي، في مطعمَيْن آخرَيْن. ومرَّة، اصطحبتُهُ إلى مقهى، تتبَّعنا فيه مباراة كرويَّة بين المغرب والسّنغال. وخلال جلساتنا تلك، كان يَروي لي ذكريات من طفولته القرويَّة وشبابِه كبائع أحذية في بِضعة أسواق، ثمَّ كبائع راديوهات، قبل أن يُصبح له دكَّان في براريك جوطية دَوَّار الكُورة، وبعدها سيصبح له دكَّانه الحاليّ، في قَيْسَارِيَّة، غير بعيد عن بيتنا. في إحدى المرَّات،

حَكى له عن أيَّام يفاعته بالدَّوَّار، وكيف أنَّه كان ذا شَعْر طويل، وكانت هنالك زهراء، وهي إحدى قريباته وفي مثل سنِّه، تُحِبُّ كثيراً أن تتحدَّث إليه وترافقه وهو ذاهب ليشتري شموعاً أو سُكَّراً، وكيف أنَّه كان عزيزاً عليها، وقال إنَّها كانت، أحياناً، تجذبه من شَعْره الطَّويل ... وأضاف: مرَّة، بقيتُ في الرِّبَاط تسع سنوات، لم أزُر خلالها القرية، وحين ذهبتُ إليها، قيل لي إنّ زهراء تزوَّجتْ وانتقلتْ مع زوجها إلى مدينة آسَفِي ... وخَتم أبي حكايته تلك بأنْ قال: فكما ترى، لم أكن دائماً أحلق شَعْري حتَّى لا يكاد يبقى له أثر، مثلما أفعل الآن ... كان لي شَعْر طويل في تلك الفترة ...

ثمَّ ها ذكرى ثانية - مُثيرة هذه المرَّة - تَبزُغ من بين تلافيف ذهني، فيما الحافلة تمضي في طريقها، هادئة، واثقةً من نفسها. ذكرى مثيرة للابتسام المُبَطَّن بمسحة من مرارة. ولا شكَّ أنَّ أبي لاحظ أنيِّ أَبتسم، فقد أدار رأسَه نحوي وقال: "الحمد لله أنَّ هذه الحافلة جديدة ومُريحة". أمَّا أنا، فانغمستُ في تفاصيل تلك الذّكرى، وضحكتُ في أعماقي، بالرّغم من كلِّ شيء. لقد كنتُ في نحو الرّابعة من عُمُري، وَحَدث أن اشترى أبي خروفاً لعيد الأضحى الذي لم يكن قد بقي على حلوله سوى أربعة أو خمسة أيَّام. كان خروفاً أَعْجَبَ أُمِّي، وبدا لي وديعاً، وكان كالحائر، وأتذكَّر أنيِّ أشفقتُ عليه. وجاءت جارةٌ لنا لترى "الحَوْلي"، وقد أمعنتْ فيه النّظر ثمَّ قالت للوالدة: "يا ربّ ... إنَّه ليس بالأُضحيَّة المقبولة ... انظري، إنّ عينَه هاته عوراء (وأشارتْ إليها)، ولا تجوز التّضحية بكبش أعور ..." انزعجتْ أُمِّي لدى سماعها ما قالتْهُ الجارة، وأسندتْ خدَّها إلى كفِّها اليسرى،

وبقيتْ فاتِحةً فاهها للحظة، مُحَدِّقة في العين التي أشارت إليها الجارة، ثمَّ قالتْ: "واللهِ معكِ حَقٌّ. إنَّه أعور، سيكون عليه أن يأتيَ بخروف غيره". وقد استاء أبي من ذلك الاكتشاف، وكان لا مفرَّ من أن يأتيَ بخروف آخر يَصلح أُضحيَّة، فتأمَّل وفكَّر، ثمَّ قال: "كلُّ ما كان عندي من نقود اشتريتُ به هذا الخروف المسخوط. وكما اشتريتُهُ، سأذهب به لأبيعَه". بعدها جلس وشرب شاياً، ثمَّ قام بوضع الخروف المنحوس مكتوفاً في عربة يد ذات عجلات، وحين أراد الخروج، قلتُ له: "أريد أنْ أذهب معكَ"، فلم يُبْدِ ميلاً للتّجاوب مع طلبي، فتشبَّثتُ بجيب بنطاله، فحاول التّملُّص منِّي، لكنِّي لم أستسلم، وعلى مضض منه، تركني أُرافقه ... كان ممتقعاً قليلاً، ولمَّا وصلْنا إلى ساحةٍ خالية من البيوت، فسيحةٍ، انتشر فيها عددٌ من بائعي الخرفان، وضع كرسيَّاً صغيراً كان قد جاء به معه، واقتعده، وأنزل الخروف من العربة اليدويَّة، فاستلقى هذا الأخير على جنبه، وثَغَا بصوت مُرْهَق. قال لي أبي: "إذا شعرتَ بالتَّعب، تعال واجلسْ على ركبتَيَّ"، لكنِّي لم أكن أشعر بالتّعب، وإنَّما بفرح زائد، ولذا كنتُ أقفز وأجري في دائرة حول أبي. ومِن بين المتجوِّلين في ساحة بيع الخرفان جاء بعضهم، على التّوالي، وجسّوا ظهْرَ خروف أبي، وكان من بينهم مَنْ سأل عن ثمنه. ثمَّ وقف أمامَ أبي رجلٌ طويل، نحيف، على رأسه طاقية طويلة، وسأل بدوره عن الثمن، فأجابه أبي، فطلب منه أن ينقص له قليلاً، فخَصَم له بالفعل، وكنتُ مسروراً، بل كنتُ في حال سرور شديدة، فما إنْ أدخل الرَّجُل يده في جيبه لِيُخرج النّقود حتَّى قفزتُ من مكاني ووقفتُ أمامه مباشرةً، وصِحتُ بأقصى ما أستطيع: "إنَّه أَعْوَر! إنَّه أَعْوَر!" وأشرتُ بسبَّابة يُمناي إلى عين الخروف

العوراء، فحدَّق إليها الرَّجل، وعلى الفور سَحَب يَدَه مِن جيبه من دون نُقود، وبقي كالمشدوه للحظة، ثمَّ نظر إلى أبي شَزْراً، وقال له: "أَليس عيباً عليكَ أن تُحاول بيعي هذا الخروف الأعور لأُضَحِّي به؟"، فتلعثم أبي وازداد امتقاعاً، وغمغم بكلمات غير مفهومة، ثمَّ قال: "أنا متأسِّف للأمر. لم أعرفْ أنَّه أعور إلَّا في هذه اللحظة"، ونظر الرَّجُل إليَّ، ثمَّ تفرَّس في أبي، وابتعد وكأنَّه يقول له: "وكيف عرف ابنُكَ أنَّ الخروف أعور؟". أمَّا أنا، فقد استغربتُ لجوءَ أبي إلى الكَذب، ولم أقل شيئاً. نهض أبي وحَمل كُرسيَّه، وأعاد الخروف مكتوف القوائم إلى العربة، ثمَّ قفلنا راجعَيْن إلى البيت، وأبي مُصفَرّ السَّحْنَة ومنزعج، وأنا واضع كفِّي في كفِّه إلى أن وصلنا. سألتْه أُمِّي لِمَ عاد بسرعة دون أن يتخلَّص من ذلك المتعوس ويجلب عِوَضَه خروفاً آخر، فلم يُجِبْها، وإنّما رَكَن العربة بخروفها، والتفت نحوي وزمجر بكلمات غير مفهومة، ثمَّ أمسكني مِن ياقة قميصي وجرَّني إليه ورجَّني مرَّتَيْن أو ثلاثاً، وكَالَ لي ستَّ أو سبع صفعات على القفا، ويا لها من صفعات! فَعَلا صُراخي وتدخَّلتْ أُمِّي لافتكاكي وأنا مصدوم وحزين ونُواحي يعلو ثمَّ يبدأ في الخفوت. في الواقع، لم أكنْ أتوقَّع أن آكل "قَتْلَة" متميِّزة جرَّاء قولي إنَّ الخروف أعور، فقد كان الأمر بالنِّسبة إليَّ مجرَّدَ ممازحةٍ من طَرفي للوالد، أَمْلتْها عليَّ رغبةٌ في الضَّحِك!

وصلتْ بنا الحافلة إلى خريبگة. ركبنا تاكسياً، وطلبَ أبي من سائقه أن يمضي بنا إلى زنقة السّوق، قُرب سينما لوكس. هنالك نزلنا منه، ودخلنا إلى زقاق جانبيّ، ثمَّ آخر، وفي النّهاية وصلنا إلى ساحة صغيرة، في طرف منها زنقة بلا منفذ، بها يوجد بيت العَمِّ.

استقبلَنَا العمُّ وزوجتُه للَّا فاطنة وأُمُّها العجوز (للَّا هنيَّة) - التي تُقيمُ معهما - ورحَّبوا بنا. العمُّ عبد السَّلام هو أقصر من أبي قليلاً، لا يضع عِمَامَة ولا طاقية فوق رأسه، ولا يُقَصِّر شَعْرَ رأسه إلى أقصى ما يُمكن مثل أبي، بل يَمشط شَعْرَه المتوسِّط الطّول إلى الخلف، مُعتنياً أيضاً بحلاقة لحيته، وتاركاً شارباً خفيفاً وصغيراً. إنَّه عامل بشركة الفوسفاط، لكنَّه لا يشتغل بداخل منجم، بل هو قيِّم على مُستودع للآليَّات. كنتُ أعرفه ويعرفني من قديم، يعني مِن قبْلِ حتَّى أنْ أتعلَّم النُّطق. حدَث أن زارنا مرَّات عديدة ببيتنا بالرِّبَاط، وكنَّا نحلُّ أيضاً، في بعض الأصياف، بقرية أولاد الطَّالب، فنجدُه هنالك أو يجيءُ هو بعدَنا. زاره أبي أكثرَ من مرَّة، أمَّا أنا، فلم أضعْ قدمَيَّ قطُّ ببيته في خريبگة، حتَّى جئتُ لأقيمَ عنده خلال تلك السنة الدِّراسيَّة. لقد أَشعرَني بأنِّي مُرَحَّب بي، كما أنَّه خصَّص لي غرفة منذ اليوم الثّاني لحلولي عنده. كان ببيته صالة وثلاث غُرَف. وبتلك الغرفة التي أصبحتْ لي، سيكون لديَّ مكتبي وكرسيِّي ومكتبتي الصَّغيرة المحاذية للمكتب وسرير جيِّد (لشخص واحد)، وسدادير ثلاثة موضوعة لِصْقَ الجدران، من حول طاولة مستديرة، وعلى أرضيَّة الغرفة مُدَّ بساط من نسيج صوفيٍّ، قديم ومتين. ما اشتريناه أنا وأبي وجلبناه إلى الغرفة كان: السّرير والمكتب والكرسيّ. أمَّا ما تبقَّى، فكان من قَبْل في الغرفة. حتَّى المكتبة الصّغيرة كانت موجودة، وكانت رُفوفُها شِبْه فارغة، إذْ لم تكن تحتوي إلَّا على مُجلَّدات قديمة مُتفرِّقة، عناوينُها هِي من قبيل: كتاب الرحمة في الطِّبِّ والحكمة، أو ألف ليلة وليلة، أو سيرة عنترة، أو فيروز شاه، أو سيف بن ذي يزن ... والكتاب الذي أثارني عنوانه المُطَوَّل بشكل خاصٍّ كان أيضاً من السِّيَر الشَّعبيَّة:

الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهَّاب وأبو محمَّد البطَّال وعُقبة شيخ الضَّلال وشومَدْرَس المُحتال، وبالفعل فهو من سبعة أجزاء! لكنَّ عمِّي سيضع كُتُبه تلك في كرتونة ويأخذها إلى الصّالة، تاركاً لي المكتبة، لأُرتِّب على رفوفها الخمسة الكُتُب التي لديَّ، والتي قد أقتنيها خلال السّنة الدِّراسيَّة.

حين دخلنا إلى صالة بيت عمِّي يومَ وصولنا عنده، كانتْ حماتُهُ (أمّ زوجته) منتبذةً زاوية من الغرفة الفسيحة، وأمطرتْنا بعبارات الترحيب مِن فمٍ غاب عنه مُعْظم ما كان به مِن أسنان. جلسنا وبدأ الوالد يتحادث مع العمِّ. ومضت زوجة هذا الأخير إلى المطبخ لتراقب مسار الكُسْكُس الذي تُهيِّئه. بعدها ستلتحق بنا لِتُدليَ في الحديث بدلوها. إنّها هي أيضاً من أولاد الطَّالب. وكان أبي يتوجَّه إلى عمِّي، مُبتدِئاً كلامه، في الكثير من الأحيان بِ: "خَيِّي عبد السَّلام"، بينما يستعمل العمُّ عبارة: "خُويا الهاشْمي".

يقول العمُّ، مُجيلاً نَظَره بين أبي وبيني: "لم أرَ فارساً منذ أن كنتُ عندكم في الرِّبَاط آخر مرَّة، أي قبل سنتَيْن. لقد ازداد طولاً ... كيف أحوال الدِّراسة، يا فارس؟"، ويشرح أبي للعمِّ سبب مجيئنا: "أُريد أن أُبعدَه عن المشكلات، وعن أشخاص معيَّنين في الرِّبَاط، حتَّى لا يهتمَّ سوى بدراسته ومستقبله، لِذا حصلتُ على الموافقة لِنقله إلى ثانويَّة بخريبگة، ليدرس فيها هذه السّنة، وأريده أن يقيم معكم خلالها آخَيّي عبد السَّلام، إذا لم يكن وجوده معكم سيضايقكم"، فيقول العمُّ، بتِلْقَائِيَّة: "اِلعن الشّيطان، خويا الهاشمي! فكيف يُضايقنا وهو ابنُنا. البيت كبير والحمد لله، وغرفتُه موجودة. وهو يعرف عمّه

جيِّداً". وبدورهما، رحَّبت بي المرأتان، واستشعرتُ أنا بعضَ الخجل، فبقيتُ صامتاً.

في لحظةٍ مَّا، أصبح الحديث عبارة عن جدال بين للَّا فاطنة وزوجِها، وقد جعلني طابعه الانفعاليُّ أضحك أكثر من مرَّة. فحين قال أَبي إنَّ الذي أشرف على حَفر البئر أمام جامع أولاد الطَّالب ذاتَ صيفٍ كان هو ولد السّرغيني - قال عمِّي بأنَّ ولد مسيتَّة، في ذلك الصيف نفسِه، تزوَّج ببنت البوهلالي، لكنَّ للَّا فاطنة، زوجة عمِّي، انبرتْ لزوجها: "أَسْكُووتْ آعَبْسلامْ ... ولد مسيتَّة لم يتزوَّج إلَّا بعد أن حُفِرت تلك البئر بما يزيد عن سنتَيْن". يقول أبي: "لا أستطيع أن أجزم بصدد تاريخ زواج ولد مْسيتَّة"، ويردُّ العمُّ على زوجته: "الله يهديك آفاطنة سُكْتي ..."، ثمَّ يُضيف: "ذاكرتكِ أصابها العياء حقَّاً"، وتردُّ هي، بدورها: "أَسْكوتْ آعبسلامْ الله يَهديك"، وتنهض وقد تصلَّبتْ قليلاً عَضَلاتُ وجهها، خاصَّة تلك التي بجانبَي فمها، ثمَّ تمضي إلى المطبخ لتتفقَّد البُرمة والكسكاس، وتعود بعد ذلك طلْقة الأسارير باسِمةً، وقد نَسِيتْ القضيَّة المُتنازَع عليها!

بهذه الصّورة سَيحْدُث مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، على امتداد إقامتي معهما خلال تلك السّنة، أنْ يُقَدِّم العمُّ وزوجته عرضهما الجداليّ المثير. لقد كانت غرائب عمِّي عبد السَّلام كثيرة، وكان اكتشافها يمنحني لحظات مَرَح حقيقيَّة: يَحدُث أن يدخل في جدال مع زوجته عن سَنة وفاة فلان أو فلانة من أهل أولاد الطَّالب، فيقول هو، مثلاً، إنَّها كانت سابقة بشهرَيْن على وفاة شخص آخر يَذكره بالاسم، فتنتفض للَّا فاطنة بِحيويَّة، محرِّكة سبَّابة يُمْناها للتأكيد الصّارم على ما تقول:

"ألّا آعبسلامْ ... لستَ على حقّ ... فبين تاريخي وفاتهما سنة وأكثر ..."، وينتفض العمُّ بدوره: "ها نحن سنرى ... الكَارْنِي (المفكِّرة) ليس ببعيد عنَّا"، وينهض ويمضي إلى الدّولاب المركون في زاوية من الصّالة، فيفتح بابه بمِفْتاح صغير، ويجذب إليه المصراع الأيمن، ويأخذ من فوق أحد الرّفوف مُفكِّرةً، ثمَّ يعود إلى مكانه فوق السّدّاري، ويبدأ في تقليب أوراق المُفَكِّرة التي يُخَصِّصها لتسجيل وفيات الأشخاص المعروفين من أهل أولاد الطَّالب. وحين يجد التّاريخ الذي يبحث عنه، يقرؤه بنَبْرَة المنتصِر، إن كان الصّوابُ حليفَه، أو بنَبْرَة المعتذر إن كانت للاَّ فاطنة هي التي على حقٍّ. وقد كان ذلك الكارْني مَرجعاً ذا قيمة عالية بالنِّسبة إليهما. وكان العمُّ علىَ روابط وثيقة بأولاد الطَّالب، لا من خلال زياراته لها فحسب، بل أيضاً عن طريق علاقاته مع "جالية" أولاد الطَّالب في خريبگة، أي مع الذين يَنحدرون من تلك القرية، ويشتغلون بتلك المدينة.

بِجانب دولاب الثّياب ذاك الذي كان يُخرِج منه المُفَكِّرة، كانت هنالك كرتونة كبيرة وَضَعَ فيها عمِّي كُتُبه بعد أن تنازل لي عن المكتبة. كانت الصّالة هي غرفة المعيشة، وفي الصّالة كانت تُتَابَع بعض مسلسلات التّلفاز، وأحياناً يكون التّلفاز مطفأً، وتكون زوجة العمِّ وأُمُّها جالستَيْن أرضاً، ويجلس هو القُرْفُصَاء أمامهما، فيقرأ لهما من إحدى السِّيَر الشَّعبيَّة التي تحتضنها الكرتونة الكبيرة. من العبارات التي تَسمعها منه في نلك الحالة: "وبرزَ له فارس، في الحديد غاطِسْ"، "وجَلَد به الأرض، فكاد أن يطحن عظامه"، "فصرخت صرخة عظيمة وغُشيَ عليها"، "ولمَّا أعلمتْ عاقصة الملك سيف بن ذي يزن

بالذي جرى تعجّب غاية العجب، وقال لها يا عاقصة، إذا كانت زوجتي نزلت للبحر، فأنزليني وراها"، "وقام إليه في الحال وخلَّصه مِن الشَّدِّ والاعتقال" ... وكنتُ أحياناً أنضمُّ إليهم لمشاهدة التّلفاز أو للاستماع إلى العمِّ، وأحياناً أُخرى أمضي إلى غرفتي لأُراجع الدّروس وأُنجز التمارين، أو أمضي إلى الخارج لأُدخِّن سيجارة وأتسكَّع قليلاً، فقد بدأتُ التدخين في تلك السّنة، لكنْ، لمْ أكن أُكثر منه. وكان عمِّي وزوجته قد تنبَّها إلى كوني أُدَخِّن، وكانا يتفاديان التّعليق على ذلك، فيما خلا بعض التلميحات السّريعة الخجولة، أمَّا "مي هنيّة" - هكذا كنتُ أُسمِّيها - فقد كانتْ عاطفيَّة حنوناً بإفراط، وكانتْ تُحاول ثنيي بحزم عن التّدخين، ولم يكن تعاطفها مقصوراً علينا نحن الذين نعايشها، بل كان يمتدُّ حتَّى إلى كائنات خيالية! كيف ذلك؟ كان يَحدُث أن يقرأ عمِّي من سيرةٍ مَّا قصَّةً مأساويَّة لِفتاة تُسْحَر فتُمسخُ عنزة مثلاً، أو يقرأ عبارة كالتّالية من "ألف ليلة وليلة" : "فقام اليها يجري وكان معه مِقْودُ جَمَل، فرفعه في يده، وضربها به على أكتافها، فانكبَّت بوجهها على الأرض، فجاءت حصاة من الأرض فى حاجبها فشقَّتْهُ، فسال دمُها على وجهها، فصرخت صرخة عظيمة، وغُشي عليها"، ووقتها تبدأ "مي هنيّة" تُغالب دموعها، لكنَّ تلك الدّموع تبدأ في الظهور، ثمَّ في الانحدار على وجنَتَيْها، فتقول لابنتها: "آري الزِّيفْ آ فاطْنة" (هاتي المنديل يا فاطنة)، فَتُناولها ابنتُها منديلاً، وتبدأُ هي في مَسْح دموعها، ولا يُعلِّق أحد على ما وقع. كما كان يَحدُث في أثناء مُشاهدتنا حلقةً من مسلسل أو فيلماً، أنْ يَقع للبطل أو البطلة أو إحدى الشّخصيّات أمر رهيب، فكنَّا نسمع إثْر ذلك صوتَ للاَّ هنية: "آري الزِّيفْ آ فاطنة". مع هذا، فقد كانت هذه المرأة تعرف كيف

تضحك في لحظات يطبعها مَرَح أو فَرح ... وقد كان العمُّ يقفز دائماً على الفقرات الإيروتيكية في أثناء قراءته لقصص من "ألف ليلة وليلة" أو من سيرةٍ مَّا، كما كان يُبسِّط التعابير إن كانتْ تستوجب ذلك.

في يوم وصولنا إلى خريبگة، وبعد أن تغدَّينا في بيت عمِّي واسترحْنا، قال والدي إنّ علينا، أنا وإيَّاه، أن نزور خالتي حدُّو التي تَقطُن أيضاً في تلك المدينة. هي أُخت أُمِّي، ودارُها تقع في حيِّ البيوت. سأل عمِّي إن كان سيرافقنا، فأجاب: "بالطَّبع. نذهب لنرى حدُّو ولَشْهَبْ.". قال إنَّه لم يرهما منذ أكثر من ثلاثة أشهر. إنَّه يعتبرهما من عائلته. نطرق باب بيتها وندخل. تتفاجأ وتفرح. زوجها يستقبلنا، مسروراً بزيارتنا، وابتسامتُه العريضة تُبدي فمه ككهف من لحم، فهو أدْرَد. زوجها يطلق عليه معارفه - والخالة أيضاً - اسم لَشْهَبْ، أمَّا اسمه الحقيقي، فهو موحا. وإثر دخولنا، وَضَع لَشْهَبْ طقم أسنانه بداخل فمه. يبدو أنَّه يُزيله من حين لآخر، لِيُريح فمه. الخالة حَدُّو بدينة بعض الشَّيء، وضحوك، ولها وَشْم في الجبين، عبارة عن خطوط لولبية عموديَّة ثلاث. الخالة سألتْ مُطوَّلاً عن أُختها (أُمِّي) وعن أُختي تاجة وأخي محمَّد. زوجها نحيف، عظمتا وجنتَيْه بارزتان، لطيف وقليل الكلام. يُوَزّع الشاي ويُرَحِّب بنا. يقول لي، بعد أن سمع من أبي أنيِّ سأُقيم خلال هذه السنة الدّراسيَّة في بيت عمِّي: "لا بُدَّ أن تُطِلَّ علينا من حين لآخر، يا فارس". أنا بدوري تعاطفتُ معهما. واضح أنَّهما فقيران. لقد تزوَّجا منذ سنة وأشهر فحسب. آخرَ مرَّة زارتْنا الخالة حدُّو ببيتنا بالرِّبَاط، لم تكن بعدُ متزوِّجة من لَشْهَبْ. لقد كانت مُطلَّقة مِن زوجها الأوَّل، لأنَّها عاقر، وبقيتْ بلا

زواج لنحو سنتَيْن. أمَّا زوجة لَشْهَبْ الأولى فماتت وخلَّفتْ له ابنَيْن: أحدهما يشتغل ببلجيكا ويُرسل لأبيه نقوداً كلّ شهر، والثّاني مُمَرِّض في بني ملَّال. لَشْهَبْ يَملِك محلاًّ صغيراً قريباً من بيته يبيع فيه الخضر والفواكه. شعرتُ بأُلفة تجاه الخالة وزوجها، وتجاه بيتهما أيضاً، وعرفتُ أنَّني، مستقبلاً، لن أتوانى عن زيارتهما من حين لآخر.

في تلك الأيَّام، ألفتُ بيت العمِّ وغرفتي فيه بشكل متزايد. هكذا، أصبحتْ غرفتي الجديدة تلك تبدو لي كأنَّها كانت، منذ أنْ وُجِدَتْ، قابعة في مكانها في انتظاري. أحياناً، كنتُ أشعر بالحنين إلى غُرفتي الأخرى، تلك التي في بيتنا بالرِّبَاط. وإثْر ظهور وديعة في حياتي وتَرَسُّخ علاقتنا، ستكتسب غرفتي الجديدة تلك طابعاً أكثر حميميَّة بالنِّسبة إليَّ، وستُصبح شُقَّةُ أيُّوب ملاذَنا الغراميّ، وديعة وأنا. على جُدران غرفتي ببيت العمِّ، تركتُ صُوراً كانت هنالك قبل مجيئي، وأضفتُ إليها أُخريات. الصّور التي كانت هنالك ثلاث، وهي رَسْمتان بأسلوب شعبيّ، واحدة لأبينا آدم وأُمِّنا حواء في الجنَّة، جنب شجرة التفَّاح، عاريَيْن إلَّا من وَرَقتي التّوت، والثّانية للسَّيِّد عليّ وهو قُبَالَة رأس الغول (وهذا الأخير يحمل بيده ساقه المقطوعة)، وكانت الثّالثة مُلْصقاً لفيلم هندي، يبدو فيه رَجل ذو شارب كَثٍّ يمُسك خنجراً، وامرأة بارعة الجمال تقوم برقصة ... (كانت السّينما، والأفلام الهنديَّة بشكل خاصٍّ، من هوايات عمِّي). أمَّا الصُّوَر التي أضفتُها أنا، فمنها: صورة لفيروز، واحدة لروزا لوكسمبورغ، وصُوَر لوحات لفنَّانين من المشاهير.

في غرفتي تلك كان يَحدُث أن أتحادث مع أيُّوب في الرّياضيات، أو في الماركسيَّة أو الحركة النّقابية المغربيَّة، أو عن هذا الفيلم أو ذاك،

أو عن مباريات في كُرَة القَدم. وأيُّوب هو ابنُ أُخت زوجة عمِّي، يشتغل في شركة الفوسفاط، وله واحدة من شُقق العُزَّاب (الغَرْسُونِيرات) الأنيقة القائمة بين الأشجار، بعيداً عن صخب الشّوارع، والتي تُخصِّصها إدارة الفوسفاط لعدد من أُطُرها غير المُتزوِّجين. فحين يجيء أيُّوب لزيارة منزل خالته، وبعد أن نتحادث في غرفتي - وقد نَشرب فيها قهوة أو شاياً - يمضي إلى حال سبيله أو نخرج إلى إحدى المقاهي، أو إلى قاعة سينما لنُشاهد فيلماً. كان أيُّوب يكبرني بستِّ سنوات، لكنِّي كنتُ أطولَ منه قليلاً، وكنَّا نتعامل كصديقَيْن وكَنِدَّيْن دون إيلاء اعتبار لفارق السِّنِّ ... وحلَّ مساء كنتُ جالساً خلاله في مَسكَنه، هو قُبَالَتي، وجنبه حبيبته المُعلِّمة التي سأراها لاحقاً تمرُّ في الشّارع راكبةً درَّاجة ناريَّة. كانت تلك أوَّل مرَّة أشربُ فيها بيرة ... لم أكن مرفوقاً بامرأة، وقد قال لي أيُّوب إنَّه مستعدٌّ ليمنحني مِفْتاحاً لشُقَّته إذا كانت هنالك فتاة أو امرأة أريد أن أقضيَ معها وَقْتاً طيِّباً ...

كانت رائحة اليود لا تزال في الهواء، من حول فارس، حتَّى بعد انصراف النّادل، لكنها كانتْ تَخِفّ. عاد من ذكرياته ورفع عينيه إلى سماء شاحبة الزُّرقة، كأنَّها مُبطَّنة بأسىً غامض، خفيف وعابر. فَرَك عينَيْه لِتستقبلا بارتياح أكبر الأشعَّة اللطيفة التي تنحدر نحوهما من بين غيوم شفَّافة متناثرة. وعلى الرصيف، أمامه، أثار انتباهه رجل في مبتدأ الشيخوخة، شديدُ احديداب الظَّهْر، يمشي بخطى واثقة ويجرُّ عربة يد كبيرة من ذراعَيْها اللتَيْن جعلهما تحت إبطَيْه، وينفث دخان سيجارته، والسّحابة الرمادية التي تنبعث من فمه إلى ما فوق رأسه كثيفة وقاتمة. خلفه، تسير فتاة يَصلها دخانُه، فترفع يُسْراها وتسدُّ خَيْشُومَيْها وتَتوقَّف وتُشيح بوجهها بامتعاض.

أنهى فارس قهوته، ونهض. أشار إلى النّادل بحركات من أصابع يمْناه. أدَّى ما عليه، ومنح النادل علاوة جيِّدة. شكره هذا الأخير، وألقى نظرة خاطفة على حقيبة فارس ومحفظتَيْه، وقال له:

- أعتقد أنَّكَ لستَ مُقيماً في سَطَّات، أليس كذلك؟

- لا، لا، لستُ سَطَّاتيَّاً ...

- لا تنسَ أن تزورنا ما دمتَ في سَطَّات. باقٍ هنا لوقت، فيما أعتقد؟

قال فارس إنَّه عابر مِن هذه المدينة فحسب، وإنه الآن سيتوجَّه إلى سيَّارات التاكسي الكبيرة، ليستقلَّ إحداها، في اتِّجاه بَرديشة ... واستفسر عن الطَّريق إلى التَّاكسيات التي تُقِلُّ إلى تلك البلدة.

الآن، تيقَّنتُ من أنَّ بَرديشة يَقطُنها الإنس أيضاً، قال فارس في نفسه، باسماً، بعد أن سمع صاحب تاكسي يُنادي: "ياالَّاه آصْحابْ بَرديشة، ياالَّاهْ آصْحابْ بَرديشة ...".

في هذه الطريق الصّاعدة، تناثرت مجموعات من التّاكسيات الكبيرة، تفصلها عن بعضها البعض مسافات قصيرة، فبعضها يُقِلُّ إلى خريبگة، وبعضُها إلى بَنْ أحمد أو سيدي حجَّاج ... صاحب التّاكسي المُتَّجه إلى بَرديشة يصيح من حين لآخر: بَرديشة، بَرديشة ... إنَّه شخص على أبواب الشّيخوخة، مُفَلْطَح الفكَّيْن، صَوْتُه فيه بُحَّةُ مَنْ بَلع دخاناً كثيراً، وبعينَيْه حُمْرَة. قال لفارس: "بَرديشة انْشَاعْ الله؟"، وبآليَّة، أجابه فارس: "انْشَاعْ الله". وضع صاحب التاكسي

حقيبةَ فارس ومحفظته الكبيرة في الصّندوق الخلفي، وركب فارس من الباب الخلفي المفتوح، مُمسِكاً بمحفظته الصّغرى، وقال: "السّلام عليكم"، ففي العربة، كان هنالك أربعة أشخاص غَيْرُه. ينبغي أن يَنضاف راكب آخر قبل أن يُطلِق السائق العِنَان لعربته هاته. حين يأتي الرَّاكب المُنتظَر، سيَخرج فارس ويتركه يَدْلِف ليجلس بالدّاخل، ثمَّ يعود فارس إلى مكانه، جنبَ الباب. وذلك لِئلَّا يجدَ نفسه بين راكبَيْن يضغطانه كلَّما انعرجت الطّريق أو تهزهزَ في سيره هذا التّاكسي الذي يُنذِر بتَقَلْقُل كثير.

وجاء الرّاكب المُنتظَر، وكان شيخاً نحيفاً، قصيراً، ضئيل الجسم، يُغطِّي رأسه بِقِبِّ جلَّابيته، فلم يَخرج فارس من التّاكسي كما كان قد أزمع، وإنَّما تَرك المكان الذي بجانب الباب للشيخ. ودَلَفَ السائق أخيراً، وقال: "السلام عليكم. اطلبوا السلامة".

في البدء، انطلق التّاكسي بقرقعة، ثمَّ أصبح يَصدر عنه صوتٌ كزحير الآدميِّ المُترهِّل الذي يُعاني من بدانته بشدَّة. بعد وقت، خفَّ ذلك الصوت، وأصبح للعربة العجوز دمدمة مديدة، كأنَّ فيها شكوى من الزَّمان. وفيما يخصُّ السّرعة، فإنَّها كانت تبذل جهدها لتُظهِر أنَّها ما تزال ذات عنفوانٍ مَّا. وتوفَّقتْ في أن تمضيَ بجسارة وثبات.

ندَّت عن الشيخ الضئيل الجالس جنب فارس زفرةٌ لاإراديَّة. قال سائق التاكسي: "ما بكَ، يا عمّ؟ أأنتَ بخير؟". لم يُجبِ الشيخ الضّئيل، وصمت السّائق بدوره.

شغَّل السائق كاسّيتة، فَعَلَا صوتُ فَهد بلَّان: "وَاشْرح لها/ عن

حالتي / روحي عليلة لأجلَها ..."، لكنَّ الكاسّيتة سرعان ما بدأتْ تُصدِر خشخشة، ويبدو أن شريطها تلوَّى على بعضه، فأَوقَفَها السّائق، ولم يُحِلَّ مكانَها أُخرى.

مِن النافذة التي إلى جانبه، يرى فارس بيوتاً قرويَّة تُشَكِّل مجموعات صغيرة، بينها مسافات ضئيلة، تحيط بالجدران الخارجية لكثير منها نباتات صبَّار معترشة، ترتفع لنحو مترَيْن ونصف أو أكثر. وثمَّة كلاب قابعة في أماكنها قُرب البيوت، وأبقار وأغنام، هنا وهناك، تَجوس في حقول قليلة العشب.

خيَّم الصَّمتُ داخل التّاكسي. وبعد وقت، انبرى للكلام الشيخ الضئيل. قال: "صحيح، تنزل المصيبة على رأس الإنسان كما ينزل عليه حجر لا يدري مِن أين سَقَط، فلا يعرف بماذا ابتُلِي. أنا كنتُ مرتاحاً في بيتي بسَطَّات، إلى أن جاءني الخبر بأنَّ أحدهم، ببَرديشة، قد جلب صفيحة بنزين، وصبَّها على خرفان في حظيرة صغيرة لابني لصيقةٍ ببيته، وأضرم النّار في الخرفان. وَلَدي الآن مريض بسبب ما حدث ..."

قال أحد الشّخصَينْ الجالسَيْن بجانب السائق: "وَقَعَ ذلك فعلاً. الذي أشعل النار في الأغنام كان عندنا في الكُوْمِيْسَارِيَّة، وقد قدَّمناه إلى المحكمة بسَطَّات. سيكون الحُكم عليه قاسياً". تَلَتْ ذلك تعليقات، وبد أنّ الشخصَيْن الجالسَيْن إلى جانب السائق كانا مُفتِّشَي شُرطة.

فجأةً قال جارُ فارس الآخر، مُتوجِّهاً بكلامه إلى الشَّخصَيْن

الأماميَّيْن، وضاحكاً: "سَبق أن كنتُ عندكم هناك ... عند الشرطة القضائية". "وما الذي كنتَ تفعله عندنا؟". أجاب: "كنتُ مُتَّهَماً بِشراء المسروق ... إذ حَدَثَ أن اشتريتُ لشقيق زوجتي درَّاجة ناريَّة كبيرة من أحدهم، وهنالك مَن ادَّعى أنَّ الذي باعها لي كان قد سرقها منه ...". يقول كلامه هذا، ثمَّ يَضحك، بل يُقهقه ويُعْدي مُفتِّشَي الشرطة والسّائق وفارساً أيضاً، فيقهقهون مثله.

ينعطف التّاكسي يميناً، فتستثير عجلتاه اليُمنيان اللتان تنغمسان في تراب قارعة الطريق عاصفة صغيرة من الغبار، تتصاعد ذَرَّات ترابها الدّقيقة في كتلة أسطوانية شهباء. ثمَّ ها هي سكَّة حديد يقطعها التّاكسي دونما حاجة إلى أن يتوقَّف.

ينسى فارس للحظة وجيزة أين يوجد. يتنبَّه إلى كونه نسي أين هو. يعلو شخير أحد الرُّكَّاب، فيضحك الجميع، حتَّى الشّيخ الحزين. يُوقِظُهُ جاره، قائلاً: "سبحان الله، سبحان الله". يستيقظ الرَّجُل وتصدر عنه غمغمات. يقول له سائق التّاكسي: "أردتُ تشغيل كاسّيتة، وكانت غير جيِّدة، لكنكَ عوَّضتَ علينا الموسيقى بالشّخير ... ". يُطْلِق المَعْنيُّ بالأمر ضحكةً خفيفة، لكنَّها مَسمُوعة.

ثمَّ يُعَرِّج التّاكسي يميناً، وَيَمْضي في طَريق مُنحدرة. في لحظةٍ مَّا، يَرى فارس يافطةً مَعدِنيَّة صَدِئة، مَكتُوب عليها بحروف غليظة متأكِّلة: "بَرديشة تُرَحِّب بكم". اليافطة المعدنية مُعوجّ جانبها الأيسر، كأنَّما طواه ساعِد ذو قوَّة غير عاديَّة. ترحيبُها مشكوكٌ فيه، بل قد يَعني عكسَ معناه الظّاهر، يُفكِّر فارس ويبتسم. يقول لِنفسه: كُنْ متفائلاً،

يا هذا. يَسأل فارس عمَّا إذا كان هنالك أوطيلات في بَرديشة. عندها يضحك السائق بمرح فائق. لا أوطيلات ها هنا، يُجيبه. كان التّاكسي ينزل الآن طريقاً عليها بُقَع متفرِّقة مِن بَقايا إسفلت فحسب. وينعطف إلى اليسار، متَّجهاً إلى ساحة عريضة في مدخل بَرديشة. ثمَّ ها هي بيوت البلدة تتجلَّى، يَرين عليها اللون الرّماديّ.

يتوقَّف التّاكسي. لقد وصلوا. يتبادلون عبارات ودٍّ ومجاملة. السّائق يبدو مرتاحاً لانتهاء الرّحلة. يقول: على سلامتكم. الآن أمضي لأشرب قهوة. ينزل الرُّكَّاب ويتفرَّقون.

طابور تاكسيات كبيرة بيضاء ينتظم جنب سور قصير. كلٌّ منها ينتظر دَوْره للنّداء على الرُّكَّاب الذين سيُقِلُّهم، إلى خريبگة أو سَطَّات أو برّشيد أو كازا ... يُولِي فارس التّاكسيات ظَهْره، ويتمشَّى في الساحة التي يَحُدُّها من الطَّرَف المقابل له صفُّ دكاكين. إسفلت الساحة تنتشر فيه بقع مُحَفَّرة. بنزين داكن قديم تَجمَّد وترسَّخت بقعه الكبيرة هنا وهناك. قُرب صفِّ الدّكاكين، بائع سردين مقليٍّ يحرِّك سفُّوده الكبير معقوف الطَّرَف في أرجاء مقلاة كبيرة، موضوعة على فرن فوق سطح عربة يد. إنَّه يَقلي السّردين وأيضاً البطاطا المعقودة بالبيض وشرائحَ باذنجان وفلفلاً أخضر. حول بسطته فَتَيان اثنان وكهل وامرأة مخضَّبةُ اليد اليُمنى بلون حِنَّاء قاتم، أصابعُها دقيقة جِدَّاً. الكهل يَلبَس جُبَّة خضراء، ويمضغ في صمت. الفَتَيان يتكلَّمان ويضحكان. حين انضمَّ فارس إلى المُحيطين بِبَسْطة بائع السَّردين، سادتْ لحظةُ صمت، تطلَّع خلالها الواقفون إلى الوافد الجديد. كان واضحاً أنه غريب عن البلدة. ثمَّ سرعان ما أغفلوه، إلَّا البائع الذي ابتسم في

وجهه. وَضَع فارس محفظَتَيْه جَنْب الحقيبة، وطلب من البائع سردينات أربعاً وشريحَتَي باذنجان، فسأله البائع: "في نصف خبزة أم في صحن؟". أجابه فارس بأنَّ الأمر سِيَّان بالنِّسبة إليه، ثمَّ سأله عن موقف قريب للتّاكسيات الصغيرة، المُفترَض أنها تتولَّى النَّقْل بداخل بَرديشة. ضحكَ بائعُ السمك وأَوْضح لفارس أنَّه لا توجد في بَرديشة تاكسيَّات صغيرة، وإنَّما يُوجَدُ محلَّها ما يُسَمَّى بالخطَّافة. هؤلاء الخطَّافة هم ذَوُو سيَّارات تقوم بعمل التّاكسيات الصغيرة داخل بَرديشة، بل قد تنقلكَ، بمقابل طبعاً، حتَّى من بَرديشة إلى بلدة قريبة. والتفت بائع السّردين يميناً، وأشار إلى ما وراء صفِّ الدّكاكين: "السّاحة التي تقف فيها سيَّارات الخطَّافة هي قريبة. تتجاوز صفَّ الدّكاكين هذا، وتراها أمامكَ."

رسالة من فارس إلى أخيه محمَّد

الاثنَيْن 14-4-1986

أخي محمَّد،

أجمل التحيات من بَرديشة،

جميل منكَ أن تكتب إليَّ من حين إلى آخر، وتُخبِرَني عن مستجدَّات حياتكَ بفرنسا. أقرأ رسائلكَ بفرح وارتياح، وإن كنتُ أتأخَّر في الجواب عنها، فلأنِّي أصبحتُ شبه فاقد للسيطرة على وقتي وعلى حياتي اليوميَّة. في رسالتكَ الأخيرة، حدَّثتَني عن علاقتكَ الجديدة مع ممثِّلة مسرح تونسيَّة، وشعرتُ من كلامكَ أنَّكما تعيشان ارتباطاً عاطفيَّاً قويَّاً، وتتفاهمان جيِّداً. أنا مسرور لكَ حقَّاً. ارتيادُكَ معارض الفنَّانين ودُوْر السِّينما وقراءاتكَ، هذا كلُّه بديع، ويَنُمُّ عن توقكَ إلى توسيع آفاق حياتكَ من خلال ما هو جماليّ وإبداعيّ، وما يُسعدني حقَّاً هو انعدام ميلكَ إلى التَّدخين أو الشُّرْب، فالعائلة قد أدَّتْ ضريبتها لهاتَيْن الآفَتَيْن من خلالي، وما أزال أحلم بثورة على ذاتي أنفكُّ من خلالها من هذا الدخان الذي مَلَلْتُهُ.

أكاد أشعر أنَّكَ تتوجَّه إليَّ بالسّؤال: "وبَرديشة هاته، هي ماذا؟"

بَرديشة، يا أخي محمَّد، هي بلدة صغيرة، وإن قلتُ إنَّها فقيرة وغيرُ معتنىً بمظهرها، فلن أكون إلَّا صادقاً. لقد وصلتُ إليها صبيحةَ أمس. هي قريبة من سَطَّات، من جانب، ومن خريبگة من

جانب آخر ...

بالمقارنة مع مدينة جميلة، إذا ما تصوَّرناها ممثَّلةً بامرأة جميلة، أنيقة، ملامحُها تَنُمُّ عن حياة مُنعَّمة، فَبرديشة ستكون مثل شابَّة فقيرة، ثيابُها نصفُ بالية، وهي نحيفة بارزة عظام الوجه قليلاً، وعلى شَعْرها غبار. مع هذا، فبعد وصولي إليها، لم أشعر بما يُسمَّى الاغتراب.

لقد تقرَّر نَقْلي إلى هنا لأسباب تأديبية، ويمكنكَ تخيُّل هذا ... هِهِه ... والآن، ها أنا في الغرفة الكبيرة بالبيت الذي اكتريتُهُ بالأمس في هذه البلدة. بهذا البيت غرفتان ومطبخ وحمَّام. الغرفة الصَّغيرة فارغة تماماً إلَّا من مسامير على الجدران، متواجهة برؤوسها المفلطحة، أتركُها كما وجدتُها. والغرفة الكبيرة هي التي جلبتُ إليها أثاثاً، وأنا فيها الآن، أكتب إليكَ، جالساً إلى مكتبي. مَسكَني في الطَّابق الأرضيِّ، وفي الطّابق الأوَّل تسكن صاحبته، وهي أرملة متقدِّمة في السِّنِّ.

سأشتغل قيِّماً على مكتبة المركز الثّقافي بهذه البلدة، لكنَّ المكتبة لن تكون جاهزة إلَّا بعد أيَّام. نحن ننتظر وصول الكُتُب. لا أُخفيكَ أنِّي أَشعر بالتّوق إلى اللحظة التي ستكون فيها رُفوف مبنى المكتبة قد شُحِنتْ كُتُباً. في انتظار ذلك، سأُزَجِّي الوقت كيفما اتَّفق في بَرديشة. لقد استغربتْ كلٌّ مِن أُمِّي وتاجة أمر انتقالي إلى هنا، بل إنَّ تاجة قالت إنَّ هذه البلدة تبدو - من اسْمها - كأنَّها مِن مواطن الجِنِّ! هِهِه ... لا شكَّ أنَّها تعمَّدت التَّهويل، مِن باب المُشاكسة ...

ستلاحظ أنَّ عنوانيَ المكتوب على ظَهْر ظرف هذه الرّسالة ليس إلَّا عنوان بَيتنا بالرِّبَاط، فأنا لا أعرف بعدُ عنوان بَيتي ها هنا!

هذه رسالة قصيرة فحسب، لأقول لكَ إنِّي بخير. أُنهي رسالتي بعبارة كانتْ مشهورة وشعبيَّة في مراسلات أيَّام زمان: كلُّنا بخير وعلى خير ولا ينقصنا إلَّا النَّظَر في وجهكَ العزيز! أَعني أنَّ الوالدة وكذلك تاجة وزوجها هم في أحسن حال.

أخوكَ الذي يُعِزُّكَ، فارس.

الاثنَيْن 14-4-1986

إنّي الآن في الغرفة الكبيرة من البَيت الذي أَقْطن به منذ أمس ببَرديشة. طلاء جدرانها أصفر باهت. لقد جلبتُ معي ما يكفي مِن الكُتُب، لئلاَّ أعاني من الفراغ في هذه البلدة. أمَّا الأثاث، فاشتريتُهُ بالأمس: مُوكيت مفروشة على ثُلثَي مساحة الغرفة، السّرير جنب جدار، في أبعد مكان عن الباب: مَرتبة جيِّدة على هيكل من خشب. فوق السّرير شرشفان وأغطية ووسادتان. قُبَالَتَه، في الطرف الآخر من الغرفة: كرسيٌّ ومكتب كبير، فوق المكتب كُتُب مصفوفة في مجموعات مُتحاذية، إضافة إلى المحفظة الصّغيرة، وجنبَ قائمتَيْه اليُسرَيَيْن، المحفظة الكبيرة والحقيبة. هنالك أيضاً منضدة صفراء، مستطيلة، عالية، قُرب النافذة التي تُطِلُّ على الخارج، جنبها كرسيٌّ، وفوقها مسجِّلة وكاسيتات وكتاب ... وبعض ثيابي! بقيَّة الثياب في دولاب صغير لِصق الجدار المقابل للنافذة، ومنها ما لا يزال في الحقيبة! التّلفاز؟ لم أشتره بعد.

هذا البيت الذي أسكنُ فيه يُوجَد في نهاية عَقبة صاعدة تدريجيَّاً من وسط البلدة، وفي طرف قَصِيٍّ من البلدة أيضاً. نافذة هذه الغرفة هي الوحيدة في هذا البيت التي تُطِلُّ على الخارج. قبل قليل، أطللتُ منها، وكانت هنالك قُبَّرَات ثلاث صامتات على سلك

كهربائي، ثمَّ أطلقتْ واحدةٌ منهنَّ صفيراً وجيزاً، ففعلتْ مثلها رفيقتاها، وحلَّقنَ إلى البعيد. أَرْتفق حافَّةَ النّافذة وأمام ناظرَيَّ تمتدُّ أرضٌ فسيحة بِلا مَبان، وخلفها، في البعيد، أرضٌ تُحرَث فيما بدا لي، إلى جانبها بيت قرويٍّ كبير، قُربه أبقار تحيط بها تلك الطيور التي نُسمِّيها "طير بقر". لستُ بعيداً عن عالَم القرية، ها هنا. إلى يسار ذلك المَشهد القرويِّ، وأقربَ منه إليَّ، بيوت تنتمي إلى بَرديشة - المدينة.

إثر وصولي أمس، مضيتُ صوب الخَطَّافة الواقفين قُرب سيَّاراتهم، فتقدَّم واحد منهم نحوي. إنَّه شخصٌ طويل، ممتلئ الجسم، ذو عِمَامَة صفراء وبيضاء تظهر من تحتها ذوائب شَعْر طويل، خالطه الشَّيْب، يَلبَس جلاَّبية داكنة الحُمْرَة، ويبتسم بسرور وارتياح. ابتسامته تقول أشياء كثيرة، مِنها أنَّه خَبَر الحياة ولم تعد له آمال عِراض، كما أنَّه ليس ساخطاً على الدّنيا، بل هو يَختزن طاقةً من المَرح والسّخرية تتحدَّى تقلُّبات الأيَّام. هذا ما فهمتُهُ من سَحْنته وابتسامته. وقد دعاني إلى الرّكوب معه، لأنَّه صاحب الدَّوْر، وأضاف: "لم ألتحق بالجماعة إلَّا قبل دقائق، بعد أن أَقَلَّ الآخرون عدداً وافراً من الزّبائن ... كانوا يشتغلون وكنتُ لا أزال أشخر ...".

كانت سيَّارته زرقاء، من نوع رونو 12. كانت في حال حسنة، وبدا لي أنّ كلَّ الخَطَّافة كانوا يعتنون بمظهر سيَّاراتهم، لكنَّ بعضاً منها كانت متهالِكاً إلى حدٍّ مَّا.

- إلى أين، إن شاء الله؟ سألني ذلك الشّخص.

قلتُ له إنيّ وافد للتوِّ إلى بَرديشة، وأعلم أنَّه لا أوطيلات فيها، ولذا أودُّ لو نمضي إلى وكالة للكِرَاء أو محلّ سمسار لأكتريَ بيتاً.

أجابني: سأمضي بكَ مباشرة إلى امرأة لها بيت للكِرَاء.

إثْر ذلك، بدأ يتكلَّم، ومن حين لآخر يضحك أو يقهقه حتَّى. قال إنَّ اسمَه حَمَّا (بتفخيم الميم). قال إنَّه عادَ من بلجيكا منذ ستَّة أشهر. قبل ذلك، كان قد أمضى ثلاثة أشهر في السّجن، وَحَكموا عليه أيضاً بمغادرة بلجيكا لمدَّة ثلاث سنوات. السّبب؟ كان قد لَكَمَ صهره البلجيكي (والد زوجته) وهو (حمَّا) في حالة سُكْر، ومن دون أن يتعمَّد ذلك، كَسَر له أنفه. قال إنَّ صهرَه سامحه أمام المَحكمة، وأضاف أنَّه اضطرَّ إلى تطليق زوجته، وأنه لا يزال يُحبُّها وتُحبُّه ...

مَضينا في طريق صاعدة، ووصلنا إلى أعلاها، حيثُ فسحة من الأرض مرتفعة، بها أزقَّة وبيوت. بهذه المساكن تنتهي بَرديشة من هذه الجهة. أوقفَ حمَّا سيَّارته، جنب بناية بها بيت في الطابق الأرضي وآخر في الطابق الأوَّل، وأمامها أرضٌ خَلَاء. طَرَقَ باباً أخضر، فخرجتْ منه امرأة ستِّينيَّة ومعها رجل في نحو الثّلاثين، سأعرف أنَّه ابنُها. ذكَّرتْني المرأة - من حيثُ طريقتها في الكلام - بنساء في القرية البعيدة التي هي مَسقَط رأس أبي. المرأة تسكن في الطّابق الأوَّل، وإلى جانب باب بيتها بابٌ آخر، باهت الخُضْرَة أيضاً، فتحتْهُ لي، فقمتُ بجولة في بيت الطّابق الأرضي، ثمَّ اكتريتُهُ بمبلغ مقبول. أردتُ أنْ أؤدِّيَ لِحَمَّا ما عليَّ وأُودِّعه، لكنَّه قال: "ستكون ولا شكَّ بحاجة إلى أثاث، ويُمكنني أن آخذكَ إلى محلِّ شخص من معارفي، تشتري منه بأثمان مقبولة". وقد تمَّ ذلك.

في صباح اليوم (الاثنَيْن)، التحقتُ بمقرِّ عملي. إنَّه قريب من مُديريَّة الضّرائب، من جهة، ومن الكُومِيْسَارِيَّة (مخفر الشّرطة) من الجهة المعاكسة، بشارع النّصر. وكما قيل لي، فإنَّ مركز بَرديشة الثّقافي لن يكون جاهزاً كُلِّيَّةً لأن يُفتَح ويَشرع في الاشتغال إلَّا بعد أيَّام. في أعلى بَوَّابته الكبيرة، يافطة عريضة مُقوَّسة كُتِب عليها: "وزارة الثقافة"، بخطٍّ صغير نِسبيَّاً، وتحتها، بخطٍّ أكبر: "دار الثقافة" (بالعربيَّة والفرنسيَّة). دخلتُ من البَوَّابة المذكورة، ولم يعسر عليَّ العثور على مكتب المدير. بداخله، استقبلني شخص أسمر، نصف أصلع، عريض الجبين، قصير وأفطس الأنف، وقور وودود. قال لي إنَّ اسمه جعفر سَنْدو. قدَّمتُ له القرار الوزاريّ بنقلي إلى بَرديشة، فقال: "مرحباً بكَ معنا، أستاذ فارس. ستكون المشرف على المكتبة. إنَّها جاهزة ... تقريباً. أعني، ما ينقصها هو رفوف الحجرة الصغيرة - فرفوف الحجرة الكبيرة جاهزة - والكُتُب هي في طريقها إلينا. المهمُّ: ستكون رفوف الحجرة الصغيرة جاهزة مساء اليوم، وستصلنا الكُتُب يوم الاثنَيْن القادم. مِن الآن حتَّى ذلك الوقت، يَكفي أن تُطِلَّ علينا، من حين لآخر، يا أستاذ فارس".

بعد أن غادر فارس مندوبيَّة وزارة الثقافية، وقام بجولة قصيرة، دخل مطعماً صغيراً في نحو الثَّانية عشرة، وتناول غداء خفيفاً، ثمَّ عاد إلى بيته، فهيَّأ لنفسه قهوة، وكتب رسالة إلى أخيه مُحَمّد.

الآن، تجاوزت السّاعة الثّالثة قليلاً. سَيَخرج ويتعرَّف أكثر على بَرديشة. سيتوجَّه، أوَّلاً، إلى مكتب البريد، ليبعث برسالته.

وها هو يُغادر البيت. إلى يمينه، تمتدُّ أرضٌ خَلَاء، لكنَّه يمضي

يتحدَّث جار فارس مِن جديد: "مع ذلك، أطلب من الله أن يرضى عنهما معاً. عن موسى وعن شْعَيْبَة ... شْعَيْبَة مغامر ومشاكس منذ صغره. وقبل أن يذهب إلى الرِّبَاط، كان أقرانُه في سَطَّات يقولون عنه: لا أحد يضرب بقوَّة بالرأس مثل شْعَيْبَة بن المهدي الجزَّار ... فأنا جزَّار واسمي المهديّ."

يَشعر فارس بأنّ مخَّه يلفُّه ضباب ثقيل. إنَّه بالفعل مُتْعَب، فهو لم ينم البارحة جيِّداً. يقول لنفسه، بمرح لا تصنُّع فيه: "اِستَجمِعْ قواكَ. كُنْ في أتمِّ اليقَظة. بَرديشة في انتظارِكَ!" كان فارس يُغالِب النعاس، فعيناه تُغمَضان تِلْقَائِيَّاً، رغماً عنه للحظة أو لحظتَيْن، لكنَّه، بمعافَرة وعناد، يُعيد فتحهما.

يُضيف الجار ذو البدلة السّوداء، مُكْمِلاً كلامَه: "مُؤخَّراً، كان شْعَيْبَة ابني عائداً إلى بيت عمَّته، أُختي هنيَّة، وكان سَكران، وقُرْب البيت، تعارك مع بائع حلزون مسلوق، وكَسَر له شْعَيْبَة عربتَه، وتركه مُمسِكاً بأنفه النّازف. مساءَ اليوم الموالي، جاء بائعُ الحلزون ووقفَ برأس الزنقة. طَرق فتىً باب دار أُختي، وأخبرها بأنَّ بائع الحلزون ذاك يَحمل سكِّيناً، وينوي أن يطعن به شْعَيْبَة. ذهبتْ أُختي عنده وطيَّبتْ خاطره، وقالت له بأنَّ والد شْعَيْبَة سيأتي ويُؤدِّي له ثمَن عربته وما ضاع له من حلزون. ثمَّ اتَّصلتْ بي، فجئتُ إلى الرِّبَاط لأحلَّ المُشكل. وقد أدَّيتُ لبائع الحلزون ثمن عربته، وزِدتُهُ عليه تعويضات عن الضّربة التي أصابتْ أنفه. وقد تصالح مع شْعَيْبَة أمامي ... وَها أنا الآن عائد إلى سَطَّات حيث أسكن، بعد أنْ رُزِئتُ في مبلغ ماليٍّ ما أحوجني إليه... فشْعَيْبَة أيضاً أخذ منِّي مبلغاً ... مع هذا، فالنّقود يخلفها الله... ".

تحيَّته بإشارات من رأسه وبالابتسامة اللازمة. إثْر هذا، يَستشعر فارس يداً تُرَبِّت على ذراعه الأيسر، ويلتفت. يرى وجهاً باسماً هو الآخر، ويتلقَّى منه هذه العبارة: "إنّه لا يسمعكَ. الحلَّاق بوجمعة ممتاز في مهنته، لكنه أصمُّ أبكم. هو معروف في بَرديشة". الشّخص الذي يتحدَّث هو في نحو الخامسة والعشرين، أقصر قليلاً من فارس، كثيف الشَّعْر، وثمَّة ذوائب طويلة من شَعْره تتدلَّى حتَّى مستوى كتفَيْه. وحين يتحدَّث يُحرِّك يدَيْه، وأحياناً يُفْرِد أصابع يمُناه في الهواء. قال لفارس إنَّه سيُرافقه حتَّى مكتب البريد إذا رغب، فهو ذاهب إلى صيدليَّة بجانبه. قال إنَّ اسمه آدم عبدون، وسأل فارساً إن كان يزور بَرديشة لأوَّل مرَّة. أجابه فارس بأنَّه وصل إلى هذه البلدة أمس الأحد، وقال: "أنا موظَّف في وزارة الثّقافة، سأشتغل في المركز الثقافي الذي سيفتح أبوابه بعد أيَّام، وتحديداً، سأكون قيِّماً على المكتبة ... اسْمي فارس نمير". "رائع، رائع، قال آدم عبدون، أنا أُشرف على مكتب لتصاميم البناء، لكنَّ ما أحببتُهُ منذ طفولتي ولا أزال هو القراءة. سأكون ممَّنْ يُكْثرون التَّردُّد على مكتبة المركز الثّقافي. أتمنَّى أن تكون غنيَّة بالكُتُب الجيِّدة ...". قال فارس: "سأحرص - ما بقيتُ مسؤولاً عنها - على أن تتوفَّر على أجود الكُتُب"، ثمَّ أدخل آدم يُسْراه في جيب جاكتته المُخَطَّطة بالأصفر والأسود، وأخرج منه كتابَيْن صغيرَيْن، لوَّح بهما نحو فارس، أحدهما بالعربيَّة والآخر بالفرنسيَّة. قال آدم: "في أثناء دراستي، كانت اللغة المُستَعملة غالباً هي الفرنسيَّة، وبجهدي الخاصِّ، أصبحتُ أُجيدُ العربيَّة وأقرأ بها". قال فارس: "يَصِحُّ عليَّ أيضاً ما قلتَهُ، يا سي آدم". أعاد آدم الكتابَيْن إلى جيبه، وأمسكَ بنطاله الجينز الأسود من جانبَيْه، واجتذبه من الحزام إلى أعلى. يبدو أنَّ وزن آدم قد نقص عمَّا كان عليه، فاتَّسع عليه حزام البنطلون.

وانعطف فارس ورفيقه إلى زقاق قصير على اليمين، ثمَّ إلى آخر يساراً، ومضيا نازلَيْن حتَّى وصلا إلى ساحة عريضة. إلى يسارهما، كانت هنالك نافورة بلا مياه، وفيما وراء السَّاحة، مكتبُ البريد. قريباً منه، "صيدلية البريد". قال آدم، مُشيراً بيده: "ها هو مكتب البريد. مرحباً بكَ مرَّة أُخرى في بَرديشة. سنلتقي طبعاً، وأتمنَّى أن نصبح صديقَيْن!" أجاب فارس، ضاحكاً: "شكراً لكَ، سي آدم. نحن صديقان من الآن ولا شكَّ!"

يَبعث فارس بِالرّسالة وَيُغادر مكتب البريد. في الخارج، أشعَّة الشّمس واهنة. فلأُشعلْ سيجارة، يقول لنفسه. ينعطَف يساراً، ويمضي على قارعة شارع عريض، إسفلتُه بلا سُمْك، بَل به حُفَر صغيرة أيضاً. السَّيَّارات والدَّرَّاجات النَّاريَّة التي تمضي فيه قديمة على العموم، وأحياناً قديمة جِدَّاً. من الواضح أنَّ بَرديشة بلدة فقيرة. ثمَّة نخلات قصيرة على الرّصيف. يتجنَّب فارس المرور من تحتها، وإذا لزم ذلك، فهو يَحني رأسه ويُغمض عينَيْه كي لا يؤْذيه سَعَفُهَا. يمرُّ بجانب دكاكين، ومن أمام مستوصف، ثمَّ قُرب مكان شاسع فارغ، هو أرض ترابها أحمر غامق. بعد ذلك يجد نفسه يمشي جنب حديقة، فيَجلس فوق حائطها القصير.

يستريح للحظات. تِلْقَائِيَّاً، يبدأ في التَّغنِّي بعبارات مِن قصيدة كان قد لحَّنها وغنَّاها مُحَمَّد عبد الوهَّاب: أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ... يرتاح لِما يَقوم به. فيُزَجِّي بعضَ الوقت بالغناء.

ثمَّ يتعب من الجلوس، فيَنهض ويتمطَّى.

يتمشَّى قليلاً ويَنْعَطف إلى اليسار. ثمَّ يتوقَّف أمام دُكَّان تبغ. يَدْلِفُ إليه، ويَشْتري عُلْبة سجائر، يُؤدِّي بورقة نَقديَّة، ويُعيد إليه البائع قِطَعاً نقديَّة. يَشمُّ رائحة نبيذ مُنبثقة من شخص واقف إلى يساره. يلتفت فلا يجد إلَّا ... حَمَّا. "أُوه! حمَّا!"، يقول فارس بصوت عالٍ، وبتِلْقَائِيَّة، كأنَّه يعرفه منذ زمن طويل. يقول له هذا الأخير: "انتظرْ انتظرْ ... أشتري سجائر أوَّلاً". فينتظره فارس أمام باب دكَّان التبغ. يسأله مِن أين جاء بالشراب، فلا حانات في بَرديشة ولا دكاكين لبيع المشروبات الكحولية. يقول له حَمَّا: "هنا، في بَرديشة، يبيع الشّينوي مشروبات كحولية رديئة ... يُسمُّونه الشّينوي، لأنّه شبيه بصينيّ ...". ويُضيف: "أنا أمضي في السَّيَّارة إلى خريبگة، من حين لآخر، وأجلب شراباً لي ولعدد من الأصدقاء ... غداً، سأذهب إليها... يمُكنني أن آتيكَ من هناك بقِنِّيْنَة أو بما تشاء من قَنان، فأنا رهن الإشارة ... وسأحمل لكَ ما تطلب حتَّى بابِ بيتكَ". أمر رائع، فكّر فارس، وأخرج من جيبه أوراقاً نقديَّة قدَّمها إلى حَمَّا، وطلب أن يجلب له قِنِّيْنَة ويسكي من صنف حدَّده له. قال حمَّا: "انتظرني غداً ما بين السابعة والسابعة والنّصف في مَسكَنكَ"، ثمَّ مضى نحو سيَّارته.

في الشّارع، تصبح الحركة أكثر حيوية. يصل إلى زاوية مبنى يتقاطع قدَّامه الشّارع الذي يسير على رصيفه مع شارع آخر أكبر. في زاوية جنب ملتقى الشّارعَيْن، مقهى أنيق، أرضيَّته من فسيفساء تُزوِّقها دوائر صغيرة بيضاء وزرقاء وحمراء، وفي باحته انتشر بعض الزُّبناء حول طاولات لامعة السّواد. يقرأ فارس على يافطة بأعلى مدخله: مقهى الأمل. يُفكِّر بأنَّه سيشرب شيئاً في هذا المقهى غداً.

هو الآن حيثُ يلتقي الشّارعان، فإن انْعَرَج إلى اليمين، سيمضي في شارع النّصر، صوب مبنى المركز الثّقافي، لكنَّه سيستمرُّ في السّير إلى الأمام، فيمضي صُعُداً نحو المنطقة التي يُوجَد بها مَسكَنه. وربَّما يجلس هنالك في مقهى ...

الثلاثاء 15-4-1986

"جِئتُ، شاهدتُ، انتصرتُ"، هذا ما قاله يوليوس قيصر ذات يوم.

أمَّا أنا، فارس نمير المتواضع، فيمكنني أن أقول الآن: "استيقظتُ، أفطرتُ، دخَّنتُ، تسكَّعتُ، تغدَّيتُ، عدتُ إلى البيت، لَم أقم بشيء يُذْكَر، وها أنا الآن أخرج".

وبالفعل، فها هو يسير مُترِّثاً، نازلاً من الرّابية التي فوقها بيته، تحت شمسٍ ما بعد الظهيرة، يَهبُّ على وجهه نسيم بارد مُنعِش.

يصل فارس إلى مقهى الأمل. يختار مكاناً في باحته ويجلس. يخرج علبة سجائره ويشعل واحدة. هو قريب من التّلفاز. على الشّاشة، مُذيع رياضيّ يتحدَّث بحماسة وبصوتٍ مرتفع عن حظوظ المنتخب المغربي لكرة القَدَم في مباريات كأس العالم لهذه السّنة (1986). ليس لَدَى فارس رغبة في سماع هذا الصَّوت الجَهْوَرِيّ المتحمِّس، لذا فهو ينهض من جلسته، ويلتفت إلى الخلف، بحثاً عن كرسيٍّ بَعيد عن التّلفاز. تتَّجه عيناه إلى اليسار أوَّلاً، لتقوما بمسح شامل، نوعاً مَّا، للمكان. يستوقفه وجه يتطلَّع إليه باسِماً، فيتذكَّر فارس صاحبه: إنَّه جعفر سَنْدو، رئيسه في المركز الثقافي. يُحيِّيه فارس بإشارة مِن يده. بعدها، يُجيل رأسَه يميناً، ثمَّ يختار طاولة بعيدة عن التّلفاز،

فيمضي صوبَها ويجلس. ويجيء النَّادل الطَّويل في قميصه الرُّمَّانيِّ اللون، ويطلب فارس شاياً بالنَّعْنَاع.

يَرشُف فارس من كأسه ويَنْثُر مِن سيجارته ويَنْفث. يصل أربعة أشخاص ويجلسون حول طاولة قريبة منه. يَرشُف مُجَدَّداً من كأسه. يَدْعَك ما تبقَّى من سيجارته في المنفضة.

هنالك فتى صغير السِّنِّ يجوس بين الطّاولات، حاملاً صندوقته، عارضاً خَدَماته كماسح أحذية. يصل إلى طاولة فارس، يقوم بحركة تلميع فردة حذاء خياليَّة، ويبتسم، ينتظر أن يُجيبه فارس على اقتراحه. لكنَّ هذا الأخير يكتفي بالإجابة على ابتسامته بمثلها، فيتوجَّه الفتى صَوْب طاولة أُخرى.

يَمُرُّ شخص بادي الجنون من أمام المقهى، جلَّابيته السّوداء بها رقعة عريضة في منطقة الصّدر. هو ذو لحية كَثَّة سوداء، وبعضُ خُصَل شَعْره المفتولة تتدلَّى فوق كتفَيْه. يلبس بوطاً بلاستيكياً أسوَد، عليه آثار جِير. يناديه شخص ذو سترة صفراء، هو واحد من الأربعة الذين جلسوا، قبل لحظة، إلى طاولة قريبة من مكان فارس. يدخل ذلك الشّخص إلى باحة المقهى، وتتركَّز عيناه على الدّخان الذي ينفثه فارس. ينظر إليه، يُحرِّك زاوية شفتَيْه بما يُشبه الابتسامة، يخطو في اتِّجاه فارس، ثمَّ يقول له: هات سيجارة، أَسْرِع، أنا لم أُدَخِّنْ منذ الصّباح. يُناوله فارس سيجارة. يُناديه الشّخص ذو السّترة الصّفراء: تعالَ، يا حفيظ، تعال. يضع حفيظ سيجارته بين شفتَيْه، وينحني نحو فارس، فيُشعلها له هذا الأخير. يبتسم حفيظ ويهزُّ رأسه عِدَّة مرَّات.

عدد من الجالسين ينتبهون إلى حفيظ، ثمَّ يُشيحون عنه. يبدو أنه معروف مِن قِبَلِهم.

يُناديه صاحب السّترة الصّفراء من جديد. يَمضي ويقف جنب طاولة الأربعة.

ذو السّترة الصّفراء، مُشيراً إلى جلسائه الثّلاثة: ها هم قد جاؤوا من جديد، يا حفيظ ... ههه ... ههه ...

يتفرَّس فيهم حفيظ، بالتَّناوب، مرَّةً، مرَّتَيْن، ثمَّ ثلاثاً. يَنتر من سيجارته نَفَساً طويلاً، ويملأ شدقَيْه دخاناً، ينفثه بالتّدريج.

صاحب السّترة الصّفراء (مُكرِّراً كلامه): ها هم هنا، يا حفيظ ... ههه ... ههه ... حفيظ (يُحرِّك كتفَيْه بعصبيَّة. يَضرب الأرض بأخمص قدمه اليُمنى، ويقول بصوت مرتفع): طْرَنْ زَبَدنْ، طْرَنْ زَبدَاانْ ...

يكتفي بعض مُتتبِّعي المشهد من الزُّبناء بالابتسام، كأنَّهم يتخوَّفون من إغضاب حفيظ. ومن جديد، يتفرَّس هو في الثلاثة الذين مع صاحب السّترة الصّفراء، واحداً واحداً، ويُكرِّر: طْرَنْ زَبدنْ، طْرَنْ زَبَداانْ ...

بعد لحظة صمت:

حفيظ (يتوجَّه إلى أحد الأشخاص الثّلاثة): قلْ أنتَ الحقَّ. ما اسْمُكَ؟

الشّخص المَعنيُّ: المُختار.

حفيظ ينظر في اتِّجاه الثّاني ويسأله: وأنتَ، لا تكذبْ. ما اسْمُكَ؟

الشخص الثّاني: المُختار.

حفيظ، يتوجَّه إلى الثالث: وأنتَ، قلِ الحقَّ لئلَّا تنزل عليكَ اللعنة. ما اسْمُكَ؟

الشّخص الثالث يضحك، ثمَّ يُجيب: المُختار.

يرمي حفيظ بما تبقَّى من سيجارته أرضاً، يُفتِّته بدعسات من فردة بوطه اليُمنى، ويُزمجر: طِرنْ زَبَدنْ، طِرنْ زَبداانْ ...

صاحب السّترة الصّفراء: إنّهم يُكرِّرون ما قالوه نفسه أمسِ، يا حفيظ.

يُهروِل حفيظ إلى خارج المقهى. يُحَدِّق إلى الأشخاص الثلاثة، ويقول لهم: أَلَا تستحون، يا أولاد الحرام، كلُّكم المُختار، المُختار، المُختار .... الله يمسخكم ...

في هذه المرَّة، يَضحك العديد من الزُّبناء، ومن ضمنهم فارس.

يختفي حفيظ عن أنظار الزّبائن. بعد ثوانٍ يعود ويتوجَّه إلى غرمائه الثّلاثة، قائلاً: يا أولاد الحرام، لن أُسامِحكم، بل سأُبلِّغ المامون، سأُبلّغ المامون.

يُقهقه المخاتير الثلاثة، أمَّا حفيظ، فيُطلِقُ ساقَيْه للرّيح.

يَضحك فارس، ويتساءل، في سِرِّه، هل بالفعل اسمُ كلٍّ من أولئك

الثّلاثة المختار، ثمَّ مَنْ هو هذا المامون؟ يُفكِّر فارس: لا ينقصهم إلَّا جَدِّي، والد أبي، لِيكونوا أربعة مخاتير ... ويضحك في سِرِّه ...

وها فارس يُوجِّه ناظرَيْه نحو شجرة حطَّت عليها عنادل. ثمَّ يَرشُف من شايه وينسى الشّجرة والعنادل. يرفع الآن رأسه، فيرى عينَيْن تُحَدِّقان فيه. إنّه شخص يمكن أن يكون في مثل سِنِّه أو هو أصغر منه بسنة تقريباً. هو واحد من اثنَيْن وصلا منذ لحظات، كلٌّ منهما يحمل محفظة. لا شكَّ أنهما مُدَرِّسان، يُفكِّر فارس. نظرة العينَيْن المُحدِّقَتَيْن ودودة، وليست بالغريبة عنِّي كلِّيَّة. ياه! إنَّه الرّيّس ... لا، ليس هو الرّيّس ... بل إنه هو... كلَّا، ليس هو. والرّيّس الذي في بال فارس الآن ليس إلَّا سعيد الرّيّس، زميله في قِسم البكالوريا بخريبگة. لكنْ، أَهُوَ هو، أم ليس هو؟

ثمَّ انفرجتْ شَفَتا ذلك الوجه عن ابتسامة بدأت تكبر، وَشَرع صاحب تلك الابتسامة في الوقوف. إنَّه ليس هو، ولكنْ، كأنّه هو! يقول في نفسه فارس.

يجيء ذلك الشّخص نحو فارس. يُدرك هذا الأخير أنَّه ليس سعيد الرّيّس تماماً ... لكنْ ... كأنَّه هو! ياه، إنَّه حميد الرّيّس! يُفكِّر فارس. وحميد هو أخو سعيد، الأصغر منه، والذي كان تلميذاً بثانويَّة (ط) بخريبگة في الوقت نفسه مع فارس وسعيد، سوى أنَّ هذَيْن الأخيرَيْن كانا متقدِّمَيْن عليه بسنة دِراسِيَّة. وقد كانت بينه وبين فارس معرفة.

استقبل فارس الشخصَ القادم نحوه، وسَلَّما على بعضهما بحرارة، مع قبلات متبادَلة ملامِسة للأصداغ.

- فارس نمير، أَليس كذلك؟ ما الذي تفعله في بَرديشة، يا أخي؟

- حميد الرّيّس، بالطّبع! العالم صغير كما ترى ... أنا سأشتغل هنا ... هنا، في هذه البلدة ... ولا أقصد في هذا المقهى ... ههه ...

وضحكا معاً، وجَلسا متحاذيَيْن.

- سأشتغل هنا، في بَرديشة، قيِّماً على مكتبة المركز الثقافي. المكتبة لم تفتح أبوابها بعد، لكنَّ هذا سيتمُّ في بداية الأسبوع القادم ... إذَّاك ستصل الكُتُب ... وأنتَ، كيف أحوالكَ؟ وكيف هو أخوكَ سعيد ...؟ أنا لم أَلْتَقِه بعد مغادرتنا الثَّانويَّة إلَّا مرَّة واحدة، بشكل سريع ... كان لقاؤنا أمام محطَّة القطار بِكَازا ... وكلُّ ما أعرفه بصدده أنَّه كان قد انتمى إلى مدرسة عليا لتكوين ضبَّاط الملاحة التِّجاريَّة ...

- نعم، إنَّه الآن ضابطُ مِلاحة تجاريَّة، ويَذرع أرجاء البحار. مرَّة كلّ سنة تقريباً، يحلُّ ببيت العائلة بخريبگة. قبل أن يلتقيكَ في المرَّة التي أشرتَ إليها، كان قَلِقَاً بخصوصكَ، فقد قيل عنكَ، حين لم تحضر امتحانات البكالوريا، إنَّكَ اعتُقِلت وأُخِذتَ إلى سِجنٍ مَّا ... فأنتَ كنتَ تُعلن يساريَّتكَ، وتتحرَّك أحياناً مع دعاة الإضراب ... لا يزال في بيتنا كتابان مُسَجَّلٌ اسمُكَ في إحدى الصفحات الأولى منْ كلٍّ منهما: أحدهما عن كارل ماركس، وهو لهنري لوفيڤر، أمَّا الثَّاني، فهو رواية "إِلِيزْ أو الحياة الحقَّة"، لِكْلِيرْ إِتْكِيرِيلّي ...

- غريبةٌ شائعةُ كوني اعتُقِلتُ وسُجِنتُ ... لا، هذا غير صحيح ... أنا كنتُ قد مرضتُ قبل أوان الدَّوْرة الأولى للبكالوريا بفترة ...

أُصِبْتُ بمرض عجيب وقاسٍ، دخلتُ بسببه المستشفى ... لذلك لم أجتز الامتحان في دورته الأولى ... مدهشة تلك الشّائعة ... لكنْ، ما من شيء مُدهِش، في الواقع ...

- أنا لا أستغربها كثيراً ... هنالك نبأ آخر كاذب، ولكنَّه جميل، سمعتُهُ عنكَ قبل نحو أربع سنوات من الآن. تعرف ما هو؟ وتعرف كيف عرفتُ مؤخَّراً، قبل نحو شهرَيْن فحسب، أنَّه أيضاً غير صحيح؟

لم يَقل فارس شيئاً، بل ترك ابتسامة غير مُعبِّرة عالقةً بشفتَيْه، وعلى قَسَمَاته ارتسمتْ تساؤلات.

- النّبأ الثّاني الكاذب الذي سمعتُهُ عنكَ مفادُه أنَّكَ متزوِّج من وديعة خُفافْ، وأنَّ لكما ولداً وبنتاً وتعيشان في طَنْجَة ... كثيرون مِمَّنْ درسوا بالسِّلك الثّاني بثانويَّة (ط) خلال تلك الفترة، يتذكَّرون وديعة خُفافْ، وكيف كانت مرموقة وجميلة وممتازة في الرّياضة البدنيَّة، وكيف كانت علاقة الحُبِّ بينكما وثيقة ...

- شائعة جميلة، على عكس الأولى، رغم أنَّ الاثنتَيْن كاذبتان ... ههههه.

- بِالمُصادفة، عرفتُ أنّ هذه الشّائعة الثّانية كاذبة أيضاً. فقد كان سعيد، في زيارة لبيتنا العائليّ قبل نحو شهرَيْن ونصف، وذهبنا أنا وإيَّاه إلى كازا. كنَّا نتجوَّل في حيِّ المعاريف، وانتهى بنا المطاف إلى حانة، هي خلف حانة مدام گيران بشارعين، اسمُها حانة نفرتيتي، فدخلْناها. هي هادئة وأنيقة. خمِّنْ مَنْ كانَ النّادل الرّئيس خلف

الكونتوار ... لم يكنْ سِوى لحسن ميمُّو ... صديقكما، أنتَ وسعيد، والذي كان قد شاع في الثَّانويَّة في فترة ما أنَّ جِنِّيّاً ضربه حين كان نائماً في فُرْن! وقد أخبرَنا بأنَّكَ في الرِّبَاط، تشتغل بوزارة الثّقافة، وأنَّكَ لست متزوِّجاً لا من وديعة خُفافْ ولا من غيرها، وقال له سعيد إنَّه في عودة قادمة من البحر، سيزوركَ ولا بُدَّ ...

- سيُسْعِدني ذلك ... سعيد صديق لا يُنسَى ... واسْمُ الحانة، نفرتيتي، يُغري بزيارتها ... لم أكنْ أعرف أين يشتغل ميمُّو، ففي آخر زياراته لي، كان قد ترك عملاً في حانة أخرى وينوي البحث عن غيره ... نفرتيتي يا نفرتيتي... لَكنْ، قُلْ لي، ما الذي تفعله أنتَ في هذه البلدة؟

- أنا... أنا أُدَرِّس الرّياضيات في ثانويَّة أحمد شوقي، وهي قريبة من هذا المقهى. درَّستُ بضع سنوات في قلعة السّراغنة، وهنالك تزوَّجت، ولي الآن طفلة ... كنتُ أريد الانتقال إلى خريبگة، لكنْ، تعذَّر ذلك، فطلبتُ الانتقال إلى بَرديشة، لأنّها قريبة من خريبگة، حيثُ بيتُ عائلتي كما تعلم ... لكنْ ... كان يجمعكَ مع وديعة خُفافْ حُبٌّ كبير، فكيف حَدَث أنَّكما لم تتزوَّجا؟! ...

في تلك اللحظة، جاء الشّخص الذي كان حميد جالساً معه في البداية، وَوضع كأس قهوة أمام حميد، وقال له: هذه كأسكَ، لعلَّها قد بردتْ. ثمَّ مدَّ يُمناه وصافح فارساً، وعاد إلى كرسيِّه.

قال فارس، مُجيباً عن سؤال حميد الرّيّس:

- مَا حَدث غريب ومؤسِف جِدَّاً، بل ومؤلم، يا حميد ... فكما قلتُ لكَ، كنتُ قد مَرِضتُ قبل امتحانات البكالوريا، وذهبتُ إلى الرِّبَاط، ثمَّ إلى مستشفىً بكازا، وَلَم أحضر الامتحان في دَوْرته الأولى ... بعد انتهاء تلك الدَّوْرة بنحو شهر، وبعد أن استعدتُ عافيتي، عُدتُ إلى خريبگة، وبحثتُ عن وديعة، لكنِّي أُخْبِرتُ بأنَّها لا شكَّ قد رحلتْ مع أُسْرتها إلى بلد آخر! ومنذ ذلك الوقت، ضاعت منِّي، يا عزيزي! كان الأمر قاسياً جِدَّاً عليَّ في البداية، وبمرِّ الشّهور والسّنوات، بدأتُ آلفُ الخسارة ... يوماً قال لي صديق: أمرٌ غريب أنَّكما لم تلتقيا طيلة هذه السّنين، فهي لا بدَّ موجودة في مكانٍ مَّا ... وقلتُ له: نعم، في مكانٍ مَّا، ولكنْ، أين ذلك المكان؟

قال حميد الرّيّس بدوره، وكأنَّه ينطق كلماته بآلية: ولكنْ، أين ذلك المكان؟ أمر غريب ومؤسف ...

بعد لحظات صَمْت، أضاف حميد:

- يجب أن تزور خريبگة مُجَدَّداً، وتتغذَّى معي في البيت، ونتسكَّع قليلاً هنالك ... لا بدَّ أن تزورني أيضاً في بيتي ها هنا ... تعرف، هنالك بعض زملاء الدراسة القدامى الذين عادوا للاستقرار في خريبگة ... تتذكَّر أحمد الصّافي، الذي كنتم تُسَمُّونه بابا أحمد أو الفقيه؟ إنَّه الآن مهندس بالبلديَّة ... له الآن لحية طويلة وأولاد. هو مُتَدَيِّن بصرامة، لكنّه لطيف وخَدوم ... ويسكن في حيِّنا هنالك ... في حيِّنا أيضاً تسكن سميرة الدّيباجي، تتذكَّرها ولا شكَّ، كانت تُغنِّي في بعض الحفلات أغانيَ لنجاة الصّغيرة ... إنَّها الآن صيدلانيَّة،

وصيدليَّتُها بجانب بيتها ... وعلي الزّهاوي، قضى بضع سنوات في السّجن بسبب انتمائه لتنظيم يساريّ، وخرج وعاد إلى خريبگة، وهو يسكن في بيت أبيه حمَّادي، بِحيٍّ قريب من حيِّنا ...

- شكراً على الدّعوة، حميد. مُتحمِّس حقَّاً لزيارة تلك المدينة في مستقبل قريب ... وسأُسَرُّ بأن أرى مُجَدَّداً أولئك الزّملاء القدامى، أو بعضهم على الأقلِّ.

- عليَّ أن أمضي الآن إلى البيت ... أنا كثيراً ما أجيء إلى هذا المقهى. نلتقي إذن هنا، قال حميد. وأراد أن يُخرِج نقوداً من جيبه ليؤدِّي ثمن قهوته، وربَّما ثمن قهوة فارس أيضاً، لكنّ هذا الأخير ثناه عن عَزمه، وقال له: أنا مَنْ سيؤدِّي هذه المرَّة ... اتركني أتصرَّف ... يُسعدني هذا.

نَفث فارس من دخان سيجارته، ثمَّ شعر أنَّ الهواء من حوله بدأ يكتظُّ بخليط أدخنة، لها رائحة حرّيفة وطعمٌ يكوي اللسان. ونهض وأدَّى للنّادل، ثمَّ غادر المقهى.

فارس الآن في مطبخ مَسكَنه. لقد جَلَب معه سندويتشاً جيِّداً في كيس ورقيٍّ. أمَّا الآن، فهو يُهيِّئ لنفسه شاياً. إنَّها السّابعة ودقائق، وحَمَّا قد يطرق باب البيت من لحظة لأخرى، جالباً معه القِنِّيْنَة.

يعودُ فارس إلى الغرفة حاملاً كأس شاي، ويجلس خلف مكتبه الذي تكدَّستْ فوقه كُتُب وتناثرت، في جانبه الأيسر، أقلام وأوراق، فوق وحَوْلَ محفظة جِلْدِيَّة. يَرشُف من كأسه مرَّةً، مرَّتَيْن، يُقلِّب أوراقاً

بين يدَيْه، يُخرِج من حافظة أوراق كبيرة، دفترَ مذكَّرات قديم، بضعَ صُوَر، رسائلَ كان قد بعث بها إليه أصدقاء ... يتساءل عمَّا إنْ كان راغباً في الإنصات لشريط موسيقيٍّ. يُجيب نفسه: لا، ليس الآن. ينبغي أن أُعلِّق لوحَتَيْن أو ثلاثاً لتخليص الغرفة من كلِّ هذه الوحشة التي ترين عليها. فيما بعد، طبعاً. يتطلَّع إلى النّافذة: إنّها مُغلقة، فالرّيح كانت قد تحرَّكت ببعض القوَّة في الخارج قبل ربع ساعة، وكان يسمع زفيفها. لكنَّها الآن في طور الهمود.

يستحضر جلسته مع حميد الرّيّس. لقد ظهر هذا الأخير أمامه بشكل مُباغِت جِدّاً. تحدَّثنا عن أيَّام وأشخاص. وأكاد أسمع الآن أصواتاً تُرَدِّد جُملاً مِن قبيل: "ميمُّو مسكين ضَربو جنّ"؛ "ميمُّو ضرباتو جنِّيَّة كاتبغيه ..." ... يا لها من حكاية غريبة، لا تخلو مِن جانب مُضحك!

وبالفعل، فميمُّو، بعد أنْ كان قَد اختفى من الثَّانويَّة لأربعة أيَّام أو خمسة، عاد إلى الفصل، ذات صباح، وقد نَحُف وشَحُب واصفرَّ لونه وبرزتْ عظام وجهه، وأصبحت ملابسه واسعة فضفاضة على جسمه. أصبح يبدو مشدوهاً باستمرار، يُحدِّق في نقطةٍ مَّا في الفضاء بِثبات، ولا ينطق بكلمة. كان ابنُ عمٍّ لميمُّو قد جاء معه في ذلك الصّباح، وقال لمسؤولَيْن إداريَّيْن إنَّ ما حدث لِميمُّو رهيب، وإنَّه قد "ضربه جنِّيّ" في أثناء نَومه في فرن عموميٍّ قريب من بيت عائلته. كان أقربُ أصدقاء ميمُّو إليه هم الثلاثة: عزيز بوسبعين، والرّيّس، وأنا. وأوَّل حِصَّة دَخلها معنا ميمُّو بعد غيبته، أو بعد "ضربة الجنِّيّ"، كانت ستُدرِّسنا خلالها الأستاذة ناتالي مادَّة الفرنسيَّة. كانت آنسة

صغيرة السِّنِّ، لا تكبرنا إلَّا بأعوام قلائل، خجولة قليلاً، وكانت منفتحة علينا، وحين تبتسم، نرى أسنانها البيضاء التي كان بها بقع صغيرة مُصْفرَّة مِن جرَّاء التّدخين. وقد تعاطفتْ كثيراً مع ميمُّو، العائد في مظهر جديد ومُزْرٍ. نظرتْ إليه باستغراب وقَلَق، في البداية، وسألتْ: "ما لكَ، يا ميمُّو؟"، فأجابها بوسبعين، شِبه ضاحك: "لقد اعتدى عليه جِنِّيٌّ بالضّرب!"، فقالت أستاذة الفرنسيّة: "ليس هذا موضوع مزاح ... إنَّه مريض فحسب ... أتمنَّى لك الشّفاء العاجل، مِيمُّو ..."

وبدورها، لاحظت الآنسة تورتورال، أستاذة الرّياضيات، التّغيُّر المُحزن الذي طرأ على ميمُّو. حدثَ ذلك إثْر لحظة مَرَح غريبة ونَادرة شاركناها إيَّاها ونحن نتهيَّأ للدخول إلى القِسْم. كان ذلك في العاشرة صباحاً مِن يوم أمطرتْ خلاله السّماء بشكل مُتَقَطِّع. كان قِسْمنا ينتمي إلى شُعبة "علوم رياضية"، وكانت الآنسة تورتورال عازبة، تجاوزت الأربعين، مَرحة في بعض الأحيان، مُنكبَّة دائماً على النّظريات والمسائل الرّياضيَّة بِجِدٍّ واقتدار. في ذلك الصّباح المذكور، ونحن مُصطفُّون إلى جانب باب الفصل قبل ولوجه، ظهرتْ لنا هي من داخله، ضاحكةً، وقالت إنّ تلميذاً من قِسم آخر ولا شكَّ، كتب على سَبُّورَة الحجرة التي سندخل إليها لائحةَ مأكولات ومشروبات شَعبيَّة وأثمانَها (بالفرنسيّة). لم يبدُ لنا الأمر مثيراً حقَّاً للضّحك، ولكنَّنا سايرْنا الأستاذة في مَرَحِها، بل أصبحتْ هي التي تُضحكنا بِحركاتها المُتسارعة العجيبة، إذ كانت تُدير قبضتَيْها حول بعضهما البعض بسرعة وبشكل آليٍّ وهي تنطُّ من باب الفصل داخلةً، ثمَّ تعود مَرِحةً جِدّاً. كانت أقرب إلى الطّول ورشيقة القوام، وكان شَعْرها القصير

الذي بلون الحِنَّاء يهتزُّ مُرَبِّتاً بجانبه الأسفل على عُنقها، فوق ياقة قميصها الأنيق، المُخَطَّط بالأبيض والأخضر، الذي يتبدَّى متجاوزاً ياقة الوزرة إلى فوق. كانت ضحكات الآنسة تورتورال تنبثق من أعماقها، ولم تكن لِتُفقِدَها وقارها الذي ترسَّخ في نفوسنا كسِمَةٍ رئيسة لها، وكانتْ مليحةَ التقاسيم، وزادتْها تجاعيدُ خفيفةٌ على الجبين وَقاراً، فقد كانت تلك التّجاعيد تبدو لبعضنا كأنها تُمثِّل، هندسيَّاً، دوالٍّ رياضية! وها هي تخرج بسرعة لتقرأ علينا سطراً أو سطرَيْن مِن لائحة المأكولات والمشروبات تلك: " الحريرة، ثلاثة دراهم؛ طاجن الكفتة، عشرون درهماً ... ههههه!"، ثمَّ تدخل وعلى الفور تخرج، ثمَّ تقول: "سفّود الكبد، أربعة دراهم؛ طاجن لحم العجل، خمسة وعشرون درهماً ... ههههه! .."، إثر ذلك، دخلنا إلى القِسْم، وكانت الآنسة تورتورال قد كتبت عنوان الدّرس الذي ابتدأناه في حِصَّة سابقة ولم ننته منه بعد: الأعداد العُقَدِيَّة (بالفرنسية)، وكانت قَسَمَاتُها بِصدد التخلُّص من آخر مظاهر المرح الزّائد، حين وَصَل ميمُّو مَرْفوقاً بِبوسبعين، مُتأَخِّرَيْن عن بقية التلاميذ. نظرتْ إليهما، فقال بُوسبعين: "نهاركِ سعيد، يا آنسة، ميمُّو مُتعَب جِدَّاً، ولا يستطيع الإسراع في المشي ...". قالت الأستاذة: "أمر مُؤسِف، ميمُّو في العادة حيويٌّ، فما الذي أصابه؟"، "مرض غامضٌ"، قلتُ أنا، أمَّا أحمد الصّافي الذي كان يلبس جلَّابية ويجلس بأحد المقاعد الخَلْفيَّة، والذي كنَّا نُسَمِّيه "بَابَا أحمد"، فقد قال، بِجِدِّيَّة: "بَلْ ضربه جِنِّيٌّ، يا آنسة". لقد كان أحمد الصّافي مُتدَيِّناً على الطريقة الشَّعبيَّة، لا يأخذه شَكٌّ في أنّ الجِنَّ موجودون و"يَضربون" بعض النّاس فيؤذونهم بشدَّة. وفي ساحة الثَّانويَّة، كان يَحدُث لبابا أحمد أن ينتبذ مكاناً بعيداً عن

مجموعات التّلاميذ ليُؤدِّيَ الصّلاة. "كَيف؟ ما هذا الذي تقوله؟"، توجَّهت الأستاذة للصّافي، محملقةً. "كوني على يقين يا أستاذة أنّ ما أصاب ميمُّو هو ضربة جِنِّيٍّ ... كوني مُتيقِّنة ..."، قال بابا أحمد، واثقاً مِن كلامه. "ضَربه جِنِّيٌّ ... جنِّيٌّ ... هوهوهو ... هاهاها ... لا أعتقد أنّ هذا صحيح"، قالت الآنسة تورتورال. لم يشأ بابا أحمد أنْ يُشاكسها أكثر ممَّا فعل، فصَمتَ، وتمنَّت هي الشّفاء لميمُّو، ثمَّ عادتْ إلى الأعداد العُقَدِيَّة ...

في أيَّام مَرَض ميمُّو، كان يَحدُث أن يصطحبه بابا أحمد إلى زاويتِه المُفَضَّلَة في السّاحة، فيجلسان فوق حجرَيْن كبيرَيْن متحاذِيَيْن في ظلِّ شجرة، وَيضع بابا أحمد يَدَه على رأس ميمُّو، ثمَّ يَشرع في تلاوة آيات قرآنيَّة، بتحريك شفتَيْه، ودون إصدار أيِّ صوت. وكان مشهد بابا أحمد في دور الفقيه الرّاقي يبعثُ على الضّحك، إذ إنَّه يكون قبل لحظات من ذلك فحسب، مثل باقي التّلاميذ، يُنجِز مسائل تتعلَّق بالأعداد العُقَديَّة أو بحساب التّكامل في الرّياضيّات، أو تتَّصل بالتَّيَّار الجَيبيّ أو بالسّرعة والتّسارع في الفيزياء! كان الكثيرون قد ألفوا رؤيةَ بابا أحمد وهو يُقيم بعض الصلوات تحت شجرته الأثيرة، ولكنْ، أنْ يَصل به الحال إلى أن يقرأ آياتٍ من القرآن ليُشْفيَ ميمُّو، فذلك لمْ يكنْ مُتوقَّعاً! وما كان يَقْسرني أنا على الضّحك، يتذكَّر فارس، هو أنْ أراه يُخُّ رأس ميمُّو بِنَفثاتٍ مِن رَذَاذ لُعابه، كانت تبدو له ضروريَّة لنجاعة العلاج!

يَسمع فارس طرقات على بابه. يفتح، فيجد قُبَالَته وجهاً باسِماً: إنَّه حَمَّا!

يُخرِج حمَّا قِنِّيْنَة الويسكي في علبتها الكرتونيَّة ذات الألوان من سيَّارته التي كان قد ترك بابها مُوارَباً، ويُسلِّمها لفارس. يقول له: "ها هي الأمانة، سي فارس، بالصّحَّة والرّاحة"، ثمَّ يُخرِج من جيبه نقوداً، ويُسَلِّمها لفارس: "هذا ما تبقَّى ممَّا أخذتُ منكَ بالأمس"، وفارس لا يريد أن يأخذ منه شيئاً، لكنَّ حمَّا يُلِحُّ: "المجموعة التي أجلب لها شراباً، وأعتبرهم أصدقائي، يُؤدُّون ثمن قنانيهم طبعاً، ويقتسمون فيما بينهم ثمن البنزين وأتعابي ... وأنتَ قد أدَّيتَ ما عليك ... الله يجعل البَرَكة ...". ويدعوه فارس للدّخول وتناول كأس، فيقول: "بارك الله فيكَ ... لكنَّني لا أستطيع، فلديَّ مشاغل ..."

ها هي القِنِّيْنَة قد جاءتْ، يقول فارس. ثمَّ يذهب إلى المطبخ، يُهيِّئ لنفسه قهوة. يَضعها على صينيَّة، ومعها قِنِّيْنَة ماء وكأس كبيرة فارغة وصحن سيستقبل الأُكلة التي يضمُّها الآن كيس ورقي: دجاج مشوي، بطاطا مقليَّة، باذنجان مَقليّ، سَلطة طماطم وفلفل وبصل، وقليل من الخبز.

يَضَع ذلك كلَّه على الطّاولة القريبة من النّافذة، يصبُّ لنفسه كأسَ ويسكي، ويَرشُف منها جُرَعاً، مُتلمِّظاً، فهو يستعذب ما يشرب. إنَّه وِيسكي جيِّد، يقول فارس لنفسه. ثمَّ يمضي ويغسل يدَيْه، فهو يرغب في أن يُرفِق الويسكي بما تيسَّر من الطّعام.

ثمَّ ها هو يتمشَّى نحو النّافذة. يُوارِبُها، ويَدفع مصراعها الأيسر بمَرْفِقِه. ما يراه لأوَّل وَهْلَة: ظلامٌ غير قاتم، شَفَّاف إلى حدٍّ مَّا، فوق أرض خَلاَء، غير مُنبسطة تماماً، بها أعشاب هنا وهناك، وفي جنباتها

شجيرات، قصيرة في الغالب. حين يُميل رأسه قليلاً إلى اليسار وهو ينظر عبر نصف النّافذة المفتوح، يَرى مبانيَ سَكنيَّة، ذات طابقَيْن أو طابق واحد. هي غير أنيقة بالتّأكيد، ومن معاينته لها في ضوء النّهار، يعرف أنها ليست مَطلِيَّة الجدران الخارجيَّة إلَّا بِجير رخيص. فإذا وجَّه بصره إلى اليمين أكثر، لا تعود هنالك مبانٍ، بل امتداد أرضيّ يبدو في رقعة بعيدة منه منزل قرويّ كبير، يرى فارس سوره الحجريّ ومِدخنته وَضَوْءاً يصعد من داخله، خافِتاً ومُشَتَّتاً.

يَجلس فارس على الكرسيّ مُجدَّداً. يُفَكِّر: حقَّاً كان أحمد الصّافي، أو الفقيه، أو بابا أحمد، يبدو غريباً بالمقارنة مع سائر التّلاميذ. وحتَّى مظهرُه كان يُوحي بأنَّه أكبر سنَّاً من زملائه في القِسْم. ولا شكَّ أنَّ مِن بين ما كان قد جعل رفاقَه يعتبرونه أكبر منهم جميعاً، وقارَه الرّائد وتعلُّقَه بلبس الجلَّابيات، وبأداء بعض الصّلوات في زاوية بساحة الثَّانويَّة. وكانت شائعةٌ قد راجتْ حوله، مفادُها أنَّه يشتغل في فصل الصّيف سائقَ شاحنة، يَنقلُ فيها قَمْحاً مِن قريةٍ مَّا إلى أسواق مختلفة، حيثُ يُشرِف على بيعه. وقد وصلتْ هذه الشّائعة إلى مسامعه لأوَّل مرَّة، فَكَرْكَرَ بالضّحك. لكنَّ شائعة أُخرى ساءتْهُ حقيقةً، وجعلته ينعزل أكثر فأكثر، وهي ادِّعاء بعضهم أنَّ بابا أحمد كان مُخْبِراً. ولا يَعرف أحدٌ أصلَ هذه الشّائعة، إلَّا أنّ هنالك مَنْ حاول ترويجها خلال الفترة التي عرفتْ إضراباتِ التّلاميذ، والتي كان يَحضر خلالها بُورِيضَة، وهو تلميذ قصير بشكل ملحوظ، يجيء من خارج الثَّانويَّة، لا نَعرف مِن أين، ويَخطب في التلاميذ المُتحلِّقين من حوله خُطباً ناريَّة، عن ضرورة قيام نقابة للتّلاميذ، وعن التّضامن التِّلْقَائيِّ اللازم مع

البروليتاريا المغربيَّة، والوقوف في وجه المُستغِلِّين، والمُشاركة الفعَّالة في الصّراع الطبقي إلى جانب العُمَّال، ومُعاداة الإمبريالية ... يتذكَّر فارس، الذي كان يقرأ وقتها للينين وتروتسكي، أنَّه شارك أكثر من مرّة بمداخلات "ثوريّة" في تعقيبات على خُطَب بُورِيضَة. فمن خلال أنشطة من ذلك القبيل، اكتسبَ فارس سمعته كثوريّ ... وسرعان ما ستخمد الشائعة المتعلِّقة بكون بابا أحمد مُخبراً، ذلك أنَّه كان قليلَ الاحتكاك بالتلاميذ الآخرين، منعزلاً، وغير مُتتبِّع مسارَ الأحداث في فترة الإضرابات، بل كان غير مُبالٍ بتفاصيل ما يَحدُث، ولذا فَمَنْ قال إنَّه كان مُخبِراً قد افترى عليه بِرُعونة. المُهِمُّ أنَّه الآن مهندس بخريبگة، وسَيَسرُّني أن أراه يوماً مَّا. ولا يُمكنني الآن سوى أن أضحك إذ أراه على شاشة ذاكرتي وهو منتبِذٌ مكاناً في طرف السّاحة وأمامَه ميمُّو، كلٌّ منهما جالس على حَجر كبير صَقِيل السّطح، و"بابا أحمد" يَبُخُّ رَذَاذاً من لُعابه على قُنَّة رأس ميمُّو، ويُغمغم آيةً مَّا في الوقت نفسه، والأرجح أنَّ شفتَيْه كانتا تؤدِّيان حَركة البخِّ دون أن يُنفَث من بينهما رَذَاذ. كنتُ أستغرب من أن يجتمع الاعتقاد في هذا الأسلوب العلاجي المثير مع الاقتناع بقانون التجاذب الكوني لنيوتن في العقل نفسه، وبلغَ اندهاشي من رؤية بابا أحمد في ذلك الموقف حدَّاً جَعَلني أجلب معي وديعة وصديقتها نزيهة وحبيب صديقتها سعيد دوبال، لرؤيته وهو يتلو ويبخُّ، وفيما ابتسمْنا للمشهد أنا وسعيد، بدتْ وديعة ونزيهة متأثِّرتَيْن للحالة التي كان فيها ميمُّو. كنتُ في ذلك الوقت قد حصلتُ على مِفْتاح مَسكَن أيُّوب منذ أسابيع، وكانت لقاءاتي بوديعة في ذلك المَسكَن قد أصبحتْ متواترةً ومألوفةً لكلَيْنا. وبين وَصْلَتَي عِشق، تحادثنا مَرَّة عن حالة بابا أحمد الغريبة،

وقالت لي وديعة، ونحن عاريان، وقد أنهينا جولة أولى ووصلنا إلى الذُّرْوة، بأنَّ أباها لا يُؤمِن بوجود الجِنِّ، لكنَّ أُمَّها تؤمن بتلك الكائنات التي لا نراها، بل وتخافُها أيضاً. وقالت إنَّها هي أَمْيَل إلى رأي الأب، لكنَّ أباها وأُمَّها تناقشا مرَّة في ذلك الموضوع، فلم تشأ أن تُناقض أقوال أُمِّها، بل بقيتْ على رأي وسط، إذ أبدت عدم تيقُّنها مِن شيء بِصَدد ذلك الموضوع. وقد قلتُ لها، مُعَقِّباً: فليوجدْ هؤلاء الجنُّ إذا شاؤوا، فالعالمُ يَتَّسع لنا ولهم، وبدأتُ أمصُّ حَلَمَة ثديها الأيسر بلِين وأُمرِّر يدي على رَدْفها الأيسر ثمَّ الأيمن. ثمَّ نَسينا حكاية الجنِّ والإنس، وانغمرنا في نشاط جسديٍّ رُوحيٍّ، نَجَم عنه عَرَقٌ خَفيف، وتلاه صمتٌ وَخَدَرٌ طفيف.

والآن أستعيد لحظة جميلة في مسار علاقتي بوديعة، أنعتُها باللحظة التّمهيدية الثانية، باعتبار أنَّ الأولى كانت هي لحظة الانشداه أو الانبهار أو الوقوع تحت مفعول السِّحْر الذي استشعرتُهُ إثر تلاقي عيونِنا أوَّلَ مرَّة. أمَّا اللحظة التّمهيدية الثّانية، التي لم تتأخَّر كثيراً عن الأولى، فكانتْ هي التي فتحتْ أمامنا الباب للتّعارف الفِعْليِّ وبدء علاقة ملموسة ولقاءات، ستجد امتدادها الجميل في وصلات عشقنا بمَسكَن أيُّوب التريكي. تلك اللحظة الثّانية شهدتْها درجات ستٌّ، نصعدها من السّاحة إلى صفٍّ من قاعات الدّرس. كنتُ أنا أصعد، وإذا بوديعة تنبثق بأعلى الدَّرَج، فيخفق لها قلبي، وأُمَلِّي عينَيَّ بجمالها، وتفاجأتُ بِكونها تُهديني ابتسامة بديعة ونظرةً مُحِبَّةً حنوناً. كنتُ أصعد وهي تنزل، والتقينا على إحدى الدَّرَجات، وسقط من يدها كتابٌ كانت تحمله بِيُمناها، فيما محفظتُها في يدها اليُسْرى.

انحنينا معاً لالتقاطه، وتَلامس كتفانا، وانسدل بعضٌ مِن شَعْرِها على كتفي اليُسرى وجانبٍ مِنْ وجهي، وتركتْني أسبقها للإمساك بكتاب الفيزياء ذاك. مددتُهُ لها وقالتْ أَشكركَ، جميل أن تكون ها هنا في هذه اللحظة. وكِدتُ أقولُ لها أُحِبُّكِ، فقد تكلَّمتْ برعشةٍ في النَّبْرات، وكانَ في نَبْرَة صوتي انتشاءٌ بَيِّن، ولو قُلْتُ لَها أُحبُّكِ لَبَدَا لها ذلك تعبيراً عن أمر واقع جلِيٍّ، لكنِّي قلتُ: لحظة جميلة جِدَّاً منحتِنِي إيَّاها، يا ... فقالت: وديعة خُفاف، وقلتُ: فارس نمير. وفي اليوم الموالي، انعزلنا بشكل تِلْقَائِيٍّ تحت شجرة في السّاحة، خلال استراحة العاشرة، وتحادثنا، ولم نعد في حاجة إلى إقرار أوضح بأنَّنا ارتبطنا ببعضنا بشدَّة.

يعود فارس ليُطِلَّ على ما يمكن أن يراه من العالَم الخارجيِّ عبر النّافذة. قُرب باب البيت القرويِّ، يميِّز الآن بِئراً، ثمَّ بقرةً. يتحرَّك ناظراه يميناً، فيرى بُقع ضَوء تهتزُّ، ثمَّ تُراوِح مَكانها. إنّها خَمْس بقع بالتّحديد. وتنبثق في كلٍّ منها حركة داخليَّة غريبة. حركة لولبيَّة. تُصبح البُقع الضّوئية كتلاً ذات طول، لكلٍّ منها قوام نحيف راقص. إنَّها تبدو كائناتٍ صغيرةً مِن ضوء تتراقص داخل هالاتٍ، صُفرتُها بَاهتة ميَّالة، في وسطها، إلى الدُّكنة ... يُفكِّر فارس: هؤلاء الخمسة النّحاف، مُهتزُّو الأجساد التي من غيم وضوء، تُرَى فِيمَ يُفكِّرون الآن؟ فما الذي يمنع أن يكونوا بدورهم قادرين على التّفكير، بل وحتَّى التّساؤل عمَّنْ يكون هذا الشّخص الذي يُطِلُّ عليهم من هذه النّافذة؟ فهل أتوجَّه إليهم، صائحاً: أنا فارس، أيُّها المُضيئون؟ ويَعُبُّ من كأسه. إنَّه ويسكي جيِّد، نعم، نعم. يَضرب الأرض بأخمص قدمه، ويقول، بصوت خفيض: طْرَنْ زَبَداااانْ ... طرنْ زَبَداااانْ ... طرنْ زَبَداااانْ ... ثمَّ يَضحك.

يبتعد من النّافذة، يجلس على كرسيِّ المكتب، ثمَّ سرعان ما ينهض ويَعود إليها. وها الخمسة قد تكاثروا. أصبحوا الآن أكثر من عشرة أفراد، بينهم تشابه تامٌّ. أُسمِّيهم أفراداً، لأنَّهم واقفون، ويُشِعُّ من دواخلهم ضوء، كما أنَّهم يتراقصون، أو يرقصون. ألَا يَكون هؤلاء جماعة من الجِنِّ؟ لا أدري. ألَا يكون مِن بينهم الجِنِّيُّ الذي كان قد ضرب ميمُّو؟ هههه، الاحتمالات كلُّها واردة ... لكنَّني أَمْيَل إلى اعتبارهم من "البَرتقيزْ"... ورُبَّ سائل يسأل: مَنْ يكون هؤلاء "البَرتقيزْ"؟ وسأجيبه بِكلِّ يُسْر: إنَّ شْوِيرْفَة كان أوَّلَ (وآخرَ) مَنْ حدَّثنا، في زَمَن الصِّبا، عن "البَرتقيزْ"! وقبل أن يسألني أيٌّ كان، أُبادِر وأقول: أمَّا شْويرْفَة، فقد عرفناه - أقصد أنا وأطفالُ وصِغار وكِبار زنقتِنا والزّنَاقي المحاذية لها، وحتَّى البعيدة عنها - فنَّاناً مُنفرداً، يَنقر بأصابعه على "التّعريجة" أو يضرب عليها بكفِّه، مُبتعثاً منها موسيقى، فيها حدٌّ أدنى من الإثارة للحواسِّ، قد تدفع شخصاً، إنْ كان شديد الانقياد لاهتزازات جسمه التي قد تنجم عن تلك الإيقاعات، إلى أن يُؤدِّيَ رقصة بتمامها.

كان شْوِيرْفَة قصيراً، يَعتمر طاقيةً سوداء طويلة مرَّات، وطاقيةً حمراء صوفيَّة مرَّاتٍ أُخرى، وكان يتنقَّل بتعريجته من باب إلى باب، مُرْفِقاً إيقاعاته بما يحلو له من أغان مغربيَّة معروفة، أو بأغان ابتدعتْها قريحته. وكان الأطفال أو النساء، في الغالب، هم الذين يفتحون الأبواب، ويمنحونه قطعاً نقديَّة أو قطع سُكَّر، فأكثر الرّجال يكونون وقتها في الشُّغل. وبعد أن يُنهيَ شويرفة جُزءاً من جَولته، كان يجلس ليستريح على دكَّة في جنب مدخل إحدى الزّناقي، قُرب دكَّان الحلَّاق بوجمعة. وهنالك يأتيه أحدهم بصينيَّة، بِها برَّاد شاي وكأس أو كأسان،

فيصبُّ لنفسه من المشروب السّاخن، ويُدخِّن سَبْسِياًّ (غليونَ كيف)، ويلتحق به صبية وفتيان، فيقيمون حوله نصف دائرة، ويُبدي هو ارتياحه لمجيئهم، ثمَّ يبدأ في رواية إحدى حكاياته العجيبة الغريبة على مسامعهم. كان شويرفة ضَحوكاً، يَنسبُ لنفسه مغامرات عجيبة، ويحكيها للأطفال أو حتَّى للكبار، لكنَّه لا ينسى أبداً أنْ يُعلِّق على كلٍّ منها، بعد أن يُنهيَها، بأنَّها من نَسج خياله فحسب.

تَعُود أيَّام تتبُّعي لقصص شويرفة إلى زَمن صباي، وتحديداً إلى السنة الثامنة أو التّاسعة مِن عُمُري، وقد بقي شويرفة يَزور حيَّنا لِسنوات، إلى أن انقطع عن لعب دَوْر المغنِّي الجوَّال الذي يعيش على الصَّدقات والمساعدات، بعد أن كبر ابناه، وأصبحا مُوظَّفَيْن.

كنَّا، نحن الفتية، نرفض أن نُصدِّق أنَّ ما كان يرويه لنا شويرفة هو مِن نَسج خياله، حتَّى لو تظاهرنا بذلك. ولذا، بَقِيَ مَنْ أسماهم "البرتقيز"، مثلاً، ذَوِي وجودٍ واقعيٍّ مَّا، بالنِّسبة إلينا.

طْرانْ زَبداان، يضرب فارس الأرض بأخمص قدمه، ويضحك، بعد أن يرشف مِن كأسه رَشَفات. يَضحك في سِرِّه فحسب. يقول لنفسه: أوْضِحْ لنا، يا هذا، مَنْ يكون هؤلاء القوم؟ ويجيب: إذا كان المغاربة يُطلِقون تسمية "البرتقيز" على البرتغاليِّيْن، فشويرفة يُؤَكِّد أنّ لهذه التّسمية دلالة مغايرة، ذلك أنَّ "البرتقيز"، حَسَب تعريفه، هم "كائنات شبيهة ببني آدم، وَهُم شديدو القِصَر، شديدو النّحافة، لا يراهم سائر النّاس، وهم يَرَون في الظّلام، ويُدَخِّنون الكِيف". وكان شويرفة يُضيف أنّ زوجته الأولى كانت ساحرة، ولم يكنْ هو يَعرف ذلك في

البداية، وفي وقت مًّا، أصبحت نمال حمراء تَخرج من أُذُنَيْها حين يُطفَأ النور، ولا تكفُّ تلك النِّمَال عن قَرصه والدّبيب تحت إبْطَيْه حتَّى مطلع الفجر، فمرَّاتٍ يَشعر بالدّغدغة فيضحك، ومرَّاتٍ يشعر بالألم فيصرخ. وقد انتهى به المطاف إلى تطليق تلك الزّوجة، وعندها حرَّضتْ عليه "البرتقيز" بعد أنْ لجأتْ إلى بيت أُمِّها، السّاحرة بِدورها! فأصبح البرتقيز، يا سادتي، يتبعونه إذا خرج ليلاً، ويرفعون أصواتهم صائحين من خلفه: "واشويرفة لقْرَيَّدْ! واشويرفة لَحْمَيّقْ!"، وكانتْ لديه هو القدرة على رُؤيتهم، فكان يَشتمهم، ويرميهم بالحجارة، ويُشعل أعواد الثقاب، فَيُفلِح في إصابة بَعضهم، وفي تخويفهم بالنّار، وَحَدَثَ في إحدى الليالي أنْ حفروا له حفرة قُرب باب بيته، فلمَّا كان عائداً إليه في الظّلام سقط في الحفرة، وأُصِيب بجروح، ولولا حُسن حَظِّه، حسبما قال، لانكسرتْ ساقُه أو ضلوعُه!

يَمضي فارس صَوب النّافذة. الجماعة التي في الخارج والتي يُشِع أفرادها وتنبثقُ من دواخل كلِّ فَرد منها أضواء، فيرقص ويتراقص ويتمايل، هي الآن مُكوَّنة من ثلاثة أفراد فحسب، وما تغيَّر في مظهر كلِّ فرد هو أنَّ شريطاً بنفسجيّاً أصبح يلفُّ وسطَ جسمه. أَتكون هذه جماعة من البرتقيز، يا شويرفة؟ يسأل فارس، لكنَّه لا يتلقَّى جواباً. يَعُبُّ من كأسه مُجَدَّداً. يأكل قليلاً. وحين يُطلُّ من النّافذة، هذه المرَّة، يرى الثّلاثة المتراقصي الأجسام، يتبدَّد الواحد منهم بعد الآخر، مثلما غيوم واهية تتفتَّت في الهواء. أَهكذا تكون النهاية المحزنة للبرتقيز، يا شويرفة؟ لكنْ، عليَّ ألَّا أنسى أنّ شويرفة كان عدوَّاً لهم، لذا فلن يُحزنَه أن تتبدَّد أجسادهم وتصيرَ قِطَعَ غيم أو سحاب.

ينتهي فارس من الأكل. يمضي إلى لافابو الحمَّام ويغسل يدَيْه ويُنَشِّفهما. يعود إلى كرسيِّه القريب من النّافذة، يرشف من كأس القهوة هذه المرَّة. لقد انتشى وتعب من الويسكي.

إذن فقد تكون بَرديشة بلد الجنِّ والبرتقيز أيضاً، وهم يُعايشوننا ... وماذا في ذلك؟ لكنْ، في هذه الحالة، يَجب أن توجَد في هذه البلدة بعضٌ مِن الكائنات الأخر التي عرَّفَنا بِوُجودها طَيِّبُ الذِّكْر شويرفة ...

فكيف لا يوجد في هذه البلدة العجيبة أمثال كوكو مثلاً؟

فَعَنْ دِيكِه كوكو، الذي هو بلا مثيل، كان شويرفة قد روى لنا قصَّة مُثيرة. قال إنّ كوكو كان شديدَ البأس والقُوَّة، خفيفَ الحركة، عُدْوانيّاً حين يَجب ذلك. وكان هو الذي يحرس البيت، حين يغيب عنه شويرفة، حتَّى لو وُجِدَ فيه باقي أفراد العائلة، فوقتها كانت له زوجة ثانية وطفلان. هكذا، حدَثَ مرَّةً أنّ سارِقاً أرَادَ ذاتَ ليلةٍ أن يقفز من سَطح بيت شويرفة إلى فِنائِه، وكان كوكو فوق السّطح ... ثمَّ وصف لنا المشهد كالتّالي: " ... لمَّا فتحتُ الباب بالمِفْتاح، وكنتُ لحظتها عائداً من ذلك العُرْس، والسّاعةُ جاوزت الثّانية صباحاً، وباقي أفراد العائلة يَغُطُّون في النّوم، سمعتُ جلبة وصياحاً على السّطح، فصَعِدْتُ إليه، فوجدتُ كوكو قد احتجز لِصَّاً في زاوية، وكوكو كما تعلمون ضخم وقويٌّ، يتحرَّك اللصُّ فيضربه بجناحه الأيمن ضربةً تجعله يرتطم بجدار، ويصرخ اللصُّ من الألم ويتحرَّك من جديد، فَيَكيل له كوكو ضربة بجناحه الأيسر فيرتطم مُجَدّداً بِجدار ... وخفتُ من أن يقتله كوكو، فتوجَّهتُ إليه مُؤَنِّباً ومُحذِّراً: كوكو، أقول لكَ، يا مسخوط، لا تضربه بجناحكَ تلك الضربة الرّهيبة التي قد تكسر عظام

ظَهْره ... كوكو، أقول لكَ احْذَر من أنْ تقتله، فننتهي أمام المحاكم ... يا ديكي، يا كوكو، لا تضربه بقوْة حتَّى لو كان سارِقاً يُريد السّطو على بيتنا ... كوكو ... اِلعن الشّيطان، يا كوكو" ويُخبرنا شويرفة بأنّ كوكو انصاع لأوامره ونصائحه، وأنَّهما معاً، تركا اللصَّ ينزل من السّطح، ويمضي إلى حال سبيله، وهو في حال مُتردِّية جِدَّاً.

فإذا وَجَد أشباه كوكو أمكنة لهم في بَرديشة، فكيف لا تُوجَد بها مثيلات بِيبِيَّة شويرفة، أيْ دجاجته الرّوميَّة الضّخمة متينة البنيان، التي قال لنا عنها إنَّه ركب ظَهْرها ذات سنة فمضتْ به بسرعة فائقة، مخترقة الغابات ومُجاوزة الأودية والهضاب والجبال، بل وقاطعةً الأنهار، حتَّى أوصلتْهُ إلى مكَّة، وتمكَّن من أداء فريضة الحجِّ ... كان يَحكي ثمَّ يتوقَّف ويرفع كفَّه المفتوحة مرَّات، ثمَّ يقول: هذا هو شْوِيرْفَة اللي حَجّ عْلى بيبيَّة ...

لكنَّ شويرفة، بعد أنْ أنهى الكلام عن مَطِيَّته العجيبة تلك، وشرب كأس شاي، ضحك من أعماقه وذكَّر المُسْتمعين من حوله بأنَّ حكايته المثيرة تلك، كانتْ بِدورها مِن نَسج خياله ...

لكنْ، كيف توهَّم بعض رفاق الدّراسة القدامى بأنِّي متزوِّج بوديعة خُفاف، وأنَّ لنا أطفالاً؟ فبقدر ما يبدو لي حُلْم يقظة مِن هذا القبيل جميلاً ولا شكَّ، يبدو لي أنَّه لا يخلو من جانب مُضْحك ومُحزن في آنٍ، بالنِّسبة إليَّ ...

يشعر فارس ببعض التّعب. ينهض ويُغلِق النّافذة. يمضي نحو السّرير، ويتمدَّد على ظَهْره. السّقفُ انتشرتْ على جِيرِه المتقشِّر،

هنا وهناك، بُقَع ضاربة إلى الصُّفْرَة أو رماديَّة فاتحة، حوافُّها داكنة أو سوداء. يمَيل فارس يساراً، يتَّكئ على مَرْفِقِ يُسْراه. هنالك كتاب على الكومودة: الحياة اليوميَّة في مصر القديمة. لا رغبة لديه الآن في أنْ يقرأ. يُفكِّر في أن يُدَخِّن، فيتذكَّر أنَّ عليه أنْ يتفادى التّدخين وهو في السّرير.

والآن، فهو يتأمَّل السّقف. وبعض البُقع الداكنة سوداء الحوافّ تتحوَّل إلى أجزاء من عجلات مُسَنَّنة، وأُخرى إلى قِطع معوجَّة منْ مناشير، وثالثة تكبر وتنتشر، ورابعة تنقلب وجوهاً تُقَهقه، تُقَهقه، وفارس يُسايِرها في القهقهة قليلاً، لكنّه، في لحظةٍ مَّا، يجد نفسه في الخارج، وها هو يستمرُّ في المشي، ويقطع أرضاً خَلاَء، في اتِّجاه مدينةٍ مَّا. تمرُّ سيَّارة بجانبه، تسير متقلقلة، يُطِلُّ منها حَمَّا ويضحك، لكنَّه لا يتوقَّف لِيُرْكِبَه معه. يَحزن فارس لذلك، لكنَّه سرعان ما يَفهم: فواحدة مِن العجلَتَيْن الخلفيَّتَيْن للسَّيَّارة لم تكن موجودة في مكانها. لقد طارتْ كما نقول، يُفَكِّر فارس ويضحك. يسأم مِن المَشي. لا سيَّارة تتوقَّف وتُقلُّه. لكنْ، مِن حقلٍ إلى يمينه، تُقْبِل نحوه دجاجة روميَّة. وكلَّما اقتربتْ منه أكثر، يتعاظم حجمُ جسمها. تنطلق أُغنيَّة مِن حلق فارس: تعالي يا بيبيَّة تعاليْ، تعاليْ تعاليْ ... وتتوقَّف أمامه تلك "البيبيّة". يقول لنفسه: إنّها شبيهة بالتي حجَّ عليها شْويرْفَة، وقد تكون هي. يا هَلا، يا هَلا بكِ، أيَّتها البيبيَّة الرّائعة ... لقد جِئتِ في الوقت المُناسب، أيَّتها الضخمة القويَّة السّريعة. ويمتطي ظَهْرها، فَتَخُبُّ به قليلاً، ثمَّ تُطْلِق ساقيها للرّيح. وها هي تدخل به، عبر باب مُقوَّس في وسط جدار ضارب إلى الحُمْرَة، إلى مدينة جميلة. ينزل فارس، ويتمشَّى وجنبه دجاجتُه الرّوميَّة في أزقَّةٍ بمصر القديمة. مصر

الفرعونيَّة تَحْديداً. ثمَّ تتوقَّف البيبيَّة وتنحني باحترام لِنساء في ملابس أزمنة الفراعنة. يلتفت نحوَهنَّ وبدوره، يَنحني لِلَّتي في وسطهنَّ: إنّها نفرتيتي نفسها، بِسُمْرَتها المضيئة، في لباسها العجيب، ومن دون تاجها. تتمشَّى معه بضع خطوات، وتتحدَّث إليه بلغتها، لكنَّه يفهم كلامَها بكلِّ يُسْر. إنّها تُرَحِّب به، ويشكرها بدوره، بِلُغتها نفسها. يتمشَّيان ويضحكان. ويتحادثان بالفرنسيَّة. وتتغيَّر ملابس وملامح نفرتيتي. فها هي في ملابس عَصريَّة، تتجوَّل معه في شارع بخريبكَة، وتكتسي ملامح وسَحْنة شابَّة مغربيَّة متورِّدة الخَدَّيْن مُشرقة الجمال. وتتلبَّث الدّجاجة الرّوميَّة في باحةِ قاعةِ سينما، تتأمَّل مُلصقات أفلام. والشَّابَّة التي بجانب فارس ليستْ إلَّا وديعة خُفاف. يقول لها: كنتُ قَلقاً جِدَّاً بسبب غيابكِ الطّويل. تقول له هي، ضاحكةً: يا إلاهي، دجاجةٌ روميَّة ستدخل إلى السِّينما. يُقَهقِه شَخصٌ يمرُّ بجانبهما، ثمَّ يَشْرع في الصّفير. ينعطفان يساراً ويُتابعان سَيْرَهما. يَصِلان إلى مُرتفَع من الأرض مُشَجَّر وبه نباتات وأزهار. تقول وديعة: ها نحن قريبان مِن مأوانا، اذهبْ وادخلْ وسألحقُ بكَ. يُفكِّر فارس: جوُّ خريبكَة اليوم جميل. يقول: بعد خمس دقائق، تعاليَْ. ستجدين الباب مفتوحاً. بعدها، يمَضي إلى شُقَّة أيُّوب التّريكي، فيُخرِج المِفْتاح مِن جيبه، ويفتح الباب ... وها هو في السّرير مع وديعة ... ثمَّ يبدأ فارس في الاستيقاظ، وعيناه تستشعران ضَغط الضّوء عليهما مِن وراء الأجفان. وقبل أن يفتح عينَيْه بالكامل، يمدُّ كفَّه اليُسرى، منبسطةً، لِيَضعها على صدر رفيقته في السّرير التي هي وديعة، فهما في المَسكَن الذي كان يؤويهما في خريبكَة. لكنْ، كَلَّا. فإذ تبدأ عيناه في الانفتاح، يُدركُ أنَّه وحده ها هنا، في بَرديشة، بلد الجِنِّ والبرتقيز! وينهض، شَديدَ التَّعب هذه المرَّة، ليُطفِئ النّور حتَّى يخلد إلى النّوم!

الأربعاء 16-4-1986

استيقظتُ في بَرديشة، وها أنا قد وصلتُ إلى الدّار البيضاء، بعد رحلة في تاكسي كبير.

هنا، في كازا، أقلَّني تاكسي صغير إلى باب أوطيل لا بأس به في حيِّ المعاريف، استأجرتُ غرفة بطابقه الأوَّل، بها سرير عريض وحمَّام يتوفَّر فيه دشّ وماء ساخن (وبارد، طبعاً). شعرتُ بارتياح لغرفتي تلك. بل إنَّ رَقْمها نفسه بدا لي ذا جمال خاصٍّ: 17. إضافة إلى ما سبق، فإذا خرجتُ من الغرفة ونفذتُ عبر بابٍ مُعَيَّن في الجهة المقابلة لها، سأجد نفسي في مجاز يؤدِّي إلى صالونٍ واسع، بِه تلفاز كبير وكراسيُّ ذات أذرع حول منضدة إهليلجيَّة مديدة، ويُمكن لنادل أن يحمل إليكَ حتَّى ذلك الصّالون قهوة أو بيرات أو ما تختاره من شراب، أمَّا بار الأوطيل، فيحتلُّ جانباً من الطّابق الأرضي.

أهبط الآن من الغرفة وأخرج من الأوطيل. أنحدر، يميناً، عبر شارع نازل، وأصل إلى آخَر، مُستوٍ. أُعَرِّج إلى اليسار وأتابع سيري، وها أنا أمام كشك بائع صحف وماغازينات ومجلاَّت. أقرأ العناوين الكبيرة لبعض الصّحف، ثمَّ أنصرف. في منعرج صغير، حيث قِطعة من شارع هادئة، أجد نفسي أمام باب حانة ذات تيراس لا يجلس فيه أحد الآن: إنَّها حانة القِطِّ الضّاحك. والسّاعة الآن الحادية عشرة وسبع دقائق.

أدخل إلى الحانة، فأجدها قليلة الزّبائن. إلى يساري، فتاة حانة وثلاثة زبائن فحسب. أمَّا إلى يميني، فهنالك جدار عُلِّقت عليه لوحة عريضة، يبدو فيه مشهد من بلد أوروبي: راقصات واقفات في حديقة كبيرة، وقربهنَّ رجال ببدلات سوداء وبرانيط عالية. يثير انتباهي أحد الزّبائن الثّلاثة: إنّه شخص شديد السُّمْرَة، متوسِّط الطّول، ذو قَلَنْسُوَة حمراء مرصَّعة بوَدَع أسود وأبيض، تتدلَّى من وسطها شُرَّابة سوداء، خيوطها ليِّنة ومفتولة، وجُبَّته خضراء واسعة وقصيرة، وغيرُ ذاتِ قُبٍّ. هو في نحو الأربعين. وأمامه آلة وتريَّة: الهَجهوج. إنّه گناوي إذن. أين يا تُرى ترك رفيقَيْه في العزف والغناء: الصَّنَّاج والطَّبَّال؟

هل أتَّخذُ لي مكاناً أمام الكونتوار وأشرب بيرة أو اثنتَيْن أم لا؟ جوابي في هذه اللحظة هو: لا. فمساءً، سأمضي إلى حانة نفرتيتي، وأرى ميمُّو وأشرب هنالك. أكتفي، إذن، بالجلوس في التّيراس. أمامي عَمائر قصيرة: من طابقَيْن أو ثلاثة طوابق فحسب. والمارَّة من أمام الحانة قلائل، والسَّيَّارات أقلّ. أنتظر دقائق، ثمَّ يُطلُّ نادل نحيف. أطلب قهوة سوداء. لا أجد ما أفعله، فأُشعل سيجارة.

ثمَّ يَجِدُّ جديد. فالگناوي، بداخل الحانة، قد بدأ يَعزف على هَجهوجه. إيقاعُ العزف يُطربني. لا شكَّ أنّ الگناوي قد انتشى. والنُّدُل تركوه يَعزف لأنَّه، ربمَّا، زبون كثير التردُّد على "القطّ الضّاحك". إنّه يُغنِّي الآن أيضاً. أسمع بعضاً من كلمات أُغنيَّته: "رَانِي في باب الدار ... الشّْتا والبَرَدْ عْلِيًّا ... ولَعْجَاجْ عْمَى عَينِيًّا ..." أَعرف هذه الأُغنيَّة الگناوية، وقد سمعتُها من قبل مرَّات ومرَّات. ثمَّ يتوقَّف عن العزف والغناء ويبدأ في الضّحك. يُحاكيه زبائن آخرون فيتعالى ضحكهم. لقد

هبَّتْ ريح السُّرور بداخل الحانة. وها نفحات منها تصلني بِدَوري. يَخرج النّادل فأُناديه، وأؤدِّي له، وأمضي منتشياً. الحُصول على نشوة السُّكْر دون شُرب، إنجاز حقَّقتُهُ في هذه الصّبيحة ... ههه ... أتذكَّر الشّاعر القديم المِسكين الذي باع صوفَ زوجته وشَرب بثمنه، وحين أبدتْ له غضبها، عقَّبَ عليها قائلاً: غَضِبتْ عليَّ لئِنْ شربتُ بِصوفِ / ولَئِنْ غضبتْ لأشربنْ بِخروفِ ...

أمرُّ أمام مطعم يبدو أنيقاً. أدخل إليه وأطلب وجبة جمبري بصلصة طماطم. بعد الأكل، سأعود إلى الفندق. فأنا لستُ بعيداً عنه الآن.

ها قد وَصلتِ الثّالثة وثلاثون دقيقة. وأنا في المنطقة التي تُوجَد بها حانة نفرتيتي بحيِّ المعاريف.

دَلَفْتُ إلى محلٍّ لبيع الثّياب واشتريتُ قُبَّعة. قُبَّعة بيضاء يحيط بطرفها السّفليّ خطٌّ دائريّ رُمَّانيٌّ اللون. رأيتُها معروضة بالفترينة وأعجبتْني. قد لا تكون أعجبتْني كثيراً، ولكنِّي رغبتُ في شرائها، وها هي الآن فوق رأسي. أدخل مقهى وأسأل عن حانة نفرتيتي، فيدلُّني نادل على الطّريق إليها: هي ليست ببعيدة. تبلغ نهاية هذا الشارع الذي إلى يمينكَ، وتنعطف يميناً، ثمَّ تمضي فيه لنحو خمس دقائق، وإذْ ترى قُبَالَتكَ بناية كبيرة تحمل يافطة "البنك التّجاري"، تنفذ مِن مجاز بجانب البنك، وتجد "نفرتيتي" في الشّارع الذي خلفه. يمضي فارس مُتَّبعاً توجيهات نادل المقهى. يصل إلى "نفرتيتي". إنَّها حانة ومطعم. بداخلها، يرى أنّ النّادل الذي خلف الكونتوار ليس هو ميمُّو. بل إنَّه شخص أكبر سنَّاً، له شاربان أشيبان كثيفان. يسأله عن ميمُّو،

فيجيبه: لَحسنْ يتناوب معي على العمل خلف الكونتوار، نوبته ستبدأ مع الرّابعة والنّصف.

تبدو لفارس طاولة فارغة في زاوية بعيدة عن الباب، فيذهب إليها. الحانة ليست كبيرة، لكنَّها أنيقة. هذا يُضْفي عليها طابعاً حميميَّاً، فكَّر فارس. على جدرانها صُوَر لممثِّلين ومُغنِّين، أمريكيِّيْن في الغالب. يطلب فارس بيرة من نوع يُعجبه، وأمامه، يضع علبة سجائره وفوقها قدَّاحة. هذه الحانة تَروق لي. وموسيقى الجاز التي أسمع الآن أعرفها وتُعجبني، يُفكِّر فارس. إنَّها لمايلز ديڤيس. فيما يَخُصُّ الجاز، فمعارفي لا بأس بها.

يأتيه النّادل بالمشروب. هو في منتصف العشرينيات، يحسبه المرء باكستانيَّاً أو هنديَّاً، لكنّه مغربيٌّ بلا جدال.

يدخل إلى الحانة شخص أعرج، يتَّكئ على عُكَّاز. يَنهض، قريباً من فارس، شخص يلبس جاكتة جِلْدِيَّة بُنِّيَّة وشَعْرُه يتلامع! إنَّه يُشبه الممثِّل المصريّ فريد شوقي. ها هو يتَّجه إلى حيثُ المراحيض. شابَّات ونسوة لهنَّ أيضاً حضورهنَّ ها هنا. قليلات، لا يتجاوز عددهنَّ الخمس، ثلاثٌ منهنَّ يرافقنَ رجالاً. على بُعد بضع طاولات من فارس، ثمَّة شخصٌ يتفحَّصه. شخص خمسينيٌّ، يلبس فُوقيَّة بيضاء. على رأسه طاقية متعدِّدة الألوان، وأمامه عدد لا بأس به من قناني البيرة، إحداها مليئة لا تزال، وعلبة سجائر أمريكيَّة. أمامَ وجهه سحابة دخان تتبدَّد شيئاً فشيئاً.

يستمرُّ ذو الطّاقية المُلوَّنة في تفحُّصي، فهل سبق يا تُرى أن

التقينا أو تعارفنا أم تُراه من الصّنف الذي يُظهِر اهتماماً بشخصكَ، ثمَّ يُحيِّيكَ بودٍّ واحترام، وفي النّهاية يطلب منكَ أن تتفضَّل عليه بكأس؟ ما إن طرح فارس هذا التّساؤل على نفسه حتَّى بدا له أنّ ذلك الشّخص يَقف ويتناول قِنِّيْنَتَهُ المليئة بيُمْناه، ثمَّ يأخذ بيُسْراه علبة السجائر والقدَّاحة، ويجيء نحو طاولة فارس. وبلا تردُّد، يجلس قُبَالَته، ويمدُّ له يده مُصافِحاً.

يَبقى فارس صامتاً، مُنتظِراً أن يُبادر الشخص الذي استضاف نفسه إلى قول شيءٍ. يبتسم هذا الأخير، ويبدو على طرف شفتَيْه تقلُّص عابر، كأنَّه ناجم عن شعورٍ مَّا بالحَرَج، لكنّ فارساً سيُدرِك فوراً أنَّه مُتوَهِّم إذا اعتقد أنّ هذا الشّخص يمُكن أن يَشعر بِالحرج. وها هو يتوجَّه إلى فارس، قائلاً بكلِّ ارتياح وثقة في صواب تصرُّفه:

- قُبَّعتُكَ هاته تُشبه قُبَّعات الصّعايدة، أَليس كذلك؟

تعجَّب فارس ممَّا قاله هذا الشّخص المثير للاستغراب، ولم يكن يعرف الكثير عن قُبَّعات أهل صعيد مصر، فبقي صامتاً. بعد لحظة، تبدَّتْ على شفتَي الشّخص الآخر ابتسامة صفراء، مفتعَلة بوضوح، وقال:

- مثل قُبَّعات أهل الصعيد في مصر، لكنَّ مصر أصلحها مبارك ... بِالفعل، أصلحها ... وليس الأمر كذلك في هذا البلد!

ههههه! ضحك فارس في دخيلته، ثمَّ شرع في كركرة صريحة، فتصنَّع الآخر الاستغراب. لقد أدرك فارس أنّ الشّخص الذي أمامه

ليس إلَّا مُخبِراً يتذاكى، ولكنْ، ببلادة واضحة! وقرَّر فارس أنْ يَعبث به قليلاً، فقال:

- أَصلَحَها مبارك؟ وما الذي فعله من أجل إصلاحها؟ فهل مصر درَّاجة هوائيَّة أو ناريَّة كان بها عُطل مثلاً؟ أنا لا أفهمكَ.

- أنتَ تفهمني بالتّأكيد، ردَّ الآخر. أنا أعني أنَّه أصلح أحوالَها، فأصبحت النّاس تشتغل وتعيش في يُسْر ... أو في شيء من اليُسْر على أيَّة حال، وليس كما هو الأمر عندنا!

قال فارس (راغباً في العبث بغريمه أكثر): وأنتَ، أَلستَ الآن تستمتع بالشّراب، فما أكثر ما تُفرِغ في جوفكَ مِنْ قناني البيرة، كما أنَّكَ تُدَخِّن سجائر أمريكيَّة غالية الثّمن!

- هذه أمور بلا أهمِّيَّة ... وإذا أردتَ أن تَصْرِف في الحرام، فلا بدَّ أن تجد نقوداً ... أنا أتحدَّث معكَ عن شيء آخر ...

وقرَّر فارس أن يستمرَّ في مماحكة المُخبِر الأرعن، فقال:

- لكنَّ البيرة ليست حراماً في المذاهب الإسلامية كلِّها، فأبو حنيفة لا يُحرِّمها بشكل مطلق ...

- كلام غير معقول ... ما تقوله هو هذر ...

- وإذا كنتَ تعتبر البيرة حراماً، ومع ذلك تشربُها، فأنتَ إنسان بلا عزيمة ...

تصنَّع المُخبِر أنَّه يُزمع النّهوض، وقال:

- أنا لن أتحدَّثَ إليكَ بعد هذه اللحظة ...

وبالطّبع، فقد كان يتمنَّى أن يستبقيَه فارس، بل وأنْ يطلبَ منه ألَّا يغضب، ولذا فقد كان ينهض بأناة وتثاقل. لكنَّ فارساً حَسم في المشكل:

- خيرٌ لكَ أن تعود إلى طاولتكَ، فقد أزعجتَنِي بما فيه الكفاية ... ثمَّ إنيّ أعرف مبتغاكَ، فأمثالكَ كُثر ... اِذهبْ، اِذهبْ ... ولا تَعُدْ.

نظر ذو الطّاقيَّة الملوَّنة إلى فارس شَزْرَاً، وحمل قِنِّيْنَتَهُ وعلبته، وعاد إلى حيث تنتظره قنانيه الفارغة.

عِوَضَ موسيقى مايلز ديفيس، حلَّت الآن أُغنيَّة لوديع الصّافي. يُصيخ فارس السّمع: الليل يا ليلى يعاتبني ... ويقول لي سَلِّم على ليلى ...

فجأةً، ها هي يدٌ تُربِّت على كتف فارس. يرفع رأسه، فتَثبُت عيناه، أوَّلاً، على وجه ينظر في اتِّجاهه، مبتسماً، مِن خلف الكونتوار. إنَّه النّادل ذو الشّاربَيْن الأشْيَبيْن، وهو يشير الآن بسبَّابة ويُحرِّكها. يلتفت فارس قليلاً، إلى حيث تُشير السَّبَّابة المتحرِّكة، فيرى وجهاً آخر ارتسمتْ عليه ابتسامة عريضة: إنَّه لَحسن ميمُّو، وهو الذي يُربِّت على كتف فارس.

ينهض فارس ليُحيِّيَ صديقه. مصافحة حارَّة، ثمَّ: كيف الأحوال، بخير عموماً، أين اختفيتَ؟ اشتقت لرؤيتك والله، وأنا أيضاً، إلخ.

يجلس ميمُّو إلى طاولة فارس، ويقول: كنتُ أتمنَّى أن أراكَ من زمان، لكنِّي لم أزر الرِّبَاط منذ فترة طويلة ...

- أنا الآن أَقطُن في مَسكَن آخر. سأترك لكَ عنواني ... لكنِّي، في الواقع، لمْ أعد أقيم في ذلك المَسكَن، إذا شئنا الدِّقَّة ... سأشرح لكَ ... لم أكن أعرف اسم الحانة التي تشتغل فيها قبل أن يُخبرني به حميد الرّيّس، أخو سعيد ...

- أوه! كان حميد ها هنا رُفْقة أخيه قبل فترة، وسعيد سأل عنكَ ... حميد يُدَرِّس الآن في بَرديشة ... أين التقيتَهُ؟

- في بَرديشة بالضّبط، فقد نقلوني للعمل هنالك.

- أَمْر مثير ... ستحكي لي عن هذا الانتقال غداً، حين نكون حول مائدة الغداء في شُقَّتي. هي قريبة من محطَّة السّتيام. سأعطيكَ عنواني ورَقْم هاتف الحانة، فليس لديَّ بعد هاتف في الشُّقَّة ...

- غداً، لن أستطيع أن أتغدَّى عندكَ ... فَلِي مشاغل ... لكنْ، هاتِ العنوان ورَقْم الهاتف ...

يَطلب فارس، هذه المرَّة، كأس فودكا من النّادل ذي السَّحْنَة الهندية. يعرف الآن أنّ اسْمه المحجوب. وبعد أن تجيء الكأس، يَعُبُّ منها، ويشعر بأنّ الشّراب يتمشَّى وئيداً في مفاصله. ويتتبَّع صوتَ مُحمَّد الحيَّاني، الذي يُغنِّي الآن لضيوف زوجة أخناتون من صندوق الموسيقى.

يُدندن فارس مع المغنِّي ويَنقر بأطراف أصابع يُمناه على الطّاولة. يلتفت يساراً فيلاحظ أنّ المخبر ذا الطّاقية المُلوَّنة قد رَحل. يستلذُّ شرابه ويَسُرُّه أنَّه لا يُفكِّر في شيء مُحَدَّد. يترك دماغه يرتاح قليلاً. يقول في نفسه: لا أُفَكِّر الآن في شيء. أنا أُنْصِت إلى عظامي فحسب! إنَّه يُجيل ناظرَيْه، أيضاً، في أرجاء المكان. إذا أدار رأسه يساراً، يرى مارَّة عبر باب الحانة المفتوح، وشجرةً أيضاً. وإذا التفت يميناً بعض الشَّيء، يُعاين الرِّوَاق الذي يتفرَّع عنه مجاز أوَّل، يؤدِّي في منتهاه إلى المراحيض، ثمَّ ثانٍ، يوجد به المطبخ. وقد رأى، قبل لحظات، نادلاً ينقل من هنالك صحن كباب لإحدى الطّاولات، لكنَّه هو لم يَجُع بعد بما فيه الكفاية، لذا ...

ثمَّ يلاحظ أنّ ميمُّو مُقْبِلٌ نحوه مِن جديد، يَتبعه، على مسافة قصيرة، شخص أطول منه، ينظر في اتِّجاه فارس ويَبتسم. وفارس يُوشِك أن يعرف مَنْ هو، لكنْ، عليه أن يُنَقِّب قليلاً في الذّاكرة ... ثمَّ يُسارع ميمُّو إلى الكلام، بإيقاع مَرِح:

- هذا السَّيِّد الذي يُرافقني مسرور بأنَّكَ هنا، وبأن يراكَ! انظر إلى هذا الوجه، فلا بدَّ أنَّه سيعني لكَ شيئاً!

ونظر فارس إلى ذلك الوجه، وما هي إلَّا بِضْع ثوان حتَّى عاد قليلاً، وبِحركة مباغتة، إلى الخلف بِجِذْعه، وندَّ عنه صوت ناجم عن المفاجأة: "أووووه!". ثمَّ وقف وعلى شفتَيْه ابتسامة عريضة، فقد سُرَّ فعلاً برؤية ذلك الشّخص، الذي لم يكن سوى عليّ السّيّال، الحارس العامّ، ذات زمان، بثانويَّة (ط) بخريبگة. قال فارس:

أهلاً، سي عليّ. تفضَّل، تفضَّل.

فكَّر فارس أنّ سي عليّ لم يتغيَّر كثيراً، فيما عدا ظهور بعض الشّيب الذي خالط شَعْره الجعد، وازدياد وجهه نحافةً وسُمْرَةً. وتَذكَّره في مواقف مختلفة، وتوقَّفت ذاكرته عند سي عليّ وهو يشرح قصيدة لأبي الشَّمَقْمَق، ثمَّ عند لحظة غضب الباشا عليه في ثانويَّة (ط). قال فارس:

- والله يا سي عليّ إنِّي مسرور جِدَّاً بالالتقاء بكَ، وبأن أُجالسَكَ ... إنَّها لَلحظة جميلة بالنِّسبة إليَّ ...

- أنا أيضاً سعيد بهذا اللقاء، وأقول لكَ، من دون أن تسألني، بأنِّي أتذكَّركَ جيِّداً، كأنيّ رأيتُكَ البارحة فحسب في ساحة الثَّانويَّة ... اسْمُك العائليّ نمير، أمَّا اسمكَ الشّخصيّ، فَعَلى طرف لساني ... لحظة وأستحضره ...

- فارس، فارس ... أنا فارس نمير ...

- نعم، نعم. أنا أتذكَّركَ جيِّداً ... ماذا كنتُ أقول ...؟ لقد غادرتُ تلك الثَّانويَّة في الوقت نفسه مع فوجكم. بالفعل، ذلك ما حصل ... ففي السّنة المُوالية لاجتياز فوجكم امتحانات البكالوريا، أصبحتُ أنا حارساً عامَّاً بورزازات ... نَقْل تأديبي ... هههه ...

- لقد اعْتَدَوا عليكَ، يا أستاذي سي علي، لكنَّها تجربة على أيِّ حال، والآن، أنتَ مستقرٌّ هنا، فيما أحسب؟

- الآن، أنا أشتغل هنا، في كازا. فأنا ناظر بثانويَّة في "روشْ نْوار". وأنتَ، أين مُستقَرُّكَ؟

- أنا حكايتي حكاية، يا سي علي. حتَّى الأسبوع الفائت، كُنتُ أشتغل في الرّبَاط، أمَّا الآن، فقد انتقلتُ إلى بلدة صغيرة تُسَمَّى بَرديشة ... نَقْل تأديبيّ أيضاً ... عَلَى أيِّ حال، هي ليست بعيدة جِدَّاً من الدّار البيضاء ...

طلب عليّ السّيّال قِنِّيْنَة نبيذ صغيرة، أمَّا فارس، فرغب في كأس ڤودكا أخرى. وبقيا صامتَيْن للحظات، يُهَدِّئُ أعماقَهما صوتُ فيروز القادم من الجوكْ بوكسْ: "يا ترى نِسِينا ... قمر ليالينا ...". ثمَّ جاء النّبيذ ومعه الفودكا. وصبَّ عليّ السّيّال لنفسه كأساً وأجهز عليها في جرعة واحدة. لاحظ فارس أنَّ وجه جليسه احمرَّ قليلاً. لكنَّ الكأس الثانية هي التي بثَّتْ في دواخل سي عليّ حيويَّة أكبر، فاتَّسعت ابتسامته وتململ قليلاً في جلسته، ثمَّ استكان. ومدَّ له فارس علبة السّجائر، فتناول واحدة، وأشعل فارس سيجارة جليسه وسيجارته. فجأة، قال سي عليّ:

- تَعرف ماذا تذكَّرتُ الآن؟ لقطة لم تعد من قبل إلى ذاكرتي منذ أن عشتُها ... وربَّما وجودكَ معي هو ما يجعلها تحضرني الآن ...

صَمت عليّ السّيّال قليلاً، فكأنّه يُريد أن يُشَوِّق فارس إلى معرفة ما تذكَّره، وبدوره، بقي هذا الأخير صامتاً ومُتطلِّعاً ... ونفث عليّ السّيّال من دخان سيجارته، ونظر إلى جمرتها قليلاً، ثمَّ قال:

- واقعة بسيطة في الواقع، لكنها تبدو لي الآن ذكرى جميلة ... في واحد من تلك الأيَّام، حين كنَّا في خريبگة، كنتُ قُرْب الثَّانويَّة ولم أعثر على قدَّاحة لأُشعل سيجارتي، ورأيتُكَ قريباً من باب الثَّانويَّة، وأنتَ الذي أعطيتَني سيجارتكَ لأُشعل منها ...

- نعم، نعم، أتذكَّر أنا أيضاً تلك اللحظة ...

أضاف عليّ السّيّال:

- وكانت معكَ شابَّة ... تلميذة ... وكنتمُا معروفَيْن بعلاقتكما الحميمة جِدَّاً ... شخصيَّاً، كنتُ معجَباً بعلاقتكما، وكنتُ أتمنَّى أو ... أحلم، ههههه، بأن تدوم وتستمرَّ ... اسمُ تلك التّلميذة هو ... انتظِر لحظة ... الذّاكرة لا تُسعفني ... هل ما تزالان معاً؟

- كَلَّا، كَلَّا ... لا نعيش الآن معاً ... اسمُها وديعة خُفاف ... والواقع أنِّي لا أعرف أين هي ... بعد سنة البكالوريا، لم أعد أعرف أين تعيش ولا ماذا تفعل ...

بدا عليّ السّيّال كالمندهش، للحظة، ثمَّ مندهشاً فعلاً، وتدلَّت شفته السّفلى قليلاً، لكنَّه سارع إلى مَدِّ طرف لسانه إليها وتمريره على وسطها لِيُبَلِّلها، ثمَّ أعادها إلى وضعها العاديّ، وحاول أن يُزيح علائم الاستغراب عن سَحْنته. فبادر فارس إلى التّوضيح:

- الذي حَدث، سي عليّ، هو أنَّني في أواخر سنة البكالوريا، وحين لَم يَبقَ على موعد اجتياز الباك سوى أيَّام معدودة، أُصِبتُ بمرضٍ غريب وقاهر، فمضيتُ إلى الرِّبَاط، مُعتقِداً أنِّي سرعان ما سأُشفى

وأعود إلى خريبگة لأجتاز الامتحان، لكنِّي كنتُ متفائلاً في تقديري، فقد أَلِفني المَرَض وأبى مُفارقتي لفترة طويلة ... المهمُّ أنّ الامتحان فاتني، وبعد وقت أمكنني أنْ أعود إلى خريبگة، فبحثتُ عن وديعة خُفاف، لكنَّ عائلتها كانت قد أفرغتْ بيتها الذي أعرف، وقِيل لي إنّهم رحلوا إلى بلد آخر، ربمَّا ... ثمَّ، بِكلِّ بساطة، أَصبحتُ لا أعلم أين هي ...

بدا عليّ السّيّال شارداً قليلاً، غائباً عن الجلسة. ويبدو أنَّه كان يُحاول استحضار ذكريات مُعَيّنة واستجلاءها. ثمَّ أضاءت وجنتاه وافترَّت شفتاه قليلاً، وبَدتْ عليه علائم فرح مُفاجِئ وغريب، فاستثار بذلك اهتماماً شديداً مِن طرف فارس الذي أحسَّ أنَّه سيسمع منه كلاماً شديد الأهمِّيَّة بالنسبة إلى موضوعهما. بعدها قال:

- أوه! الآن، تعود إليَّ تلك الذّكرى: كنتَ، بالفعل، قد تغيَّبتَ عن امتحانات دورة الباك تلك، وجاء تلاميذ إلى الإدارة وسألوا عن عنوانكَ، كانوا أربعة أو خمسة إن نفعتْني الذّاكرة، من بينهم وديعة خُفاف، وصديقتها نزيهة سليمي، وسعيد دوبال، وتلميذ آخر لا أتذكَّر الآن مَنْ كان ... ولا تتعجَّب مِنْ سرعة تذكُّري لاسْمَي نزيهة وسعيد دوبال!

- بصراحة، أتعجَّب قليلاً، لكنَّ مثل هذا يَحدُث، طبعاً ...

- منذ انتقالي مِن ورزازات إلى الدّار البيضاء، خاصَّةً، أصبحتُ ألتقي ببعض مَنْ كانوا تلاميذَ بالثَّانويَّة التي درستَ بها أنتَ بخريبگة، من فوجكَ أو من أفواج سابقة ... لقد انتقلتُ إلى كازا في بداية السّنة

الدّراسيَّة الماضية ... هكذا، حَدَثَ أنْ دخلتُ قبل نحو شَهر إلى هذه الحانة مُصادفة، فتعرَّف عليّ ميمُّو، واستذكرنا أيَّاماً وأحداثاً، والآن، ها أنا ألتقيكَ ... وقبل أيَّام، التقيتُ الثّنائيّ الذي ذكرناه ... نزيهة وسعيد دوبال ... نزيهة سَليمِي، هذا اسمُها الكامل ...

- نعم، نعم ...

- وقد تعرَّفا عليَّ، وأنا أيضاً تذكَّرتُهما على الفور ... فكثيراً ما جاءا رُفْقة صديقتكَ وديعة بعد أنْ بدا أنَّكَ تغيَّبتَ عن امتحانات البكالوريا ... صديقتكَ هي التي سألتْ عنكَ في المرَّة الأولى، وفي الثّانية، سعيد دوبال هو الذي تقدَّم وسألني ... وها قد مَضت الأيَّام والتقيتُكَ الآن ... أنا مسرور جِدَّاً برؤيتكَ ...

- أنا أيضاً، سي علي ... كنَّا نُقَدِّركَ كثيراً كما تَعلم ... وكيف حال نزيهة وسعيد؟

- التقيتُهما قبل نحو عشرة أيَّام، ثمَّ بعد يوم أو يومَيْن من لقائنا الأوَّل، ثمَّ بعد أيَّام قليلة من لقائنا الثّاني ... يعني ثلاث مرَّات ... إنّهما بخير، وهما الآن طبيبان. لهما عيادتان في العمارة نفسها، في حيٍّ ما لا أتذكَّره الآن ... لا، بل أتذكَّره ... هو حيُّ بُورْغون ... كانا يشتغلان في طَنْجَة، وقبل شهور، انتقلا إلى كازا ... التقيتُهما ثلاث مرَّات، ودائماً في شارع خلف مقهى لاشُوپْ ... شارع أسلكه أحياناً في أثناء جولتي المسائيَّة ... تَعرف، قد يبدو لكَ هذا مُضحِكاً، لكنِّي نادراً ما أجلس في مقهى عاديّ ... يعني بِلا مشروبات روحيَّة ... سعيد ونزيهة كانا مُتوجِّهَيْن إلى مقهى فسيح وأنيق، والزبائن الذين بدتْ لي أشكالُهم من الباب الزّجاجيّ كانوا يقرؤون صُحفاً ويُنصتون إلى

موسيقى هادئة. تعرَّفا عليَّ حين رأيَاني وسَرَّني ذلك، لكنّي أُحرجتُ قليلاً حين دَعَواني لِشرب شيء معهما، واعتذَرْتُ. كانت السّاعة نحو السّادسة والنّصف ...

كان فارس الآن شِبه شارد، فهو يتخيَّل وديعة ونزيهة وسعيد قادمين مِن ساحة الثَّانويَّة في اتّجاه مكتب عليّ السّيّال، ليسألوه إن كانت لديه معلومات عن سبب عدم حضوره امتحانات البكالوريا ... وديعة خُفافْ، كيف كان شُعورها وقتها ...؟ وهو، الذي كان راقداً في بيت أهله ومريضاً، وكان يعتقد أنّه لن يصعب عليه أن يُلاقي وديعة وقتما استعاد قواه ... كان يظنُّ أنّ علاقتهما ترسَّختْ وأنَّها ستبقى ما بقيا في هذا الوجود ... وحين اختفتْ وَديعة وعائلتها، بقي تحت وطأة صدمة قويَّة، وقد حدث أن تساءل عمَّا إذا لم تكن وديعة خُفاف قد اعتبرتْ علاقتها معه مُجَرّدَ تجربة عاطفيَّة عابرة. لكنْ كيف يكون هذا ممكناً، ألم تكن عاطفتها إزاءه قويَّة جِدَّاً، ألم تكن علاقتهما عاطفية - جسديَّة وفي أقصى درجات الاحتدام؟ بالفعل، هذا ما كان في الواقع، فكيف اختفتْ وديعة فجأة؟.. ثمَّ يخرج فارس مِن حلقة التساؤلات المفرغة هاته. لكنْ، ها هو شقٌّ ينفتح في الجدار المظلم الذي كان يواجهه كلَّما حاول استكناه الغموض المحيط باختفاء وديعة مِن حياته، فنزيهة كانت صديقتَها الحميمة، ولا شكَّ أنَّه إذا قابلها ستُخبره، على الأقلّ، عن الظروف التي غادرتْ فيها عائلة وديعة المغرب، وعن المدينة التي توجَّهتْ إليها ... وشعر فارس بأنَّ ثِقَلاً يتزحزح عن صدره ... سيعرف شيئاً أو أشياء مهمَّة من نزيهة ... وكأنَّ عليَّاً السّيّال حَدَس ما كان يدور في ذهن فارس، فقد قال:

- المقهى الذي يرتادانِه اسمُه مقهى عبير ... إذا أردت أن تراهما، فأنتَ تعرف الوقت الذي يجيئان فيه إلى ذلك المقهى.

- مقهى عبير، اسم جميل، قال فارس ... لا شكَّ أنَّه مُسَمَّى على فتاة ... سأمضي إليه غداً لرؤيتهما ...

- ربَّما هو مُسَمَّى على فتاة، قال عليّ السّيّال. وفي هذه الحالة، ستكون في أغلب الظَّنِّ ابنةَ صاحبه ... ههههه ...

كان عليّ السّيّال مَرِحاً. وأضاف:

- أنا بدأتُ أجوع ... سأطلب وجبة سمك ... مع نبيذ أبيض. وأنتَ؟

في ذلك الوقت، كان نادل ونادلة يحملان، من حين لآخر، صحوناً إلى بعض الطّاولات. قال فارس:

- فكرتُكَ يا سي عليّ عظيمة ويُقتدَى بها ... سأتضامن معكَ ... ههه ...

كان فارس يقترب من الأوطيل حين رأى جوقة ملتئمة أمام باب محلٍّ تجاريٍّ غير بعيد. كانت جوقة صاخبة. في العادة، لا يتَّسم فارس بالفضول، ولا يرغب في الاقتراب من أيِّ حشد يتجمَّع ليشاهد حادثة سَيْر أو يتتبَّع خصاماً حادَّاً تُستعمل فيه الشتائم أو السّواعد، لكنّه لم يصمد في هذه المرَّة للانجذاب الذي مارسه عليه مشهد المتجمِّعين، فتخلَّص ممَّا تبقَّى بين إصبعَيْه من السيجارة التي كان

يُدَخِّنها، ومضى في اتِّجاه الجَمْع. بعد خطوات، توقَّف. لقد صدمه مشهد الوجه المُدَمَّى الذي تراءى له من بين ظهور المتفرِّجين. ثمَّ عاين يداً تهوي بصفعة إضافيَّة على ذلك الوجه، وسمع خليطاً من الأصوات، فتقدَّمَ خطوة، ورأى الرّجل القصير، أشعث الشَّعْر، مُنتفخَ الشَّفَة العليا، وعلى وجهه بقع دم وصُفْرَة ناجمة عن الخوف. وتعالت أصوات بعض الواقفين:

- ما دُمتَ قد ضربتَهُ بنفسكَ، فباللهِ عليكَ، لا تُسَلِّمه للشّرطة.

- يَكفيه ما حلَّ به.

- الله يرحم والديك، اترُكْه يذهب إلى حال سبيله ...

وبدا أنَّ الشّخص الذي تلقَّى اللَّكْم والصَّفْع كان لِصَّاً ضعيف البنية، كهلاً، قصير القامة، وكان خيطُ لُعاب يتدلَّى من فمه. كانت عيناه مفتوحَتَيْن على سعتهما مِن الخوف. وكان مُلتزِماً الصّمت، وشابٌّ ذو شَعْر طويل يمُسك به من طرف ياقته الموالي لقفاه، ويُكَرِّر أنَّه ضبطه وقد أخفى تحت قميصه عدَّة جوارب وقُبَّعة من الصّنف الرّفيع. وقد كان الحشد أمام متجر كبير لبيع الملابس. تألَّم فارس لهذا اللصِّ. وتَجاوَب ذو الشَّعْر الطّويل مع النّاس الذين طلبوا منه أنْ يَترك الرّجل يمضي، فأرخى قبضته عن ياقته، وقال له: الآن، اذهب إلى حال سبيلكَ، وإيَّاك أنْ تعودَ إلى هذا المكان ... وانسلَّ ذو الوجه المُدَمَّى وهو يمَسح جبهته وخدَّيْه بظاهر كفِّه اليمنى، ووصل إلى الطّوار المقابل، ثمَّ دَلَفَ إلى زقاق فرعي، واختفى عن الأنظار. وَشَكَرَ بعضُهم صاحبَ الشَّعْر الطّويل، وبدأ الحشد يتفرَّق.

شَعَر فارس بالحزن بسبب المشهد الذي تتبَّع طرفاً منه. وتذكَّر كيف أنَّه تعرَّض للسّرقة خمس أو ستَّ مرَّات. ثمَّ استبعد كلَّ هذه التّداعيات وهو يدخل إلى الأوطيل، وفكَّر: لا بُدَّ أن ألتقي نزيهة، وستُخبرني عن تلك التي كانت صديقتها الحميمة في مُقتَبَل الشّباب، فمن اللازم أن أعرف أين هي وديعة ... وإذْ دَخل إلى غرفته، تمدَّد فوق السّرير، عازماً أن يرتاح قليلاً قبل أن يُقرِّر إن كان مستعدَّاً للنّوم (وإلَّا فإنَّه سيُشْعل التلفاز). وكرَّر لنفسه: أريد أن أعرف أين هي ... وبدا له أنَّ الأرق في انتظاره، لكنْ، هل عزم على النّوم منذ الآن؟ ينظر إلى الساعة، إنّها العاشرة وثلاث دقائق لا أكثر. ينهض من رقدته ويُغادر غرفته.

ينزل إلى بار الأوطيل، يطلب كأس فودكا، يُريد أنْ يُجلَبَ له إلى فوق، أي إلى الصّالون الذي في الطّابق الأوَّل. في ذلك الصّالون كراسيّ بأذرع باهتة الصُّفْرَة، متينة مُريحة تتحلَّق قُبَالَة تلفاز، وتنبسط وسطها سَجَّادة عريضة، عليها منضدة مديدة، تستدير عند كلٍّ من طرفَيْها. وعلى المنضدة منافض وبضع صحف ومجلَّات متناثرة.

حين وصل فارس إلى الصّالون، اتَّخذ له مكاناً في الجهة المقابلة لشخصَيْن أوروبيَّيْن، كهلَيْن، أحدهما أصلع، أحمر البَشرة، يبدو سكران ومرحاً، والثّاني أسمر ذو شَعْر جَعد. التفتا ناحيته، فحيَّاهما بحركة من رأسه. رَدَّ أحمرُ البَشرة بصوت عال، ضاحكاً: هِلّو. أمَّا الأسمر، فاكتفى بحركة مِن رأسه.

كان الأصلع هو الثّرثار مِن بين الرّجلَيْن، وكانا يتحادثان بالإنجليزيَّة.

وفَهم فارس، من خلال ما سمع منهما، ومن خلال لُكْنَتَيْهِما أيضاً، أنّ الأسمر فرنسيّ والأصلع هولنديّ. وبدأ الهولنديّ يروي نكتاً خليعة، وفي لحظةٍ مَّا، التفت ناحية فارس وأشار في اتِّجاهه بِيُسراه، كأنّما ليقول له: لا تُؤاخذني على بذاءة نُكَتي. حرَّك فارسه ذراعه اليمنى أفقياً، فاتحاً قبضته وفارداً أصابعه، مُشيراً بذلك إلى الهولندي بأن يستمرَّ في "قِلَّة حيائه" مرتاح البال. ثمَّ صَعِدَ النّادل، جالباً لفارس كأس الفودكا، وقال له: إذا شئتَ أن أُشعل لكَ التّلفاز ... فأجابه: شكراً، لا داعي لذلك، فيما يخصُّني ... وأدَّى له ما عليه، ونفحه بضعة دراهم. ارتشف فارس من كأسه. بعد لحظات، نَهَض الهولنديّ مُقهقهاً، والفرنسيّ باسماً، والتفت الأوَّل لفارس وقال له، بالإنجليزيّة: نحن ... نحن سننزل إلى الحانة ... ثمَّ أضاف، مستمرّاً في الضّحك: ستبقى وحدكَ ... انزِل إذا شئتَ ... ردَّ عليه فارس: ما من مشكل، شكراً، سَكْرَة طيِّبة ...

نهض فارس وخطا خطوة في اتِّجاه التّلفاز. وأشْعَله. تنقَّل بين عدد من القنوات، وفي النّهاية، أطفأه. وتساءل، قبل أن يَعود إلى غرفته: تُرى بماذا ستُخبرني نزيهة غداً؟

الخميس 17-4-1986

يستيقظ فارس. يُدَوِّش. يشعر أنَّه أكثر ارتياحاً. غريب أنيّ لستُ قلقاً، يُفَكِّر. ولماذا سأكون قلقاً. فَعَن طريق نزيهة، سأعرف مكان وجود وديعة، وسأتَّصل بها بالطّبع. أمر في منتهى الرّوعة أنْ أُصبح، من جديد، على تواصل مع وديعة خُفاف، فهي ليست أيَّاً كان في حياتي ...

ويخرج فارس من غرفته.

يتمشَّى على الرّصيف الأيسر لشارع عريض. يشعر بقطرة ماء تتسلَّل من تحت ياقته وتُصيبُ ظَهْره ببرودتها. تدبُّ على ضلوعه قُشَعْرِيْرَة. يرفع رأسه إلى فوق. أين الميزاب أو الأنبوبة أو الفتحة التي سقطت منها القطرة التي باغتتْني؟ لكنِّي أسير تحت السّماء نفسها، بل إنَّ قطرات أخرى تتسلَّل ما بين عُنقي وياقتي. إنَّه مطر خفيف، وها قطراته تُبَلِّل إسفلت الشّارع. وأشِعَّة الشّمس تفقد من حدَّتها، والفضاء يُخالطه لون رماديٌّ خفيف.

في زاوية يُشكِّلها شارعان، واحد كبير وآخر جانبيّ، يقبع مقهى أنيق، له واجهتان زُجاجيَّتان. يَدْلِف فارس إلى داخله، ينعطف يساراً، يَمضي مُحاذياً لإحدى الواجهتَيْن، يمرُّ قُرب الجانب الأيمن من

الكونتوار، حيث انهمك شخص قابع خلف صندوق في الحساب، مُشتغلاً بكلتا يدَيْه على الآلة الحاسبة. يختار فارس لنفسه الطاولة الأقرب من الجدار المقابل له.

هنالك بضعة زبائن، لكنْ، ما مِن موسيقى، وفارس يُحبِّذ الصّمت في هذه اللحظة. النّادلة الذي جاءت عنده لم تعد في مقتبل العُمُر، لكنّها في صحَّة جيِّدة، ولا تبدو مستاءة من الحياة. يطلب فارس كعكاً بالشّوكولا وعصير برتقال ... تسأله النّادلة إن كان يُريد صحيفة، فيُجيبها: نعم، شُكراً.

وتجيئه النّادلة بعدَّة صحف، عربيَّة وفرنسيَّة. يطرح معظمها فوق كرسيٍّ إلى جانبه، ويتصفَّح واحدة. يقرأ فيها عن آثار غارة جويَّة أمريكيَّة على موقعٍ مَّا بالعاصمة الليبيَّة. وفي صفحتها الأخيرة يُطالعه وجه الأديبة الفرنسيَّة التي ماتت قبل أيَّام: سيمون دي بوڤوار. يقرأ أسطراً عن هذه الأخيرة، تحت صورتها.

عبر زجاج الواجهة، يتطلَّع إلى الفضاء الخارجي: ها هي الشّمس قد عادت إلى إشراقها الجميل في الخارج. وها ناظراه يتملَّيان بِمنظر شُرْفة مفتوحة جدرانُها جميلةُ الفسيفساء، وعلى حبل غسيل ممدودٍ في وسطها، نُشِرتْ ملابس نسائيَّة ... والآن، لا بدَّ من القهوة السّوداء وسيجارة.

يدخل إلى المقهى شخص يُعلِّق على كتفه وِزرة بيضاء، وبيده اليمنى محفظة ثقيلة، ويُقْبل في الاتِّجاه الذي يوجَد به فارس، لكنَّه يجلس في طاولة أقرب إلى الباب. لا شكَّ أنَّه أستاذ. بعد لحظات،

يتَّضح أنّ تخمين فارس صحيح، فالرّجل المتوسِّط الطّول، ذو الكرش البارزة قليلاً والنَّظّارة السّميكة، يُخرِج من محفظته أوراقاً مزدوجة، وينهمك في تصحيحها.

ثمَّ يتذكَّر فارس أنَّه كان، أوَّل أمس، في بداية غفوة، وإذ استيقظ منها، مَدَّ يده ليضعها على صدر وديعة، توهُّماً منه أنّها كانت هنالك، متمدِّدة إلى جانبه ... وبالطّبع، فهي لم تكن هنالك. يتذكَّر الآن أنّ حنيناً عارما انتابه في تلك اللحظة إلى وديعة ... منذ نحو اثنَتَي عشرة سنة، يَحدُث يتساءل: أين هي الآن، ما الذي تفعله؟ وفي هذه الأيَّام الأخيرة، عادتْ إلى ذاكرته ووجدانه بقوَّة، بعد أن جاء ذِكْرها على لسان بوسبعين، وهو يتحدَّث عن كتابه الأوتوبيوغرافيّ. ثمَّ تحادث عنها مع حميد الرّيّس، وآخر مَن استحضر ذكراها وهي مع فارس، كان عليّ السّيّال. ربَّما هو، في هذا المساء، سيحصل على معلومات عنها تُبَدِّد حَيْرَته. هذا ما يتمنَّاه على الأقلِّ ... ويُلقِي فارس نظرة غير مقصودة على الصّحيفة التي أمامه، فيرى من جديد وجه سيمون دي بوڤوار. يتذكَّر أنَّه قرأ لها رواية بعنوان "دم الآخرين" وكتابَيْن آخرَيْن ...

بإصبَعَي يُسراه، السَّبَّابة والإبهام، المضغوطَيْن ببعضهما، يَحكُّ فارس بقعة صغيرة محَدَّدة من قفاه، ويقول في نفسه إنَّه أثر الخدش الخفيف الذي رسمه ظفر الإصبع الصّغير ليد وديعة اليُسرى على قفاه ذات صبيحة، ظفرها العابث الجميل الذي كانت عليه قشرة رقيقة من طلاء شديد البياض ولامع. لم يكن هنالك خدش فعلي، لكنَّ فارساً شعر بظفرها يَحكُّ قفاه في تلك اللحظة، وأحسَّ قُشَعْرِيْرَةً خفيفة وجميلة. والآن، كما في مرَّات سابقة، يتخيَّل أنَّه خدش دقيق

جِدَّاً، ويستلذُّ حكَّ مكانه. كان ذلك في صباح يوم خميس. أتذكَّر هذا جيِّداً. كانت وديعة في حصَّةِ رياضةٍ بدنيَّة، وكانت متألِّقة. كنَّا في بدايات علاقتنا، ولم أكن قد طلبتُ بعدُ مِفْتاحَ الشُّقَّة الصّغيرة من أيُّوب التّريكي، لنقيم فيها، أنا ووديعة احتفالاتنا الغراميَّة ... انتهتْ حصَّة الرّياضة البدنيَّة، وفي أثناء مغادرة وديعة للملعب، مرَّت مع رفيقات لها بجانبي، وكان حواليَّ تلاميذ وتلميذات، وبمجرَّد ما اقتربت منِّي - وكُنتُ أنظر إليها متكتّماً على ابتسامتي، حتَّى لا تلحظَها إلَّا هي - فتحتْ عينَيْها على سعتهما، ثمَّ جعلتْ أجفانها تَرِفُّ لِتُمازِحني، وما إن تجاوزتْني قليلاً حتَّى فاجأتْني ببنصرها وهو يخدش بظفره قفاي ... ولكم انتشيتُ بتلك الخدشة ...

كان فارس مُعجباً جِدَّاً بِجرأة وديعة خُفاف على إبداء مشاعرها في حضور تلاميذ آخرين، أحياناً، دونما تَحرُّج. وكانت هذه الجرأة لديها حتَّى قبل أن يُصبح لعلاقتهما بُعدها الجسديّ المحتدم والمنتظم، أي قبل أن يَستلم من أيُّوب التّريكي نسخة من مِفْتاح شُقَّته الصّغيرة. كانا إذَّاك قد تعارفا وأدركا أنَّهما مُتحابَّان. وقتها، يتذكَّر فارس، حَدَثَ أكثر مِنْ مرَّة أنّها تَكون مارَّةً بجانبي في ساحة الثَّانويَّة، وأنا مع بضعة تلاميذ، وهي مسرعة في اتِّجاه حجرة الدّرس، فتلكزني بمَرْفِقِهَا، أو تُركِّز عليَّ نظرتَها قليلاً، ثمَّ تُوَجِّهها إلى اتِّجاهٍ مُحاذٍ، فيما ترتعش أهداب عينيها بِحِسِّيَّة. وفي ظهيرة يوم جُمُعة، كنتُ ماضياً في اتِّجاه قاعة سينما، وكانت السّماء مُضَبَّبة قليلاً وتنثُّ رَذَاذاً، وأنا غير بعيد عن الحيِّ التي تَقطُن به وديعة. وتقوَّى الرَّذَاذ، وأصبح مَطراً خفيفاً تتسايل قطراته على وجهي وعُنقي وثيابي. ثمَّ شعرتُ بنقرات إصبع تتوالى

على قفاي، وبعدها بِيَد تُربِّت على كتفي، والتفتُّ فوجدتُ خلفي وديعة خُفاف مُبَلَّلَةَ الوجه، باسمةً، ولحظتَها مِلتُ نحوها، وبتِلْقَائِيَّة قبَّلتُ وجنتَها وزاويةَ شفتَيْها. وَمضيْنا صُعُداً في شارعٍ شِبه فارغ، ثمَّ نزلنا عبره حين أضحى منحدراً، وتمشَّينا حين أصبح مستوياً أمامنا، إلى أن وقفنا أمام واجهة مكتبة، كان قُرْبَها طفل وطفلة في ثياب دافئة يلعبان بِكُرة تِنِس ويضحكان.

نظرنا قليلاً إلى الكُتُب المعروضة، وفي لحظةٍ مَّا، وكأنَّما تَمّ ذلك باتِّفاق مُسَبَّق فيما بيننا، التفتُّ نحوها والتفتتْ نحوي، وتشابكتْ نظراتنا، مشتعلة برغبة عارمة، وفهمنا معاً في آنٍ واحد أنّ المُداعبات السّريعة والعابرة، وحتَّى قبلة مخطوفة من حين لآخر، لم تعد كافية لإشباع رغباتنا. نظرنا إلى بعضنا مَلِيَّاً، وبدا لي أنّ وديعة كانت تطلب منِّي أن أتولىَّ إيجاد ملجأٍ مَّا يؤوينا، ونتمكَّن فيه من إطلاق العِنَان لجموحنا العشقيِّ. قلتُ: وديعة، لو كنَّا الآن وحدنا في غرفة دافئة، كم كنتُ سأسعد بذلك ... وقالت وديعة خُفاف: هل تنتظر أنْ يأتي مَنْ يَعرض عليكَ مِفْتاح بيت فارغ ... تدبَّرِ الأمرَ ... جِدْ طريقةً ... ههه ... فبالفعل، لو كان لنا مأوى، لكنَّا الآن دافِئَيْن مستدفِئَيْن ... كان في كلام كلٍّ منَّا بُحَّة رغبة نُدركها ولا نتضايق منها. بُحَّة انفعال مفهوم. وتحرَّكنا خطوات، وفي زاوية مستورة قليلاً عن العيون تبادلنا قبلة ساخنة، لم نُطِلْها كثيراً ...

حين قالت وديعة: تَدبَّر الأمر، لم تكن تعرف أنَّ أيُّوباً التريكي، ابن أُخت زوجة عمِّي عبد السَّلام - كان بالفعل قد اقترح عليَّ أن يُسَلِّمني مِفْتاح شُقَّة العازب التي يَقطُن بها متى احتجتُهُ، أي إذا كانتْ هنالك

امرأة ما أريد أن أقضي معها وقتاً في حميميَّة. فأيُّوب التّريكي كان يشتغل بإدارة الفوسفاط، وكان قد مُنِح مَسكَناً في "الغَرْسُونِيرات"، أي شُقَق العُزَّاب. وهو، بالطّبع، يزور من حين لآخر بيتَ عمِّي، فزوجة العمِّ هي خالته. وفي البيت المذكور تعارفتُ معه. كان أيُّوب يزورني في غرفتي، وأحياناً يُشاركني إنجاز تمرين في الفيزياء أو في الرّياضيات، لِيُبرهن لنفسه على أنَّه لم ينسَ ما درسه قبل ستِّ سنوات، حين كان تلميذاً في قِسم البكالوريا. وقد حدث أن جلسنا معاً في مقهى خمس أو سِتّ مرَّات، كما أنِّي زُرت مَسكَنه ذات مساء كانت تُرافقه خلاله مُعَلِّمة صديقة له، سأراها في الشّارع، لاحقاً، راكبةً درَّاجة ناريَّة. في ذلك المساء، لم أكن مرفوقاً بامرأة، واكتفيتُ بأن شربتُ معهما بيرتَيْن - تلك كانت أوَّل مرَّة أذوق فيها مشروباً كحوليّاً - وعليَّ أن أقول إنِّي لم أشأ، لا في ذلك المساء ولا في أيِّ مرَّة أُخرى- أن أجلب معي إلى تلك الشُّقَّة بنتَ هوى محترفة، لأنِّي كنتُ شديد النّفور من الزّيف العاطفيّ الذي كنتُ سأعيشه في مثل تلك الحالة. وهذا لا يعني أنِّي لم أزر قَطُّ بيتَ بائعة هوى، بل حَدَثَ أن فعلتُ، لكنْ، بعيداً عن أيِّ توهُّم بصدد العلاقة العابرة، السّريعة، التي كنتُ أقيمها في مثل تلك المناسبة ...

بعد أنْ تحادثنا أمام تلك المكتبة، وظهرتْ، جَلِيَّةً، حاجتُنا إلى شُقَّة أيُّوب، طلبتُ منه نسخة من مِفْتاحه في مساء ذلك اليوم الماطر نفسِه، إذْ كان قد جاء في زيارة لبيت عمِّي. وقد لبَّى لي طلبي بحماسة، مشجِّعاً إيَّاي على خوض غمار غراميَّاتي التي آذنتْ باتِّخاذِ مسارها اللازم.

كان قد طرق بابَ بيت عمِّي فيما كنتُ أنا أَتصفَّح عدداً من مجلَّة "العربيّ" الكويتيَّة، وكان عمِّي يَروي لنا عن حادثة صَعْق كهربائيّ وقعتْ لمجموعة من عُمَّال الفوسفاط في أحد المناجم. ونهضتُ وفتحتُ الباب للطّارق، فدخل أيُّوب باسِماً فرحاً. قال لنا إنَّه قد اشترى سيَّارة مُستعمَلة وصغيرة، لكنَّها ممتازة وتُعجبه كثيراً. قال له عمِّي: هلمَّ إلى الخارج لأراها، فقال أيُّوب: لا، لم أجلبها معي الآن، فقد تركتُها في كراج ميكانيكي لِيُغيِّر لها العادم ... لَمْ تكن في رأسي أنا إلَّا فكرة واحدة، وهي أن أطلب منه نسخة من المِفْتاح. ثمَّ إنيّ تركتُهم في الغرفة الكبيرة، وتوجَّهتُ إلى غرفتي، وجلستُ إلى مكتبي، وفتحتُ دفتر الرّياضيات. كنتُ أعرف أنَّه سيأتي إلى غرفتي، وكان عليَّ أيضاً أن أُنهي إنجاز فرضٍ في حساب اللوغاريتمات. وسرعان ما جاء أيُّوب ووقف بجانبي، وسألني عمَّا أشتغل فيه. فأجبتُهُ، فقال إنَّه سيُحاول أن يُجيب عن سؤال واحد على الأقلّ، ليمتحن ذاكرته وذكاءه. فقلتُ له ضاحكاً: امتحنهما كما تشاء، يا أيُّوب، لكنْ (وهنا خفضتُ من صوتي وأضفتُ، ضاحكاً وجادّاً في الآن نفسه) لا حياةَ لي دون نسخة من مِفْتاح شُقَّتكَ! فأجابني: ممتاز، أخيراً ستنتفض على نُسْككَ ... وأضاف: مِفْتاحُكَ، أجلبه إليكَ غداً ... ثمَّ قال (وقد أبدى تفهُّماً أقوى للتعبير الذي ارتسم على وجهي، والذي بدا منه أنيِّ أستعجل تسلُّم المِفْتاح): لكنْ، يُمكننا أن نخرج معاً الآن، ونمضي إلى محلِّ صانعِ مفاتيح لِيَقوم باللازم ... وقفتُ وقلتُ له: فكرة جميلة وأكثر، أمَّا اللوغاريتمات، فستبقى في انتظاري، ولن يَضيرها ذلك.

إنّها لأوقاتٌ مشحونة بالفرح والانتعاش واللذَّة والحُبِّ، تلك التي

عشتُها مع وديعة خُفاف في تلك الشُّقَّة. لقد كنَّا نأوي إليها بكثير مِن التَّستُّر، مرَّتَيْن أو ثلاثاً في الأسبوع، على امتداد شُهور خمسة، وبالطّبع، ففي تلك الأوقات يكون أيُّوب غائباً عنها، منشغلاً بمهامِّه في إدارة الفوسفاط. هكذا يستذكر فارس تجربته الغراميَّة مع وديعة خلال تلك السّنة.

فهو وإيَّاها كانا يختاران الأصباح غالباً ليلتقيا في الشُّقَّة المعلومة. وَقْتَها يَكون فضاءُ "الغَرْسونِيرَات" هادئاً جِدَّاً، فارغاً تقريباً وشِبْهَ مَهجور، لأنّ أغلب قاطني تلك الشُّقق يكونون في الشّغل بإدارة الفوسفاط أو بالمناجم ... ومن جهة أُخرى، فساكنو تلك الشُّقق عُزَّاب، والزّيارات الأنثويَّة لفضاء تلك المساكن لم تكن تُثير اهتمام أحد.

كانت شُقَّةُ أيوب أنيقة. والدّاخلُ إليها يَجد، إلى يمينه، طاولة سطحُها زجاجيّ، فوقها تلفاز، تُقابلها، بعيداً عنها قليلاً، كراسيّ بأذرع يغلب عليها الأخضر الفاتح، متحلِّقة حول طاولة دائرية، فوقها غطاؤها القماشي، وبضعة كُتُب ومنفضة وأقلام. وهنالك بساط غليظ النّسيج يُغطِّي الأرضيَّة، كَلِيم برتقاليّ من صِنفٍ يُباع غالباً في البازارات التي تعرض بضاعتها للسُّيَّاح خاصَّة، وإلى اليسار، لِصْقَ الحائط، ثمَّة طاولة أخرى مستطيلة، فوقها مجلَّات ومُسَجِّلة وعقد كهرمان وغليون ... وكان هنالك حاجز خشبي طويل مديد يقسم الغرفة الكبيرة قِسمَيْن، أحدهما، إلى يسار القادم من الخارج، وهو الأقلُّ اتِّساعاً بكثير من الآخر، وبه يوجد المطبخ الصّغير، وبجانبه حمَّام، أمَّا القِسم الأكبر والأفسح، فهو الذي إلى اليمين، حيث الكراسيّ الخضراء ذات الأذرع

التي توجد خلفها ستارة خفيفة الحُمْرَة، مُسْدلة في أماكن ومنزاحة في أُخَر، يظهر وراءها سرير عريض، وخلفه جِدارٌ، دِهانُه أصفر فاتح.

في أَوَّل لِقاء لفارس بوديعة داخل تلك الشُّقَّة، بَدا كلٌّ منهما كأنَّه لا يُصَدِّق أنّهما بالفعل وحدهما في ذلك المكان اللطيف، الهادئ، الدّافئ. نَظرا إلى بعضهما مَليَّاً، وفي آنٍ واحد ارتسمتْ على شفَتَيِّ كلٍّ منهما ابتسامة عريضة، ووضع فارس سبَّابة يمناه على شفتَيْه وقبَّلها، ثمَّ نقل القبلة بطرف إصبعه إلى شفتَي وديعة. إثر ذلك، ودون إضاعة وقت، مَضيا إلى السّرير، وجلسا على حافَّته. وباندفاعة من جانبَيْهما معاً، تلامستْ شفاههما، سَريعاً في مرَّة أولى، ثمَّ في قبلة وجيزة في مرَّة ثانية، وبشكل فجائيٍّ، نهضتْ وديعة ومضت إلى الباب وأغلقتْهُ بالمزلاج، فقد نَسِيا أن يفعلا ذلك فَور دخولهما إلى الشُّقَّة ... وفي لحظةٍ مَّا، وجدا نفسَيْهما تحت الغطاء، عارِيَيْن ...

يُريد فارس أن يرتشف من قهوته، لكنَّ قَعْر كأسه قد نضب ونشف. لا يطلب قهوة جديدة. تدخل إلى المقهى تلميذتان بِوزرَتَيْن بيضاوَيْن، وتمضيان إلى الكونتوار. تطلبان من النّادل ماءً، فيصبُّ لهما كأسَيْن. إحدى الفتاتَيْن طويلة ممتلئة حسنة تكوير الرَّدْفَيْن، والثّانية نحيفة. يا للتباين في بنيتَي هاتَيْن الصّديقَتَيْن، يُفَكِّر فارس. يخفض عينَيْه، وإذا بسيمون دي بوڤوار تتطلَّع إليه كالعاتبة، فملامحها قد فقدت الانسجام، وذقنها اعوجَّ، وأصبح يشكِّل زاوية مُستقيمة مع باقي وجهها، وجبينها انبعج، وذلك كلُّه لسبب بسيط، وهو أنّ صفحة الجريدة التي تُوجَدُ بها قد انتفختْ وتكمَّشتْ من وسطها. ضغط فارس على مكان الصّورة ومسَّد عليه، فاستعادت تقاسيم الوجه

انسجامها. أمَّا الأستاذ القريب من باب المقهى، فكان مستمرَّاً في العكوف على أوراق التّلاميذ.

كانت تعود إلى فارس فلاشات من تلك الأيَّام التي كانت "غرسونيرة" أيُّوب، خلالها، مأوىً له هو ووديعة خُفاف: ذكريات حَيَّة، ومشاهد حِسِّيَّة، ومقاطع من حوارات. ففي تلك الشُّقَّة عاشا زمناً كثيفاً، وتبادلا الملذَّات الجسديَّة بلا حِساب. وذات أحَد، قضيا في السّرير أكثر من السّاعات الثلاث المعهودة، فقد بدآ نشاطهما الغراميّ في نحو الثّانية والنصف بعد الزّوال، وبلغا ذروة اللذَّة، واستكانا، وأغفيا قليلاً. ثمَّ نَهض فارس ومضى إلى اللافابو وغسل وجهه وقِحْفَهُ وعُنقه بماء وافر، وتنشَّف بفوطة - يتذكَّر جيِّداً أنَّها كانت برتقالية مُخَطّطة بالأخضر - وعاد ليتمدَّد فوق السّرير، لِصْقَ وديعة، النّائمة على جنبها الأيسر. وها هو على جنبه الأيسر أيضاً، خلفها، وجسده يلتصق بجسدها أكثر فأكثر. لكنَّه يلتفت قليلاً، يمدُّ يده إلى الكومودة، ومن إبريق فِضِّيٍّ يسكب قليلاً من القهوة في كأس. تنتشر رائحة القهوة، لاذعة وطيِّبة، خاصَّة وهي تمتزج برائحة أُخرى، نفَّاذة ومنعشة ومُدَوِّخة قليلاً، رائحة الحُبِّ الجسديِّ. يَرتشف من القهوة قليلاً، ويترك الكأس جانباً، وها فخذاه تتحكَّكان بردْفَيْها الصّقيلَيْن، السّاخنَيْن. تَشرع وديعة في الاستيقاظ، بحركة بطيئة، ويتحرَّك رَدْفاها قليلاً، يتحكَّكان بدورهما بأعلى فَخذَي فارس، وبأسفل بطنه. في حركتهما دَعوة قويَّة، مُلِحَّة. تُحَرِّك وديعة كتفَيْها، فيحتكُّ ظَهْرها بِصدر فارس. من الخلف، يُداعب براحة يده نهدها، ثمَّ يُطْبِق عليه كفَّه، ويَصدر عنها صوت مديد، صوت استمتاع، ويقول هو: يا للمواء

الجميل، فتندّ عنها ضحكة مُقتضَبة ... يلحس فارس كتفها قليلاً. يتكرَّر ذلك الصّوت المديد مِن قِبَلها، ويزيدها غُنجاً. يجتذبها فارس إليه، تُحرِّك رَدْفَيْها اللصيقَيْن بأعلى فخذَيْه، يَهُزُّ بيُمْناه رَدْفَها الذي يعلو الآخر، خالقاً من بين الرَّدْفَيْن منفذاً إلى منبع اللذَّة، ويندفع رويداً رويداً بِحِقْوَيْه إلى أن يكتمل التّلاحم ... وبَعد أن يَنتهيا، تستدير وديعة نحوه، تضع يداً على كتفه، وتلتقي عيونهما، ثمَّ تُغمَضَان، فيغفوان للحظات.

هل سَبق أن رأيتُ أفراداً من عائلة وديعة خُفاف؟

طبعاً. فذاتَ أحد، في نَحو الثّالثة مساء، كانت واقفة مع أبيها أمام فترينة بائع جاكتات جِلْدِيَّة، والتفتتْ إلى حيثُ كُنْت، فتفاجأتْ برؤيتي. تراجعتْ إلى الخلف قليلاً، بحيثُ لَم يَعد وجهها في مجال رؤية أبيها وغمزتْني، مُرفِقَة غمزتها بنصف ابتسامة. وقد رددتُ عليها بغمزة وبإشارة سريعة من رأسي. أبوها طويل القامة، رِياضيُّ المَظهر، في نحو الخامسة والأربعين، شَعْرُ رأسه أسود وكثيف وسبط، يرتدي بدلة زُرْقتُها ضاربة إلى السّواد، وقد بدا لي شبيهاً بالممثّل بيرت لانْكاسْتِر. أَخبرتُ وديعة لاحقاً بفكرتي عن أبيها، فقالت لي إنَّه بالفعل يُمارس الرّياضة، خاصَّة بعد أن توقَّف عن الاشتغال مع شركة الفوسفاط، "فهو لم يُجَدِّدْ عقدته معها" ...

مرَّةً أُخرى، في شارع قريب مِن حديقة عموميَّة، كانت تتمشَّى مع أُمِّها وأخٍ لها صغير، ورأتْني قادماً من الاتِّجاه المُقابِل لجماعتها، وإذ تلاقينا، توقَّفوا، وبدوري توقَّفتُ، وسلَّمتُ عليهم باليد. قالت وديعة:

هذا فارس نمير، يَدرس معي في الثَّانويَّة ... وهذه أُمِّي. واكتفيتُ أنا بأن قلتُ: مْشَرّْفين أَلاَلّا ... لكنَّ خالة وديعة، وأتذكَّر أنَّ اسْمَها رحمة، بقيتْ ذات مكانة خاصَّة لديَّ. إنَّها أكبر قليلاً من أُمِّ وديعة، وهي امرأة تُعطيكَ الانطباع بأنَّها وُلِدَت مبتسمة، وستبقى كذلك مدى حياتها. لباسُها تقليديّ: جلاَّبية أنيقة، حسنة الكيِّ، رُمَّانية اللون مُخطَّطة طولياً بأسطر خضراء قليلة العرض. وتقاسيمُ وجهها، وحرارة المُصافحة مِنْ قِبَلِها، توحي كلُّها بلطفها الشديد. التقيتُهما، وديعة خُفاف والخالة، في منتصف يومٍ مَّا، قُرب ملعب لكرة اليد، كانت تجري فيه مباراة ولا شكَّ، فحين كنَّا واقفِين معاً، كانت تصلنا أصداءُ تهليلِ وصياحِ المتفرِّجين. لم نكن وقتئذ قد التقينا أنا ووديعة في شُقَّة أيُّوب إلاَّ مرَّات قليلة، وكان اشتياقُ كلٍّ منَّا إلى احتضان الآخر في احتدام، وبدا ذلك للخالة من خِلال بريق عيوننا، وديعة وأنا. وقد لاحظتُ أنَّ وديعة لم تخفض من بصرها كما فعلتْ حين كانت مع أُمِّها، بل ورأيتُ في عينَيْها تلامُعاً ما إنْ يَخفت حتّى يزداد، وبدا لي ذلك علامة لا تخفى على رغبة جسديَّة، لا لَبْس فيها، وأكيدٌ أنّ عَينَيَّ وهما مُسَدَّدتان إلى عينَيْها تلامعتا أيضاً وأومضتا. لم يَصعُبْ على الخالة أنْ تقرأ تلك الرّسائل الومَّاضة المُبْرِقة بَين العيون قراءة مستوفية، مبنيَّة على خِبرة بخبايا النّفوس، وقد تضامنتْ معنا، فعاملتْني كأَنّي من أفراد عائلتها، وكأنّها على معرفة قديمة بي ... بل إنّ عبارة بديعة صدرتْ عنها، إذ قالتْ، تعقيباً على إدراكها لتحابّنا القويّ، مُشيرة إلى وديعة، ثمَّ إليَّ: "الْغَابَة مَزْيانة للسّْبَعْ، والسّْبَعْ مزيان لَلْغابَة" (الغابة تَطِيبُ للأسد، والأسد يَطيب للغابة). بدتْ لي تلك العبارة مشحونة بالشّاعرية، وصاحِبتُها كائناً نادر الرّقَّة والذّكاء والتفهُّم والانفتاح. وفي

ما تلا ذلك اليوم، حَدَث أن استشهدنا، أنا أو وديعة خُفاف، بعبارة الخالة. فكان يَحدُث، مثلاً، أنْ أنطق أنا بِقسْمها الأوَّل، فترُدفه وديعة بالقِسْم الثّاني، ويبعث فينا ذلك مَرَحاً وضحكاً. بل إنّنا استعملناها أكثر مِن مرَّة في خِضمِّ نشاطنا الإيروتيكي، فكنتُ أُمَرِّر كفِّي المفتوحة أسفل بطن وديعة، وأقول لها: "الْغابة مَزيانة للسّبع"، وكانت هي تمُرِّر كفَّها الليِّنة أسفل بطني، وتقول، ضاحكةً: "والسّْبَعْ مَزيان للغابة" ...

ثمَّ حَلَّ مساء تلك الجُمُعة!

كان قد بقي على امتحانات البكالوريا أَقلُّ من ثلاثة أيَّام، إذ كانتْ ستبدأ يوم الاثنَيْن. يتذكَّر فارس أنه خرج في مساء يوم الجُمُعة ذاك من بيت عمِّه في نحو الخامسة مساء، بعد أنْ أبلى بلاءً حسناً في مراجعة الفيزياء والكيمياء. لقد حضَّر نفسه جيِّداً للامتحانات على امتداد فترة طويلة. وحين تَرك غرفته ترتاح منه قليلاً - بحسب العبارة التي وردتْ في ذهنه ساعتها - كان مقتنعاً بأنَّه استعدَّ بما فيه الكفاية لامتحان البكالوريا. مَضى في تجواله عبر الشّوارع، يتنفَّس الهواء مِلْءَ رئتَيْه، ويَنعم بأشعَّة شمس لطيفة وبخُضْرة أوراق الأشجار مِن حَوله. أمَّا وديعة، فقد قضى وإيَّاها مساءً غراميَّاً حافلاً أوَّلَ أمس في مَسكَن أيُّوب، أي يوم الأربعاء الفائت. موعدهما اللاحق سيكون بعد انتهاء الامتحانات. هو الآن يتمشَّى ويُدَخِّن سيجارة. ثمَّ ها هو يُلقِي بعَقِب السّيجارة على الرّصيف ويدوسُه بعَقِب حذائه. لكنَّه يستشعر ثِقَلاً في رأسه وكتفَيْه. يشعر بتعب فُجائيٍّ. وبصعوبة يتمشَّى الآن في الطّريق، وهذا يُفاجِئه. قدماه ثقيلتان وكأنَّهما ترتعشان، وفي رأسه أيضاً دوخة وابتراد. قبل أن يخرج من بيت عمِّه، قال لزوجة العمِّ إنَّه

سيزور خالتَه حدُّو، وربَّما يقضي الليلة عندها، بل يمكن أن يبقى عندها حتَّى يوم الأحد. وبدأ وهنٌ غريب يَسري في مفاصله، وها هو يجلس مضطرَّاً على قارعة الطريق. على رصيف شارع، تحديداً. جبينُه على كفَّيْه المفتوحتَيْن، ووجهه مُوَجَّه نحو الأسفل. تنتابه رغبة في التّقيُّؤ. يهتزُّ بطنُه وصدره، لكنَّه يبصق ماءً فحسب. يتوقَّفُ رَجُل بدرَّاجته النّاريَّة، ويسأله: نادي لكَ على سيَّارة إسعاف؟ يُجيبه: كَلَّا، كَلَّا، إنها مجرَّد وعكة طارئة وستزول. تتوقَّف امرأة مُمسكة بيد طِفلتها الصّغيرة، تنظر إليه وتقول: مسكين، الله يشافيك آوْليدي. يَبتسم لها امتناناً، رغم سوء الحال. يتمكَّن من الوُقوف ويَخطو بصعوبة. يتوقَّف شابٌّ في مثل سنِّه بدرَّاجته النّاريَّة، ويقول له: هل أنتَ مُتعَب؟ تُريد أن أنقلكَ إلى مكانٍ مَّا؟ هيَّا، تعالَ واركب. يركبُ خلفه ويَتمسَّك به جيِّداً، ويقول: اذهب بي إلى محطَّة الحافلات، الله يجازيك. كان قد شعر أنّ وضعه الصّحِّيّ لن يتحسَّن في غضون ساعات، وأنَّه من الأحسن أن يذهب إلى بيت عائلته بالرِّبَاط، وينعم بالرّاحة حتَّى مساء الأحد، وإذَّاك يَعود. وبالفعل، سيستقلُّ حافلة إلى الرِّبَاط، ثمَّ تاكسياً إلى بيت الأبوَيْن.

في الرِّبَاط، سيأخذني أبي من طبيب إلى آخر. ويحلُّ يوم امتحان البكالوريا وأيَّام بَعده وحالي لا تتحسَّن. فما عدتُ وقتئذ قادراً على الوقوف والمشي دون مساعدة مِن شَخص آخر. بل حدث ما عقَّد من تلك الحال. فَعَيني اليُمنى أُصيبتْ بحَوَلٍ غريب، مُفاجِئ، وأَصبح كلُّ ما أراه يبدو لي مزدوجاً، بحيث صار لازماً أنْ أُغْمِض عيناً قبل أنْ أمدَّ يدي لمصافحة شخصٍ مَّا، وإلَّا بدتْ لي يدُه الممدودة نحوي

اثنتَيْن، إحداهما قريبة من الأخرى، وفي هذه الحالة أمدُّ أنا يدي فتمرُّ من بينهما، ولا تمُسكُ إلَّا بالفراغ. كان ذلك يُحْنِقُني، وبعد أن تكرَّر عِدَّة مرَّات، أصبح يُضحكني ... وقد طُفنا على أَطبَّاء ومستشفيات طيلة عشرة أيَّام، وفي نهاية المطاف، تمَّ توجيهي إلى قِسْم جراحة الأعصاب بمستشفى ابن رشد بكازا ... ومن جديد، لزمني الانتظار ثمانية أيَّام أُخرى، ليَفرغ لي سرير في القِسم المذكور. والغريب جِدَّاً هو أنّ عيني اليُمنى، بمجرَّد ما استلقيتُ على سريري في المستشفى المذكور، وأبي ما يزال حاضراً معي، عادتْ إلى حالتها الطبيعيَّة، ولَمْ يَعد بها حَوَل، كما أنيِّ لم أَعُد أستشعر أيَّ وَهن أو عياء ... لكنّي لنْ أغادر المُستشفى إلَّا بعد خمسة عشر يوماً. ففي البدء، اعتقد الطّبيب أنَّه قد يكون بي مَرض عُضال في الدّماغ، وحتَّى إن زالتْ أعراضُه، فذلك لا يعني أنَّه اختفى. لكنْ، سيتبدَّى، بعد فحوصات مُضنية، أنيِّ لم أكنْ مُصاباً بشيء ممَّا كان قد ظنَّ ... هكذا غادرتُ المستشفى، لكنْ، بعد أن مرَّ شهر على امتحانات البكالوريا ...

بعد خمسة أيَّام من خروجه من المستشفى، سيعود إلى خريبكة. كان عمُّه قد علم بمرضه، لكنْ، بشكل متأخِّر، إذ اعتقد، في أوَّل الأمر، قَبل الامتحانات، أنَّه في بيت خالته حدُّو، وحين جاء تلاميذ من أصدقاء فارس وطرقوا بابه وسألوه عن زميلهم، لم يكن هو يعرف مكانَ وجوده. ولمَّا عاد فارس إلى خريبكة، ذهب إلى بيت عائلة وديعة، ولم يتردَّدْ في قَرع جرسه، لكنَّ أحداً لمْ يُجبْهُ. وكرَّر المحاولة أيَّاماً متوالية، دونما طائل، فاعتقد، في البدء، أنّ وديعة وأهلها سافروا إلى بلدة أخرى يقضون فيها العطلة الصّيفية، وأنهم سيرجعون إلى

بيتهم بعدها. وسيعود فارس في شهر سبتمبر إلى خريبگة، ليجتاز امتحانات الدّورة الثّانية للبكالوريا، ومُجَدَّداً يقرع جرس بيت وديعة، فإذا به يكتشف أنّ أناساً آخرين أصبحوا يسكنون فيه. وقد أخبرتْهُ المرأة التي فتحتْ له الباب بما سمعتْهُ من صاحب البيت، وهو أنَّ العائلة التي كانتْ تَقطُن به مِن قبل قد رحلتْ عن خريبگة وربَّما عن المغرب. هكذا ضاعتْ منه وديعة خُفاف ...

حين يُفَكِّر فارس في مرضه الغريب ذاك، فهو يميل إلى الاعتقاد بأنّ إصابَته ربَّما تكون قد ترتَّبت عن مادَّةٍ ما سامَّة، وَضعها له في لِفَافَة حشيش زميل للدّراسة، اسْمه أحمد مسرور، كان حسوداً وحاقداً على فارس بِشِدَّة، وكان شِرِّيراً جِدَّاً، ويُحاول التستُّر على نزعة الشّرِّ لديه بابتسامة صفراء مقيتة، لكنَّ عُدوانيَّته كانت تُغافله لِتَظهر، من حين لآخر، ولو عبر كلمات مشحونة بالحِقد. والواقع أنّ فارساً لم يُدَخِّن الحشيش، في تلك الأيَّام، إلَّا مرَّات معدودات، كما أنَّه لم يُدَخِّنه قَطُّ فيما بعدها. ومِن جهة أُخرى، فهو لم يَحمل قطُّ حِقداً حقيقيّاً على ذلك الشّخص المَدعُوِّ أحمد مسرور.

ينظر فارس إلى المنفضة. يعود من عالم الذكريات إلى جلسته في هذا المقهى بِكازا. لقد دخَّن ثلاث سجائر. يرنو إلى سيمون دي بوڤوار. لا انبعاجات في وجهها. الأستاذ يفتح المحفظة، ويبدأ في إعادة أوراقه إليها. من خلف الزّجاج، يبدو لفارس تلاميذ يتتابعون على الطّوار القريب. والسّاعة تُشير إلى الثانية عشرة وسبع دقائق. لا بدَّ أنّ هنالك ثانويَّة قريبة من هذا المقهى، يُفَكِّر فارس، ثمَّ ينهض لِيُغادر.

السّادسة مساءً تقترب. هل أنا قَلِقٌ قليلاً؟ ربمَّا، لكنْ، في حدود.

أنزل من تاكسي قرب مقهى لاشُوبْ. لستُ بعيداً عنكَ، إذن، يا مقهى عبير. وبداخلكَ، أتمنَّى أن أجد نزيهة وسعيد.

هل سأعثر عليهما؟ ربمَّا نعم، وربمَّا لا. وإنْ لَمْ يَجيئا اليوم؟ سأعود إلى غرفة الأوطيل، مُكَرِّراً في نفسي: ها قد عاد فارس بِخُفَّيْ حُنَيْنْ، ها قد عاد بِخُفَّيْ حُنَيْنْ ... بل إنيِّ إن لم أجدهما، سأذهب إلى حانة، وأشرب قليلاً، بهدف وحيد وهو ألَّا يُصيبني الأرق حين يجيء الليل.

يقطع فارس شارعاً، ويَدلِفُ إلى ممرٍّ فسيح، أنيق، فيه غادون ورائحون، وعلى جانبَيْه محلَّات تجاريَّة ومَقَاهٍ. إذا عثر على سعيد ونزيهة في مقهى عَبير، فهو لا يريد أن يبدو لهما مُبَلْبَلاً، ولو قليلاً. يُفكِّر أن يستعين على ذلك بكأس ويسكي. وبالفعل، يدخل إلى حانة، ويشربها.

يتجاوز لاشوپ الآن، ويسأل حارس درَّاجات ناريَّة عن مقهى عبير. يُشير الحارس إلى ممرٍّ ضيِّق بجانب مَرْأَب كبير ذي باب مفتوح على سَعَته. يقول لفارس: اخرجْ عبر هذا الممرِّ، وستجد نفسكَ قُبَالَة مقهى عبير.

إلى يمين مقهى عبير، مكتبة كبيرة. يمرُّ فارس أمامها، ويرى أغلفة كُتُب عربيَّة وفرنسيَّة معروضة على واجهتَيْها اللتَيْن يفصل بينهما بابها المفتوح. يتَّجه نحو المقهى. السّاعة تُقارب الآن السّادسة وأربعين دقيقة، فلا شكَّ أنَّهما بالدّاخل، يُفكِّر فارس.

المقهى فسيح متَّسع، والزّبائن فيه ليسوا بالكثيرين حول الطاولات السوداء المربَّعة المنقوشة الحوافّ. لون الكراسيّ أحمر غامق، وعلى الجدار المقابل للدّاخل لوحة كبيرة لفرسان تَخُبُّ بهم خيول في غابة. ارتاح فارس لموسيقى الغيتار الهادئة التي انسابت إلى مسامعه بمُجرَّد أن دخل إلى هذا المكان. وحرَّك رأسه ببطء، يميناً وشِمالاً، باحثاً عن صديقَيْه القديمَيْن. وقد بدَوَا له، في لحظةٍ مَّا، إلى يساره وقريبَيْن منه جِدّاً، بل كانت نزيهة تتطلّع ناحيتَه، كأنَّها تتساءل عمَّا يبحث عنه هذا الشّخص شبه التّائه، الذي تتنقَّل نظراتُه مِن يمين إلى شِمَال ومن شِمَال إلى يمين!

وابتسم فارس ووقف على رأسَي الرّجل والمرأة اللذَيْن كانت طاولتهما مُحاذية للجدار المقابل للباب. ونَهضت نزيهة لتستقبل فارساً كصديق عزيز، فقد تعرَّفتْ عليه، ومثلها فعل سعيد. سلام حارٌّ، تلامُسُ أصداغ وتحريك للشّفاه بقبلات وجيزة ...

قالت نزيهة: ها هو فارس يظهر بعد سنين ... إنَّها لَلحظة سعيدة ... لكنْ قل لنا كيف اختفيتَ واستمررتَ في الاختفاء منذ نهاية تلك السّنة ...

ابتسم فارس، مُحْرَجاً، وأفسح له صديقاه القديمان المجال لكي يجلس، ففعل.

نزيهة: أتَعْرف؟ لقد قلقنا كثيراً بسبب اختفائكَ المباغت في نهاية تلك السنة التي جمعتْنا ...

سعيد: أكاد لا أُصدِّق، يا فارس نمير ... أُقسِم أنيِّ تذكَّرتُك منذ

أيَّام فحسب ... ولا أُخفي عنكَ أنيِّ كنتُ ما أزال أظنُّ أنَّكَ قد تكون سُجِنتَ أو وقع له مكروه في نهاية سنة البكالوريا تلك ... أَخيراً، تنزاح من ذهني تلك الظّنون المخيفة كلُّها ... لكنْ، اِشْربْ شيئاً أوَّلاً... ولوَّح سعيد بِيُسراه، طالباً من النّادل المجيء.

جاء النّادل القصير، مُحمرَّ الوجنَتَيْن، مبهورَ الأنفاس. فكَّر فارس أنَّه مريض ولا شكَّ، وشعر بالتّعاطف معه. وبالفعل، كانت قطراتُ عَرَق تَنِزُّ من جبينه. طلب منه فارس عصير برتقال. وبعد انصرافه، قالت نزيهة، مُوَجِّهةً الكلام لفارس، فقد لاحظتْ تطلُّعه إلى ملامح النّادل:

- إنّه الآن أحسن ممَّا كان، وهو يُشْفَى شيئاً فشيئاً. نحن نجيء إلى هذا المقهى منذ فترة. كانت حالته أسوأ، لكنَّه يستعيد صِحَّته ... وأنتَ ...

سعيد (مُربِّتاً بيُسْراه على كتف فارس): حيَّرتَنا حقَّاً باختفائكَ الفجائيّ في وقت امتحانات البكالوريا ... ثمَّ قلْ لي: كيف جِئتَ إلى هذا المقهى؟ هل تعرف أنَّ جماعة كنتُ من بينها أخذتْ عنوان بيت عمِّكَ من الإدارة، وذهبنا وطرقنا بابه، لكنَّه لم يكن يعرف أين أنتَ؟ أكاد لا أُصَدِّق أنَّكَ فعلاً بجانبي ...

فارس: بل إنيِّ فعلاً بِجانبكَ ... أليس كذلك، يا نزيهة؟

كانت نزيهة وسعيد متقابلَيْن، وكان فارس بينهما، إلى يمينه سعيد وإلى يساره نزيهة. لم يكونا قد تغيَّرا كثيراً، وإن يكن سعيد قد أصبح على جانب من البدانة، فيما بقيت نزيهة على رشاقتها،

وقد احتفظتْ بِشَعْرها قصيراً مثلما كان في سنة البكالوريا. كانت تقاسيمها تَنُمُّ عن الحزم، وإذا فتحت فمها، يتبيَّن الفَلَج المعهود بين ثَنِيَّتَيْهَا التّحتيَّتَيْن. كانت الآن تضع قبضتها اليُمنى أسفلَ ذقنها وتُسنده بها.

فارس: لقد جِئتُ إلى هنا بقَصْد رؤيتكما، فقد أخبرني حارسُنا العامُّ عليّ السّيّال أنَّه التقاكما وأنتما على وشك الدّخول إلى هذا المقهى ... أكثر من مرَّة ... قال لي إنَّكما الآن طبيبان ... أمر مُفْرِح ... قال إنَّكما، مِن قبل، كنتما تُمارسان في طَنْجَة ...

كانا يستمعان إليه، وحين أشار إلى كونهما الآن طبيبَيْن، أشارت نزيهة إلى سعيد بسبَّابة يُمْناها، وقالت لفارس:

- بالله عليكَ انْظُرْ إليه ... طبيب ويتضخَّم بهذه الصّورة ... يأكل حتَّى التّخمة ... هههه ... لكنْ، قلْ لنا لِمَ لَمْ تحضر امتحانات البكالوريا في تلك السنة البعيدة الآن؟ وهل حدث أن اعتُقِلتَ لفترة ما أم ماذا؟ وما الذي تفعله الآن؟

روى لهما فارس ما كان قد حدث: كيف أنَّه كان قد أُصيب بِمرض غريب في فترة الامتحانات وبعدَها، بحيثُ لم يعد قادراً على الحركة، وكيف أنَّ مَرضه استمرَّ لوقت طويل نِسبِيًّاً. وأضاف أَنَّه، بعد أَن شُفِي، عاد إلى خريبگة، وبحث عن وديعة خُفاف، وذهب إلى مَسكَن عائلتها الذي كان يعرفه، وهنالك علم أنَّ عائلتها سافرتْ، أو ربمَّا تكون هاجرتْ إلى بلد أوروبي ...

كان جليساه صامتَيْن، وبدت نزيهة مشدوهة بشكل خاصٍّ. وأضاف فارس:

- لمْ أعثر على أحد يمُكنه أن يعطيني معلومات عن مكان وجود وديعة ... وربَّما هي، من جانبها، كان قد ترسَّخ في ذهنها أنيِّ اعتُقِلت وأنيِّ في سجنٍ مَّا ... وحتَّى هذه اللحظة، فأنا لا أعرف مكان وجودها ...

التفتَ فارس قليلاً ناحية نزيهة، إذ شعر أنَّها منشدهة فعلاً، وكان سعيد يحكُّ ذقنه بظفر سبَّابة يُسْراه في حركة متسارعة وقد زمَّ شفتَيْه، وامتقع قليلاً.

نزيهة: فارس عزيزي، إذن أنتَ لا تعلم ... أنا حزينة بسبب ما سأقول، لكنْ، يجب أن تعرف طبعاً ... لقد ماتت وديعة خُفاف منذ نحو اثنَي عشر عاماً ... ماتت وديعة ... أمر ...

كان فارس على وَشك أن يقول شيئاً، لكنَّه عجز عن ذلك، فقد شعر أنّ لِسانه تخدَّر أو شُلَّ. بقي صامتاً رغماً عنه. وأدرك أنَّه امتقع. وَصَمت رفيقاه أيضاً، ثمَّ، أخيراً، خرجتْ من فم فارس هذه العبارة:

- خبر مُحزن ... خبر مؤلم ... فليرحمها الله.

نزيهة: كانت وديعة تُحِبُّكَ كثيراً، وقد ذهبنا، وديعة وأنا وسعيد وأحمد الصّافي وزميل آخر إلى الإدارة لنسأل عنكَ أيَّام كنَّا نجتاز امتحان البكالوريا، وأعطونا عنوان بيت عمِّكَ، الذي كنتَ تقيم فيه... وكان قد شاع أنَّكَ اعتُقِلتَ، وصدَّقنا ذلك، خاصَّة حين قال لنا عمُّكَ إنَّكَ خرجتَ ولم تعدْ ... ففي تلك الأيَّام، كانتْ هنالك اعتقالات ...

سعيد: لِيرحمها الله. وماذا تفعل أنتَ الآن؟

أخبرهما فارس بأنَّه يشتغل بوزارة الثّقافة، وأنَّه انتقل منذ أيَّام من الرِّبَاط إلى بلدة صغيرة قريبة من خريبگة ... ثمَّ سأل نزيهة: كيف ماتت وديعة؟ لقد كانت في صِحَّة جيِّدة ... وأين ماتتْ؟ وأين توجد عائلتها الآن؟..

نزيهة: كما تعرف، يا صديقي، فقد حصلنا على بكالوريا علوم تجريبية في السنة نفسها ... أنتَ كنتَ في شعبة علوم رياضية ... وانتقل والد وديعة ليشتغل في مرسيليا، وكان قد بقي لبضعة أشهر لا يفعل شيئاً، وينتظر أن تُنهيَ وديعة سنتها الدِّراسية لينتقل إلى مدينة أخرى أو بلد آخر، فهو كان مهندس إلكترونيات ولم يُجدِّد عقده المنتهي مع شركة الفوسفاط ... المهمُّ أنَّه رَحَل وعائلته إلى مرسيليا بعد حصول وديعة على البكالوريا بِوقت قصير ... وتسجَّلتْ هي في كلِّيَّة العلوم بمرسيليا، بينما التحقنا أنا وسعيد بكلِّيَّة الطِّبِّ بمونبليي ... المدينتان في الجنوب الفرنسيّ. أنتَ تعرف طبعاً أنَّ وديعة كانت بالنِّسبة إليَّ أُختاً وأكثر، ولذا فقد بقينا على اتِّصال، عن طريق الهاتف غالباً، بل إنَّنا زرنا بعضنا أكثر مِن مرَّة. كانت وديعة كثيراً ما تتذكَّركَ، وكانت حزينة بسبب ما ظننَّاه جميعاً، أعني أنَّكَ كنتَ في مُعتَقلٍ مَّا. وهي كانت تهوى الرّياضة كما عهدتَها، ولذا فقد جاء وقت تحمَّست فيه لتسلُّق الجبال الوعرة الشاهقة ... لم تكن وحدها في هوايتها تلك ... لا أطيل عليكَ، يا فارس ... كانت وديعة في أواخر سنتها الثّانية بشعبة بيولوجيا - جيولوجيا، وكانت قد قالت لي إنَّها تنوي أنْ تزور المغرب في الصّيف الموالي وتبحث عنكَ

... وقد شَجَّعتُها على ذلك ... لكنْ، ما إنْ حلّ الصّيف، وعلمتْ أنَّها نجحت في الامتحانات، وستنتقل إلى السّنة الثّالثة حتَّى وقعت الحادثة المحزنة ... فقد خانتْها مُعَدَّاتُ التّسلُّق وهوتْ من عُلوٍّ شاهق ... لقد سقطتْ على صخور حادَّة، وماتت على الفور، إذ أُصيب رأسها قبل باقي جسدها ... لقد ماتت دونما ألم ... وهي الآن ترقد في سكينة بمقبرة المسلمين بمرسيليا ...

صمتت نزيهة للحظة، وكان فارس يستوعب، رويداً رويداً، ما وقع، فقد استقرَّت الحقيقة المحزنة في أعماق نفسِه، واستكان لها. كانوا ثلاثتهم صامتين، قبل أن تعود نزيهة مُجَدَّداً إلى الكلام:

- أتذكَّر آخر مرَّة رأيتُها فيها. كان ذلك في مُقتَبَل ربيع سنتنا الثّانية بفرنسا، وقد خرجنا من بيت عائلتها وركبنا باصاً ثمَّ آخر، ونزلنا قرب ممرٍّ عريض فسيح، فيه دكاكين تجارة ومحلاَّت مأكولات مغاربيَّة، وكثيرٌ مِن أصحاب تلك المحلاَّت مغاربيُّون، وحين خرجنا من ذلك السوق الكبير المديد، أتذكَّر أنَّ وديعة وقفت لتتأمَّل مبنى كنيسة قديمة، ثمَّ التفتتْ صوب رجل كان يحمل بيديه صندوقَ بضاعةٍ مَّا، كَبيراً ومستطيلاً، ومربوطاً من طرفَيْه إلى شريط كتَّان متين يُحيط وسطُه بقفاه، وكان هذا الأخير يقول ويُعيد، بِصوت مسموع، رخيم ومُنَغّم: شَمّ النّسيم، شَمّ النّسيم ...

تَقترب الحادية عشرة ليلاً، وفارس يستوقف تاكسياً ويَركب، ثمَّ يطلب من السّائق أن يأخذه إلى الأوطيل الذي يُقيم فيه. كان قد غادر المقهى التي التقى فيها نزيهة وسعيد دوبال بعد أن أعطياه

عنوان بيتهما ووعدهما بالزّيارة، وإثر ذلك مضى إلى حانة، وشرب قليلاً، وتناول عشاءً خفيفاً، وطيلة الوقت، كان حزيناً طبعاً بسبب النّبأ الذي لم يكن يتوقَّعه.

ينزل الآن من التّاكسي. سيصعد إلى غرفته، وغداً سيمضي في الصّباح إلى محطَّة القطار ليسافر إلى الرِّبَاط. هذا ما قرَّ عليه عزمُه. وفكَّر فارس أنّ زهوراً ستحزن حين تسمع خبر رحيل وديعة، فقد قالت له مرَّة، وكان قد حدَّثها عنها بإسهاب، إنَّها تمنَّت لو أصبحتْ صديقةً لها.

إنه الحب في أشد المراحل عنفواناً وتأثيراً: المراهقة، إلا أن نهايته التراجيدية جعلته مهيمناً على الذاكرة حتى في مرحلة النضج، وكأنه هو الذي يصنعها باستمرار.

قد تبدو فكرة الرواية شعرية، فحضور «وديعة خُفاف» يبدو وكأنه حضورٌ عابرٌ، فقد تم ذكرها مرات قليلة، ولولا أن اسمها هو عنوان الرواية فقد لا يلفت نظر القارئ، إنه حضور متخفٍّ، كامنٌ خلف الرواية، وخلف الشخصيات، لكنه متأهّبٌ للانقضاض بأية لحظة على الأحداث. هو، أيضاً، مترقّب، فالقارئ لا ينفك يبحث عن «وديعة» هذه، ولن يجدها إلا عبر مصيرها الصادم.

ومن خلال ذاكرة «فارس» الحاضرة والمتوهجة، سنتعرف على الاتجاهات السياسية له ولأصدقائه، في مطلع ومنتصف السبعينيات من القرن الفائت. ثم نتعرف على المجموعة ذاتها في منتصف الثمانينيات حيث النضج والمصائر التي قُرِّرت.

في هذه الرواية الأولى لهذا الشاعر «الكثير» سنكون مع الناس في تعدد اتجاهاتهم وميولهم الثقافية والاجتماعية والدينية، ونذهب حتى إلى القرى المجهولة وأبعد.

الناشر

ISBN 979-12-5591-002-2
9 791255 910022

المتوسط